



# المعول وأوربَا

۲۷

## مُحَمَّدٌ سَعِيدٌ عَمْرَانْ

أستاذ تاریخ العصور الوسطی

كلية الآداب - جهاز معاشرة الراهن

جامعة بيروت العربية سابقاً

دار المعرفة الجامعية

٤٨٣٠١٦٣ - المدارس - سوسيتى منى

٥٩٧٣١٤٦ - السطحي - ت - قنال السويس - ش - ٨٧



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## الاهداء

إلى شهداء وأبطال معركة عين جالوت  
أهدى هذا الكتاب

دكتور محمود سعيد عمران



# المحتوى

صفحة

١٣	..... مقدمة: أحوال الشرق الإسلامي زمن المغول
١٤	..... الخلافة العباسية
١٦	..... الدولة الخوارزمية
١٨	..... سلاجقة الروم
٢٢	..... الأيوبيون
٢٩	..... الفصل الأول
٣١	..... قيام دولة المغول
٣١	..... جنكيز خان
٣٤	..... تنظيم الامبراطورية
٣٨	..... فتوحات جنكيز خان
٤١	..... أوكيتاي ١٢٢٧ - ١٢٤١ م
٤٤	..... باطو وغزو الروسيا
٤٩	..... باطو وشرق أوروبا
٥٢	..... كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م
٥٥	..... مونكوه ١٢٥١ - ١٢٦٠ م
٦٥	..... قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤ م
٦٦	..... معركة عين جالوت ١٢٦٠ م
٧١	..... أباقا خان (فارس) ١٢٦٥ - ١٢٨٢
٧٤	..... مغول القفجاق
٧٦	..... تيمورلنك ١٣٦٩ - ١٤٠٢ م
٧٩	..... الطرق التجارية زمن المغول

صفحة

٨٣	الفصل الثاني
٨٥	أوريماز من المغول
٨٥	إنجلترا
١٠٢	فرنسا
١١٨	المانيا
١٣٨	الباباوية
١٦١	الفصل الثالث
١٦١	روسيا والغزو المغولي
١٦٣	مقدمة
١٦٧	تطور الأمة الروسية
١٧٩	الغزو المغولي
١٩٥	إقامة حكومة الملكة المستبدة
٢٠٤	روسيا تحت حكم رومانوف الأول
٢١١	الفصل الرابع
٢١٣	السفارات بين المغول وأوروبا قبل عين جالوت
٢١٣	مقدمة
٢١٦	المغول وأسطورة الكاهن يوحنا
٢١٨	سفراء البابا إنوسنت الرابع
٢٢٧	لويس التاسع والمغول

صفحة

٢٤٩	الفصل الخامس :
٢٤٩	السفارات بين المغول وأوروبا بعد عين جالوت
٢٥٣	سفارات أرغون إلى أوربا
٢٦٥	سفارات أولجايتوا إلى أوربا
٢٧٠	نشاط البعثات التبشيرية
٢٧٢	فكرة الحصار الاقتصادي لدولة المماليك
٢٨٧	خاتمة
٢٨٩	المغول والاسلام
٢٩٥	المداول والخرائط



**مقدمة**  
**أحوال الشرق الإسلامي زمن المغول**

- أ - الخلافة العباسية
- ب - الدولة الخوارزمية
- ج - سلاجقة السروم
- د - الأيونيون



## مقدمة

### أحوال الشرق الإسلامي زمن المغول :

كان العالم الإسلامي في المرحلة التي بدأ فيها ظهور المغول مقسماً إلى مجموعة من المالك والدولات الصغيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية. كما تميزت هذه المالك والدولات بالتنافر مع بعضها البعض من أجل السيطرة أو التوسيع على حساب الأخرى. يضاف إلى ذلك أن الطائفية الإسلامية قد لعبت جانباً في هذا الصراع. وهكذا إنشغل الحكام المسلمين فيما بينهم ولم يقدروا خطورة المغول إلا بعد أن اتجهوا إلى الغرب حتى الدولة الخوارزمية، ثم إلى آسيا الصغرى. ثم إلى جنوب روسيا. وأوروبا الشرقية حتى هنغاريا وبولندا، وأخيراً إلى سواحل البحر الأدربياتيكي.

وما يعنينا من العالم الإسلامي في هذا الموضوع هو الجانب الشرقي منها، أما الغربي منه في المغرب والأندلس فقد كان هناك أيضاً الصراعات الداخلية بالإضافة إلى مقاومة حركة الاسترداد. والجانب الشرقي من العالم الإسلامي كانت تتقاسمه عدة دول، ففي بلاد فارس أو إيران كانت تقوم الدولة الخوارزمية التي امتدت حدودها من جبال أورال في الشمال إلى الخليج العربي في الجنوب، ومن جبال السند شرقاً إلى حدود العراق غرباً.

وفي العراق كان الخليفة العباسي في بغداد وله السيادة الروحية، أما القوة السياسية والعسكرية فقد زالت عن هذه الخلافة، ولم يعد لهذا الخليفة من القوة إلا أن يطلب الدعوة على المنابر في صلاة الجمعة أو المناسبات أو الأزمات بأن يوفق الله المسلمين ، أو الإستنفار للجهاد .

أما الدولة الأيوبية في مصر والشام، فقد كان لها مشاكلها خاصة مع مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية على الساحل الشامي. وما يزيد المشكلة تعقيداً أنه مع ظهور أخطار المغول كانت الحملة الصليبية الخامسة قد إستولت على برج مدينة دمياط عام ١٢١٨ م مما أدى إلى وفاة الملك العادل، ثم انقسام البيت الأيوي إلى عدة ممالك أهمها مصر وعلى رأسها الملك الكامل ٦١٥ - ٦٣٦ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م، ودمشق وعلى رأسها الملك المعظم عيسى ٦١٥ - ٦٢٤ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م.

وكان هناك أيضاً دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وهي الدولة التي ظلت في مواجهة الإمبراطورية البيزنطية منذ نشأتها حتى نهايتها، يضاف إلى ذلك أخطار الصليبيين في بلاد الشام، ثم من الشمال الغربي بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين من قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م.

#### أ - الخلافة العباسية :

كانت علامات الضعف قد ظهرت على الخلافة العباسية في بغداد قبل ظهور خطر المغول، وهذا الضعف، كانت له جذوره العميقة التي بدأت منذ سيطرة العناصر الفارسية على الخلافة العباسية عندما إستأثرت الأسر الفارسية بمنصب الوزارة في الخلافة العباسية، الأمر الذي أظهر خلافاً بين العرب والفرس، وما تلى ذلك من أحداث أدت إلى دخول العناصر التركية إلى السلطة في بغداد، وبذلك أصبح يتطلع إلى السلطة ثلاثة عناصر هي العرب والفرس والأتراك.

وقد نتج عن هذا كله طمع حكام بنو بويه - الذين أقاموا دولتهم في جنوب غربي إيران في السلطة - وكان لهم ما أرادوا حيث نجحوا في

السيطرة على الخليفة في بغداد، وقد استأثر حكامهم بالسلطة، واتخذوا لقب السلطان، وطغى نفوذهم على نفوذ الخلفاء العباسيين، وكان بوسعمهم إلغاء الخلافة العباسية تماماً، ولكنهم لم يقدموا على هذه الخطوة خشية العالم الإسلامي السنّي، لأن دولة بنى بوهيم كانت من طائفة الشيعة.

كان لهذا كله أثره الكبير على هيبة الخلفاء العباسيين، وبدأ حكام الولايات في الاستقلال بولاياتهم، والاكتفاء بالولاية الإسمى للخلافة العباسية. ومن هنا تزقت الروابط القوية التي تربط الخلافة بتلك الولايات، ومع هذه الحركات الاستقلالية أو الإنفصالية، بدأت ملامح فساد الإدارة داخل الخلافة، الأمر الذي أدى إلى محاولة البعض الانفراط بالسلطة.

وتعرضت الخلافة العباسية أيضاً لسيطرة الأتراك السلاجقة، وهم مسلمون من طائفة السنّة. وقد سيطر هؤلاء على الخلافة واتخذ حكامهم لقب السلطان، وعرف حكامهم الأوائل بإسم السلاطين العظام، ويقى الخليفة في بغداد أو بالأحرى في قصره لا حول له ولا قوة. وتصرف هؤلاء السلاطين في الأرضي والمدن ومنحوها إقطاعيات للأمراء وذوي الشأن. وقد حكمها هؤلاء تحت إسم الأتابكة، وعندما انهار سلطان سلاجقة العظام كانت بلاد أعلى الفرات وشمال الشام ثم جنوبه عبارة عن دويلات لا تتعدي المدينة وما حولها، ثم كان الصراع بين الدولة الفاطمية وهؤلاء الأتابكة في بلاد الشام.

وعلى هذه الصورة إنفصلت أقاليم الدولة عن الحكومة المركزية في بغداد وأصبحت عاجزة عسكرياً عن مواجهة أي غزو عسكري، ولم يكن الخطر المغولي كأي خطر عادي، ولم يكن بسع الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) آخر خلفاء بنى العباس، وهو الرجل الضعيف الذي سيطر عليه رجال السوء أن يفعل شيئاً ضد هذا الخطر الجارف.

## ب - الدولة الخوارزمية :

وكان من نتائج إنقسام الدولة العباسية إلى دويلات، قيام دولة خوارزم وتعرف أيضاً باسم الدولة الخوارزمية، ومؤسس هذه الدولة هو نوشتكن أحد العبيد الذي كان مملوكاً لأحد الأمراء السلاجقة، وقد شغل عدة مناصب داخل القصر منها منصب الطشتدار، ويروى أيضاً أنه شغل منصب الساقي في بلاط السلطان ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م)، وفي عام ٤٩٦ هـ / ١٠٩٦ م عين نوشتكن حاكماً على إقليم خوارزم.

وكان نوشتكن هذا يعلم تماماً بحال الدولة العباسية وضعفها، لذلك سعى منذ البداية إلى الانفصال عن الخلافة أو بالأحرى عن السلطة السلجوقية، وحانت الفرصة لخلفائه من بعده عندما بدأ ضعف السلطنة يظهر بوضوح إلى جانب ضعف الخلافة نفسها، وذلك بعد الأحداث التي إنتهت بوفاة السلطان السلجوقي سنجر عام ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م. وعند هذه المرحلة إنضمت ممتلكات السلاجقة في خراسان وفارس إلى الدولة الخوارزمية. وبذلك إمتدت أملاكها من جبال الأورال إلى حدود الفرات ومن حدود الخليج حتى حدود نهر السندي.

ومع إتساع هذه الدولة، تطلعت إلى القيام بالعمل الذي قام به بنو بويه والسلاجقة العظام من قبل، ولكنهم إكتفوا بإزالة دولة السلاجقة العظام في العراق بعد هزيمة السلاجقة ومقتل سلطانهم طغرل بن ألب أرسلان في عام ٥٥٩ هـ / ١١٩٤ م وتقلدوا حكم هذه البلاد من الخلافة العباسية في عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م، ويروى ابن الأثير في هذا الصدد ما معناه أن الخليفة العباسي سير الخلع إلى خوارزم شاه ولو لولده قطب الدين محمد وتقليله بما بيده من البلاد.

وعلا تأسن الدولة الخوارزمية وراد نفوذها أيام حكم علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ - ٦١٧ هـ / ١٢٣ - ١٢٤ م) وكان علاء الدين هذا ملوكاً لشعبه، دولاً كثيراً في مساحات الخشيشية واستولى على قلعة توشيش، ولم يغرسوا إلاّ بعده أن دفعوا له مائة ألف دينار بعد ما عالم بهم صون أبيه، بضاف إلى ذلك أن علاقاته كانت عاصفة مع جيرانه المسلمين لمحاولته الإستيلاء على أراضيهم.

ومن ذلك أن علاء الدين إستولى على أراضي السلاطين الغوريين التي كانت تثلج جزء من أفغانستان الحالية وبعض أراضي غرب الهند. كما إستولى الخوارزمية أيضاً على الأراضي الواقعة غرب تركستان والتي تعرف بأراضي القرخطائيين والتي يرجع أصلهم إلى شمال الصين. ومع توسيع الدولة الخوارزمية على هذه الصورة أصبحت تتاخم حدود الصين دون دولة حاجزة بينهم وبين المغول بعد سقوط دولة القرخطائيين، وعندما هزم المغول الدولة الخوارزمية أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم غرباً حتى بغداد.

ولم يكتف الخوارزمية بذلك بل أنهم طمعوا في الخلافة العباسية منذ البداية، لأن خوارزم شاه بن تكشن كان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان، مثلما كان الحال معبني بويد والسلاجقة العظام. وعلى الرغم أنه لم يكن يسع الخليفة أن يعترض على هذا الطلب نظراً لقوة الخوارزمية، إلا أن هذا الطلب له مغزاً، وهو أن خوارزم شاه أصبح عدواً للخلافة العباسية. ويرجع ذلك إلى أن علاء الدين اعتنق مبادئ الشيعة، وأعلن أن هدفه إعلان خلافة شيعية ليستميل أهالي البلاد. ولكي يكتسب صفة شرعية إستصدر فتاوى تفيد أن الخلفاء العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من العلوين. وقد أدخل كل هذا الدولتين في صراع كان من نتائجه إضعاف القوتين معاً. الأمر الذي سهل على القوات المغولية هزيمة واحدة بعد الأخرى.

## سلاجقة الروم :

والمقصود بسلاجقة الروم هم الفرع السلجوقي الذي أقام ملكه في آسيا الصغرى وجاور الروم أي الدولة البيزنطية ، ولذلك عرفوا باسم سلاجقة الروم تبييزاً لهم عن فروع السلاجقة الآخرين . وكان أول حكامهم سليمان بن قتلمش في عام ١٢٥٧ م وأخرهم هرقلج أرسلان الرابع ١٢٧٧ م.

وتبدأ أحداث قيام هذه الدولة بمعركة منزكرت التي دارت رحاها عام ٥٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م حيث لقى فيها الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة وأسر فيها الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV ( ١٠٦٨ - ١٠٧١ م ) ، وأجبر على توقيع معاهدة مهينة . ولما عاد الإمبراطور المهزوم إلى القسطنطينية وجد أن الإمبراطور ميخائيل السابع Michael VII ( ١٠٧١ - ١٠٧٨ م ) قد إستولى على العرش ورفض الاعتراف بالمعاهدة ، وهنا قرر السلطان السلجوقي ألب أرسلان ( ٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٦٣ م ) الانتقام من الامبراطورية البيزنطية ، ولكن مات بعد قليل ، فخلفه ابنه ملكشاه ( ٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ - ١٠٦٣ م ) الذي عين سليمان بن قتلمش قائداً على القوات السلجوقية في آسيا الصغرى .

وقد نجح سليمان في توسيع رقعة منطقته في آسيا الصغرى حتى إمتدت الأراضي السلجوقية من البحر الأسود شمالاً حتى شواطئ البحر المتوسط جنوبياً ، وسيطر السلاجقة على مدينة نيقة التي إتخذوها عاصمة لهم . ولكن المشكلة التي واجهها سليمان عدم وجود رابطة بين سلاجقة الروم ، فكانت هناك مجموعة من الإمارates المستقلة وهي إماراة قيزيقوس Cyzicus . وإماراة أزمير وأماراة سينوب ، وإمارة كبادوكيا التي حكمها آل دانشمند ، وبعد وفاة سليمان حدثت إنقسامات بين الممالك السلجوقية ، وجد فيها الإمبراطور

البيزنطي فرصة للتحالف مع أمير ضد آخر.

وكانت الحملة الصليبية سبباً في إتفاق السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الجديد، فقد استطاع قلج أرسلان في إستعادة عرش والده (٤٨٥ - ١٠٩٢ هـ / ١١٧ - ١١٢ م)، وفي الوقت نفسه يستغل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ - ١١١٨ م)، مرور الحملة من أراضيه واستعاد جانباً كبيراً من الأراضي التي إستولى عليها السلاجقة بعد هزيمتهم في معركة نيقية Nicaea ومعركة ضورليوم Dorylaeum مما دفع السلاجقة إلى التراجع وإتخاذ مدينة قونيه Iconium عاصمة لهم.

وقد يستغل الإمبراطور البيزنطي فترة الصراع الداخلي بين السلاجقة بعد موت قلج أرسلان وهي فترة حكم ابنه ملکشاه (٥١١ - ٥١٧ هـ / ١١٦ - ١١١ م) وتحالف مع السلاجقة لمحاربة بوهمند الأول I Bohemond أمير أنطاكية (٤٩٨ - ٤٩١ م / ١٠٤ - ١٠٦ هـ) وكان النصر خليف الإمبراطور. ويبدو أن النصر الذي حققه الإمبراطور بالإضافة إلى الصراع الداخلي في دولة السلاجقة قد دفع الإمبراطور إلى نبذ التحالف الذي عقده مع السلاجقة وشجعه على إستعادة بعض المدن من أيدي السلاجقة. وقد أجبرت إنتصارات الإمبراطور على السلاجقة أن سعى السلطان السلجوقي إلى عقد الصلح مع الإمبراطور كسباً للوقت. ودارت معارك بين الطرفين بعد ذلك إنتهت بالتفاوض من أجل الصلح مرة أخرى. ويتبين من النصوص التاريخية أن ملکشاه لم يتخلى عن أي منطقة من المناطق الواقعة في أملاكه.

وظلت الحرب متقطعة بين السلاجقة والبيزنطيين، كان الصراع بينهما صراع وجود لا صراع حدود، بمعنى أن السلاجقة يودون الاستيلاء على كل آسيا الصغرى وتكون مياه البسفور والدردنيل هي الحد الفاصل بين الدولتين، في

الوقت الذي تسعى فيه بيزنطية إلى دفع السلاجقة إلى أقصى الشرق من آسيا الصغرى ، وطبقاً لهذه السياسة كان كل طرف يستغل المشاكل الداخلية في الدولة الأخرى ويحاول ضرب خصميه ، وفي عهد السلطان السلجوقي مسعود (١١١٦ - ١١٥٦م) نجح الإمبراطور يوحنا كومينوس John Comnenus في أن يوطد سلطانه في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى.

وتقرب السلطان قلج أرسلان الثاني (١١٥٦ - ١١٩٢م) من الإمبراطور البيزنطي مانويل Manuel (١١٤٣ - ١١٨٠م) وزاره في القسطنطينية عام ١١٦٢م. ودام السلام بين الطرفين حتى عام ١١٧٦م، وقد استغل قلج أرسلان هذا الهدوء وتدخل في منازعات بيت دانشمند، وإنتهى الأمر باعترافهم بسلطانه عليهم، وقد يسر له هذا السيطرة على الموقف داخل آسيا الصغرى وعلى حدود دولته من جهتي الشام والفرات.

ثم ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى قيام الإمبراطور مانويل باعداد حملة كبيرة لهاجمة السلاجقة في عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦م، وقد إغتر مانويل بما تحت يديه من قوات وتقىد في عمق آسيا الصغرى للوصول إلى مدينة قونيه عاصمة السلاجقة، ولكن القوات السلجوقيّة تمكن من إزالة هزيمة ساحقه بالجيش البيزنطي عند قلعة ميريوكيفالون Myriokephalon ولم تفق بيرنطة من هذه الهزيمة بعد ذلك .

وفي الوقت نفسه تعرضت دولة السلاجقة إلى بعض الاحداث الداخلية التي أدت إلى إضعاف أحوالها، يضاف إلى ذلك ما كان هناك من متاعب أثناء مرور بعض قوات الحملة الصليبية الثالثة وهي قوات الإمبراطور فريدرick باريروسa Frederick Barbarossa ، وما تلى ذلك من صراع على السلطة بعد

وفاة السلطان قلج أرسلان في عام ١١٩٢م، إلى أن استقر السلطان كيخسرو الأول (١١٩٦ - ١٢٠٤م) بفضل مساعدة آل دانشمند والتركمان. وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ضعف النظام داخل السلطنة السلجوقية. ويتبين ذلك إن من نتائج هذا الصراع وسوء النظام أن تولى السلطان سليمان الثاني عرش السلطنة السلجوقية (١١٩٦ - ١٢٠٤م) ثم تولى قلج أرسلان الثالث العرش بقية عام ١٢٠٤م، ثم عاد إلى كيخسرو الأول مرة أخرى (١٢١٠ - ١٢١٤م).

ومع بداية حكمه سقطت الإمبراطورية البيزنطية في أيدي الصليبيين ١٢٠٤ - ١٢٦١م، وخلال هذه المرحلة قامت حكومة الإمبراطورية البيزنطية في المنفى في مدينة نيقيا. وقد نجح كيخسرو أن يضم إلى بلاده مدينة أضاليه البيزنطية التي تقع إلى الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى على ساحل البحر المتوسط، كما نجح ابنه عز الدين بيكاوس الأول (١٢١٠ - ١٢٢٠م) في ضم مدينة سينوب الواقعة في جنوب البحر الأسود، وقد إستفاد السلجوقة من هذه المدينة عسكرياً وتجارياً.

ويعتبر عهد كيقباذ الأول (١٢٢٠ - ١٢٣٧م) من أفضل العصور في عهد الدولة السلجوقية، فقد تكنت الدولة في عهده من السيطرة على كل ساحل آسيا الصغرى الجنوبي حتى مداخل بلاد الشام، كما ضمت شبه جزيرة القرم، وبذلك تدفقت التجارة إلى آسيا الصغرى. كما اتخذ كيقباذ من مدينة العلايا مقراً له . ورغم أن الحياة الاقتصادية والحضارية إزدهرت في عهد كيقباذ الأول، إلا أن هذه المظاهر كانت تخفي وراءها عوامل الضعف والإنهيار، فقد بدأت المشاكل تظهر داخل الدولة عندما بدأ الخطر المغولي يداهم منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، وقد نجح المغول في دخول مدينة أرزن

الروم عام ١٢٤٢ م ثم هزموا السلاجقة هزيمة ساحقة في معركة كوس داغ في العام التالي وتحطم الجيش السلاجقي ولاذ السلطان كيخسرو الثاني (١٢٣٧ - ١٢٤٥ م) من أرض المعركة. أما وزيره مهذب الدين فقد تقرب إلى المغول ، فعقدوا معه إتفاقاً يقضي ببقاء الدولة السلاجقية على شرط تأدية الجزية كل عام، وأن ترسل الدولة للمغول الامدادات عند الحاجة. ثم زادت سيطرة المغول الإدارية بالتدريج على السلاجقة الأمر الذي عجل بزوال دولتهم في عهد آخر حكامهم مسعود الثالث (١٣٠٧ - ١٣٠٨ م).

### الأيوبيون:

أسس الدولة الأيوبية صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ولد في تكريت عام ١١٣٨ م من أبوين كردبين، وقد إنطلق صلاح الدين مع أسرته إلى بعلبك في العام التالي. وقد عين عماد الدين زنكي أتابك الموصل (١١٢٧ - ١١٤٦ م) والده أيوب قائداً لحامية المدينة.

وقد رافق صلاح الدين عمه شيركوه في حملاته على مصر خلال الصراع النورى الصليبي على مصر في عهد نور الدين زنكي أتابك حلب (١١٤٦ - ١١٧٤ م) وأتابك حلب ودمشق (١١٥٤ - ١١٧٤ م)، حتى انتهى الأمر بأن أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد (١١٦١ - ١١٧١ م)، ثم ما لبث الخليفة أن توفي بعد فترة قصيرة وإنتهت الدولة الفاطمية وبدأ التمهيد لقيام الدولة الأيوبية في مصر والشام والمحجاز واليمن. ووقع على كاهل صلاح الدين مقاومة الصليبيين في بلاد الشام، فكانت معركة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وما تلى ذلك من سقوط القدس وبعض مدن الساحل الشامي في أيدي صلاح الدين.

وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية الثالثة من أجل استعادة القدس وغيرها، ولكن هذه الحملة لم توفق في تحقيق أهدافها، وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة الذي عقد في عام ١١٩٢م، وما لبث صلاح الدين أن توفي في العام التالي ١١٩٣م، وتم تقسيم الدولة بين أمراء البيت الأيوبي، فضاعت وحدة الدولة وتقاسكها، وظل الصراع مستمراً لعدة سنوات حتى تمكن العادل أخ صلاح الدين من السيطرة على الموقف في عام ٥٩٨هـ - ١٢٠١م - ١٢٠٢م) وبدأ في إعادة تنظيم الدولة بعد التفكك الذي إنتابها.

ويصرف النظر عن كل هذه الصراعات قد تميز حكم العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد الصليبيين ولم يأخذ بسياسة الهجوم، لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبيين ربما يؤدي إلى قدوم حملة صليبية جديدة. ولذلك عقدت هذه في ١١٩٨م، ورغم ذلك وقعت بعض الاشتباكات بين الطرفين، ومن هذه الاشتباكات ما وقع في عام ٤١٢٠م عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبيين متسلعين بإمتلاك قوات الحملة الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية، وهي الحملة التي كانت وجهتها مصر ثم انحرفت لهاجمة الدولة البيزنطية، وعلى أيه حال لقد انتهت هذه الأحداث بهذه مدة ست سنوات، من عام ٤١٢٠م حتى ١٢١٠م ثم عقدت معاهدة أخرى من عام ١٢١٢م إلى ١٢١٧م.

ومع نهاية هذه الهدنة قدمت الحملة الصليبية الخامسة التي هاجمت مصر من عام ١٢١٨م حتى ١٢٢١م، تم خلالها الاستيلاء على مدينة دمياط. وفي هذه المرحلة بدأ الخطر المغولي في الأفق، الأمر الذي دفع الملك الكامل حاكم مصر إلى عرض الصلح على الصليبيين عدة مرات للجلاء عن دمياط مقابل التنازل عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا قلعتي الكرك

والشوبك ، ولكن الصليبيين رفضوا هذا العرض المجزي حتى إنتهت إحداث الحملة وهزمت هزيمة نكراء وإضطررت للجلاء دون قيدٍ أو شرط ، ثم عقدت هدنة لمدة ثمان سنوات.

زال الخطر الصليبي مؤقتاً وظهر خطر آخر وهو تجدد الصراع بين أفراد البيت الأيوبى خاصة بين الكامل حاكم مصر وأخيه المعظم حاكم دمشق ، فقد خرج المعظم على طاعة أخيه ودعا جلال الدين خوارزم شاه للاستيلاء على ديار بكر وحرض البعض على مهاجمة الموصل وحمص لانتزاعها من أخيه الأشرف ، ولم يكن أمام الآخرين سوى الخضوع لأخيه المعظم خاصة بعد ما تعرضت مدينة خلاط لهجمات الخوارزمية.

وأمام ما فعله المعظم عيسى ، قام الملك الكامل بدعوة الامبراطور الالماني فريديريك الثاني للقدوم إلى الشرق لتسليم مدينة القدس نكاية في أخيه المعظم . وقبل أن يصل الامبراطور مات المعظم في عام ١٢٢٧م ، وعندما وصل الامبراطور كان على الملك الكامل أن يحل المشكلة بشكل أو باخر ، وإنتهى الأمر بان سلم الكامل مدينة القدس للأمبراطور فسخط عليه كافة المسلمين.

ومهما كان الأمر فقد استمرت الهدنة حتى عام ١٢٣٩هـ / ١٢٣٧ م حين قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى على رأسها تيسيبوت الرابع Thibaut IV أمير شامياني وملك نافارو ، وبعض الأمراء الآخرين ، وتذزع الملك الناصر داود صاحب الأردن بوصول هؤلاء الصليبيين وطرد الصليبيين المحليين من القدس ، ورغم هذا كله فقد إنتهى الأمر باسلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان وبعض القلاع والمدن الأخرى.

ولم تكد هذه الحملة تغادر بلاد الشام حتى وصلت حملة أخرى تعرف باسم الحملة الانجليزية في عام ١٢٤٠ م وعلى رأسها ريتشارد أوف كورنل

أَخْ هنْرِي الثَّالِث مُلْك إنْجِلْتِرَا Richard of Cornwall بدورها في تأكيد حق الصليبيين في ملكية بيت القدس، وبعد قليل من رحيل هذه الحملة، تمكن الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة القدس في عام ١٢٤٢هـ / ١٢٤٤م ، وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة، كما استعان الصالح أيوب بالخوارزمية واستولى على مدينة دمشق ولكن هؤلاء الخوارزمية عاثوا في بلاد الشام فساداً حتى إنتهی الأمر بهزيمتهم عند حمص عام ١٢٤٦م ، فتبعد شملهم وزالت أهميتها كقوات مقاتلة.

وكان ضياع القدس من أيدي الصليبيين سبباً في قدوم الحملة الصليبية السابعة وعلى رأسها لويس التاسع ملك فرنسا وما حدث من نجاح رسو القوات الصليبية في دمياط وتراجع القوات الإسلامية إلى المنصورة ، ثم وفاة الصالح أيوب في نهاية ١٢٤٩م . وقد أرىك هذا كله القيادة الأيوبية ، ولكن شجر الدر نجحت في السيطرة على الموقف واستدعت توران شاه بن الصالح أيوب من حصن كيما في أعلى العراق لتولي حكم مصر ، وانتهت الاحداث بهزيمة لويس وأسره ثم إطلاق سراحه ورحيله من مصر، ومقتل توران شاه على أيدي المالك.

هب الأيوبيون في الشام مطالبين بالثأر لما حدث في مصر، وتقرر تعيين الغيث عصر سلطاناً على شرق الاردن بينما تولى الناصر يوسف أمير حلب حكم دمشق ١٢٥٠ - ١٢٥١م، وخلال هذه الاحداث تزوجت شجر الدر من عزال الدين أيبك وأصبح أول سلطان للمماليك في مصر، وهنا كون الأيوبيون بالشام حلفاً لاستعادة مصر، ولكن هذا الحلف هزم في عام ١٢٥٠م . وتمت محاولة أخرى في العام التالي إنتهت بالمفاوضات بين الطرفين تنازل فيها الناصر يوسف عن مدينة القدس للسلطان عزال الدين أيبك.

ولكن العداء بين الأيوبيين في الشام والماليك في مصر ما لبث أن تجدد بعد ما قتل أبيبك منافسه في الحكم وهو الأمير أقطاي، وهروب ماليكه إلى دمشق حيث رحب بهم الناصر يوسف. ولكن السلام ما لبث أن عاد بين أبيبك والأيوبيين بإتفاق في عام ١٢٥٦م تنازل بموجبه الناصر يوسف عن جانب من بلاد الشام. وظل الناصر يوسف لمدة أربع سنوات زعيماً للبيت الأيوبي في بلاد الشام. ولما إستولى هولاكو على بغداد عام ١٢٥٩م ارسل إلى الناصر يطالبه بالحضور، ولكنه لم يذهب وأرسل بدلاً منه إبنه العزيز محمد، وعندما توجه هولاكو صوب بلاد الشام غادر الناصر حلب وأقام خارج دمشق، وهنا أحس الناصر بضعفه أمام القوات المغولية فأرسل إلى القاهرة ليستنجد بالسلطان المملوكي سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م).

وفي يناير عام ١٢٦٠م تقدم المغول إلى حلب واستولوا عليها ونهبواها فهرب حاكمها المنصور الثاني الأيوبي وانضم إلى جيش الماليك تحت قيادة قطز، وبعد حلب إستولى المغول على دمشق في العام نفسه، ويسقط بغداد وحلب ودمشق وهي المدن الكبيرة بدا للجميع أن المسلمين قد حان أجلهم، ولكن المغول ما لبثوا أن هزموا في معركة عين جالوت ١٢٦٠م على يد القوات المملوكية بقيادة قطز فتغيرت الأوضاع تماماً في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي. وحاول المغول مرة أخرى الهجوم على بلاد الشام فاستولوا على حلب في عام ١٢٦١م، ولكن المنصور صاحب حماة والأشraf صاحب حمص تصدوا للقوات المغولية وأنزلوا بها هزيمة كبيرة ولم يكتفيا بذلك بل ظلا يطاردان القوات المغولية حتى عبرت نهر الفرات.

وبعد هذه الأحداث بقى من البيت الأيوبي المغيث صاحب الكرك، والأشraf

موسى صاحب حمص، والمنصور صاحب حماه، وفيما يتعلق بالغبيث فقد قتله السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩ م) في عام ١٢٦٣م وإستولى على الكرك - وعن المنصور صاحب حماه ، فقد إحتفظ بحكم المدينة ولأسرته من بعده، من سلالة المظفر الأول تقى الدين عمر (١١٧٨ - ١١٩١م) حتى تولى أمرها الأفضل محمد بن إسماعيل (١٣٣٢ - ١٣٤١م) - ومن سلالة هذا الفرع المؤرخ أبو الفدا (١٣١٠ - ١٣٤٢م) .



## الفصل الأول قيام دولة المغول

جنكىز خان

تنظيم الامبراطورية

فتحات جنكىز خان

أوكىتاي ١٢٢٧ - ١٢٤١ م

باطو وغزو الروسيا

باطو وشرق أوروبا

كيوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م

مونكوا ١٢٥١ - ١٢٦٠ م

هولاكو وسقوط بغداد ودمشق

قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤

معركة عين جالوت ١٢٦٠ م

أباقا (خان فارس) ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م

مغول القفجاق

تيمورلنك ١٣٦٩ - ١٤٠٢ م

الطرق التجارية زمن المغول



## الفصل الأول

### قيام دولة المغول

جنكيز خان :

عاش في الأراضي الشاسعة التي تقع إلى شمال وغرب الصين مجموعة من القبائل. وكانت هذه الأرضي في مجموعها صحاري وسهوب تتصف المناخ القاري. وقد عاشت هذه القبائل منذ حوالي سنة ٢٠٠ ق.م ومن هذه القبائل المغول والتنمار وبعض العناصر التركية مثل الكرايث keraits والأويغور Uigurs والنایان Naimans والتايجرات Tayichut وبعض القبائل الأخرى .

وقد ولد تيموجين Temujin في عام ١١٦٧ لزعيم مغولي يدعى يسوکای Yesugai وأم تدعى هويلون Hoelun. وقد عرف هذا الطفل في التاريخ باسم جنكيز خان Jenghiz Khan ، وفي تلك المرحلة كان المغول عبارة عن قبائل تعيش في أعلى نهر آمور Amur، وكانت في حرب شبه دائمة مع قبائل التتار المقيمة إلى الشرق منهم. وقد نجح يسوکای في إزالة الهزيمة ببعض قبائل التتار، الأمر الذي زاد من سلطانه وعلو مكانته .

أما علاقة يسوکای بالكرايث كانت ودية تعاهدية ولنیست عسكرية. ويرجع ذلك إلى أن الكرايث شعب بدوى تركي عاشوا حول نهر أورخون Orkhon، وقد اعتنقوا المسيحية على المذهب النسطوري مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادي وترتب على ذلك إتصالهم بقبائل الأويغور النساطرة أيضاً. وقد مات خان الكرايث كورياكوس //Qurjaku// حوالي عام

١١٧. فبدأ الصراع على العرش بين ابنه طغرل والأئم وأبيه صام.  
وعند هذه المرحلة طلب طغرل من يسمى كاتب مجلسه، الأئم، ابنه، وابنه  
وائمه، وقاد تفاصيله على ذلك: ويعمل بما يجيء طغرل، أي في ذلك العصر.  
الكريث أصبح يسوكاي في منزله رفيقه بين زعماء المنطقة، ولذلك مات  
بعد قليل، ويقال أنه مات مسموماً، ولم يكن تيموجين قد بلغ التاسعة  
من عمره، ولكن والدته تمنت من الاحتفاظ بالعرش له.

وكان تيموجين على حد قول أحد المؤرخين طويل القامة، شديد النشاط  
والاحتمال والصبر، وله شخصية أثرت في كل من صادفهم، يضاف إلى  
ذلك مهاراته الفائقة على التنظيم وكيفية اختيار مساعديه . كما أنه كان  
معروفاً بحبه للعلم وإحترامه للعلماء، لذلك أبقى على حياة كل عالم وقع  
في أسراه. وفي عام ١١٩٤ تم اختيار تيموجين زعيماً للقبائل المغولية  
وأصبح يعرف باسم جنكيزخان (أي القوى)، واعترف به إمبراطور الصين  
ليتحالف معه ضد التتار الذين هددوا أراضيه. وفي حروب سريعة  
وقصيرة خضع التتار لحكم جنكيزخان.

أما خصوص الكريث لحكم جنكيزخان، فيرجع ذلك إلى أن الصراع  
على العرش في دولة الكريث انتهى بطرد الخان طغرل عام ١١٩٧م،  
ولكن جنكيزخان ساعده على العودة إلى عرشه ثم ما لبث أن أصبح  
طغرل من أعظم الأمراء وعرف باسم وانك خان Wang-Khan أو أونك خان  
Ong-Khn وهو إسم وصل إلى هذه المناطق في صيغة يوحنا، ولذلك رُشح  
طغرل للدور الذي كان على الكاهن يوحنا أن يقوم به وهو التحالف مع  
الغرب الأوروبي ضد المسلمين في حوض البحر المتوسط.

ويبدو أن شهرة طغرل قد أثارت جنكيزخان فدب الخلاف بينهما عام  
١٢٠٣م، حيث قامت المعركة الأولى بين الطرفين ولكنها لم تتحسم لصالح

أي طرف منها ، وفي المعركة الثانية التي وقعت بعد قليل هزم جنكىز خان طغرل هزيمة نكراء وأبيد الجيش في معركة جيجير أوندور Jejer Undur في قلب بلاد الكرايit، وقد لقي طغرل مصرعه أثناء فراره من أرض المعركة فخضعت دولة الكرايit للدولة جنكىز خان وضمها إلى دولته، وبذلك أضاف جنكىز خان أراضي التتار ثم أراضي الكرايit.

وقد نجح جنكىز خان في العام التالي ١٢٠٤م في إخضاع قبائل النامان بعد هزيمتهم في معركة شقيرميوت Chakirmaut ، وحتى عام ١٢٠٥م كان جنكىز خان قد نجح في فرض سيادته على كل القبائل القاطنة بين حوضى نهر التاريم Tarim الواقع إلى الغرب من مدينة سمرقند ونهر آمور، الذي يصب في بحر اليابان حالياً، وسور الصين العظيم. وفي العام التالي ١٢٠٦م عقدت جميع القبائل مجلساً (كوريلتاي)، وأعلنت سيادة جنكىز خان على هذه القبائل التي ينبغي أن يطلق عليها إسم المغول. ولعل الأمر أصبح واضحاً في الفرق بين كلمة المغول والتتار ، وإن كان البعض ومنهم المؤرخون المعاصرون للأحداث يطلقون إسم التتار على المغول وبالعكس أيضاً.

ويلاحظ أن جميع هذه القبائل كانت تنقسم إلى فرعين كبيرين، وهما الأتراك والمغول ويختلفان في اللغة، فقد استخدم الأتراك اللغة التركية، أما المغول فقد يستخدمو أبجدية الأويغور، وكان الفرع التركي قد بدأ بالرحيل إلى المناطق التي سميت بإسم (تركستان). أما المغول فهو إسم أطلق على إحدى قبائلهم. وقد صنف الصينيون القبائل المغولية إلى ثلاثة أنواع هم المغول البيض الذين عاشوا شمال الصين، والمغول السود وهم الذين عاشوا شمال المغول البيض، والمغول المتوجهون وهم سكان الغابات وقاموا حياتهم على الصيد

## تنظيم الامبراطورية:

بعد أن نجح جنكيزخان في توحيد القبائل، بدأ في وضع نظام للبلاد، وقد حدد هذا النظام في مجموعة وظائف يتولى أمر كل وظيفة شخص أو أكثر، وإذا كانت إحدى هذه الوظائف من الوظائف الهامة أو الحساسة يتولى أمرها أحد أقارب الخان الأعظم وكانت هذه الوظائف كما يلى :

- ١ - أربعة أشخاص لحمل السهام والأقواس .
- ٢ - ثلاثة أفراد يتولون الإشراف على الطعام والشراب .
- ٣ - فرد واحد يتولى إعداد المراعي للاغنام والماشية، وثلاثة للمحافظة على هذه المراعي.
- ٤ - شخص واحد لإعداد العربات العسكرية ووسائل النقل والحمل.
- ٥ - فرد واحد للإشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان.
- ٦ - أربعة أفراد يتولون الحراسة بالتناوب وحمل السيوف.
- ٧ - إثنان يتوليان أمر المحافظة على الخيول.
- ٨ - أربعة أشخاص لتبلیغ رسائل الخان.
- ٩ - إثنان من النبلاء للمحافظة على النظام في المجتمعات المغول.

وكان لحرس الخان الأعظم شأن كبير في دولة المغول، فقد كان الجندي الواحد منهم أعلى مرتبة من قائد ألف رجل في الجيش، ويتم اختيار هؤلاء بعناية، وكان يتولى أمر الحراسة منهم مجموعتان أحدهما للنهار وأخرى للليل، وقد بلغ عدد هؤلاء حوالي عشر آلاف من عرفوا بالقوة وشدة البأس. ومن هؤلاء يتم اختيار ألف رجل يسمى كل واحد منهم (بهادر) أي الشجاع المبارز.

وهؤلاء الألف يقومون بخدمة الخان ويلازمونه ولا يخرجون للقتال إلا مع الخان نفسه ولا يتلقون الأوامر إلا منه. فبالإضافة إلى الخان الأعظم وحراسه، كانت طبقة الأمراء وهم مغفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم أثناء الحروب، وكان هؤلاء الأمراء لا يستأذنون عند الدخول على الخان. وكان من عادة الخان إكرامهم وذلك بأن يقدم لهم الشراب بنفسه.

واعتبر كافة المغول جنوداً في الجيش وعليهم حمل السلاح إذا ما دعت الحاجة، ولذلك يعتبر المغول راعياً للاغنام والماشية في السلم جندياً في أوقات الحرب. وكان على الجميع تدريب أنفسهم وإعداد الأسلحة اللازمة للقتال. وقد عرف المغول جميعاً بالطاعة العميماء لقراطدهم، كما عرفوا بالخيانة وعدم الوفاء بالعهود، وكانوا يحاربون دون رحمة لا فرق بين الأطفال أو النساء أو الشيوخ أو الشباب أو المريض، ولذلك اتسمت حروفهم بالقسوة والتدمير والتخريب.

وعندما تدق طبول الحرب ويجتمع المغول تبدأ عملية تنظيمية دقيقة، ينقسم المغول بعدها إلى فرق كل منها عشرة آلاف وعليهم أمير، ثم ينقسم هؤلاء إلى عشرة أقسام على كل منها أمير ألف، ثم إلى عشرة أقسام أخرى على كل منها أمير مائه ثم إلى عشرة أقسام أخرى على رأس كل منها أمير عشرة، وبذلك أصبح هناك أربعة قواد، وعلى رأس هؤلاء القادة قائد الجيش الذي يجمع هؤلاء لتدارس المواقف وإعطاء الأوامر بعد استشارتهم، ومن نظم الجيش المغولي وضع الخطط العسكرية قبل بداية العمليات العسكرية، ثم تبدأ عملية جمع المعلومات عن العدو بعمرفة الجواسيس لإعداد المعدات الكافية لهاجمة المدن أو الحصون. وقد يستخدم المغول طريقة الكر والفر والالتفاف حول العدو والصياغ أثناء المعركة لإرهاب الأعداء.

وفي المعرك يقسم المغول قواتهم إلى القلب والمنطقة والمؤخرة والميمنة والميسرة، وتتسليح كل واحدة من هؤلاء بالسلاح المناسب، ومن ذلك أن قوات القلب كانت تتكون من فرقة أمامية وأخرى خلفية. وتتسليح الأمامية بالدروع الكاملة ويحمل أفرادها السيوف والحراب ويغطون خيولهم بالدروع المناسبة، أما الخلفية فكانت أسلحتها خفيفة مثل القوس والنشاب، وتكون سريعة الحركة حتى يمكنها تقديم المساعدة للقوات الأمامية.

وعامل المغول أعداءهم معاملة قاسية، فإذا إجتاحوا مدينة قتلوا أهلها دون رحمة، مع الإبقاء على أصحاب الحرف والصناعات، وبعض من الأهالي بالمدينة لاستخدامهم كدروع بشرية في حرب أخرى، ويرجع ذلك إلى أن الأسرى هم الذين يتعرضون للقتل والمغول خلفهم، وبذلك يستهلكون قوة أعدائهم في قتل الأسرى، وفي الوقت المناسب يتقدم المغول للقضاء على خصومهم.

أما عن دستور إمبراطورية المغول فقد كان هناك مجموعة من التقاليد والأعراف تحكم حياة المغول، ولكنها لم تكن مكتوبة لعدم معرفة المغول الكتابة، ولما أصبح جنكيزخان خانًا أعظم لهم، قام بمراجعة هذه الأعراف، فألغى منها ما لم يعد مناسباً وأبقى ما وجده صالحًا، وأضاف إليها ما رأه ضروريًا. وأمر بتدوين ذلك بالخط الأويغوري حتى يتعلم الصغار والكبار، وقد احتفظ كل أمير مغولي بنسخة من هذه القواعد في خزانته الخاصة. وقد عرفت هذه القواعد باسم Yass ، وقد عربت هذه الكلمة إلى ياسا أو الياسا أو اليسة، أو اليسق أو اليساق، ومعنى هذه الكلمة حكم أو قاعدة أو قانون.

وما لا شك فيه أن التجارب والشدائ드 التي عاشها جنكيزخان وما تعرض له من محن ومؤامرات، وما قام به من حروب، كان له أهمية كبرى

عند وضع بنود الياسا، لأنه كان حريصاً على جمع كلمة القبائل والسيطرة عليها، لذلك تضمنت الياسا نصوصاً باللغة الصرامة لضبط القبائل ونشر الأمن والاستقرار داخل القبائل المغولية، ويتطبق الأمر في هذا المجال أن نعرض بعض بنود الياسا للتعرف عليها، ومن ذلك :

أن من وجد عبداً أو أسيراً آبئاً عليه أن يرده لصاحبها، وإلا تعرض للقتل. ومن أطعم أسير قوم أو كساه دون إذن أسياده قتل - ومن وقع منه متاعه أو سلاحه أثناء القتال ، فعلى الشخص الذي ورائه أن ينزل عن فرسه ويناول زميله ما سقط منه، فإن لم ينزل ويناوله قتل، ولا يختص فرد بأكل شيءٍ غيره يراه، بل عليه أن يشرك من يراه في أكله، ولا يتميز مغولي بالأكل دون سواه، فإن مر مغولي بفرد أو جماعة وهم يأكلون، له ان يأكل معه أو معهم، وليس لأحد أن يمنعه.

وقد حذرت الياسا بعض الاعمال على المغول، ومن ذلك يمنع المغولي من غسل ثيابه حتى تبلى، يمنع المغولي من أن يخص شيئاً بالنجاسة فجميع الأشياء طاهرة، وينع المغولي من التعصب لمذهب ديني، كما يمنع المغولي من استخدام الألقاب قبل الأسماء، فيخاطب الفرد مهما كانت منزلته باسمه.

وهناك أيضاً بعض الإلتزامات يجب القيام بها، ومن ذلك إلزام القادة العسكريين بالتفتيش على أسلحة الجنود قبل الخروج للقتال، وكافة ما يلزم الجنود وإذا قصروا عوقبوا. وإلزام النساء بالقيام بأعمال الرجال طوال وجود العسكري في القتال، يضاف إلى ذلك إلزام المغولي بإقامة حلقات الصيد باعتبارها تدريباً على أساليب القتال. وفوق هذه كله وغيره أقام الخان نظام البريد للاتصال بأنحاء الامبراطورية، وأصدر الأوامر في الوقت المناسب، والتعرف أيضاً على أحوال بلاده.

وقد ورد في الياسا أيضاً تجريم أعمال السرقة والفحشاء، وإنكار حقوق الوالدين، ووجوب إتباع الصغير ل تعاليم الكبير، ومساعدة الغني للفقير، وإحترام صغار الموظفين لرؤسائهم. وقد بقىت الياسا موضع إحترام المغول طالما بقىت العناصر المغولية، وقد أخذت بعض العناصر الأخرى بعض بنودها مثل الماليك.

### فتورات جنكىزخان:

قبل أن تبدأ سنة ١٢٢٥م كان جنكىزخان قد فرض نفوذه على إمبراطورية كين الصينية، وملكة هسيا هسى Hsia Hsi وملكة قرة خيتاي Kata Khitai ، وقد ترتب على هذا التوسع أن أصبح المغول متاخمين للدولة الخوارزمية، وبات الوضع يهدد بالانفجار، خاصةً أن محمد خوارزم شاه لم يكن بالحاكم الذي يتهاون في التعامل مع جيرانه. وفي بداية الأمر ساد السلم بين الدولتين وتبودلت الرسائل والسفارات، ولما كان المغول يعتبرون أنفسهم أسياداً ويقيمة الأمم توابع لهم، فقد كتب جنكىزخان إلى الملك الخوارزمي يطالبه بالخضوع للمغول وأن يعتبره سيده، وكانت شارة الحرب عندما ذهب سفارة من المغول مع قافلة تجارية في طريقها إلى الملك الخوارزمي. ولما وصلت القافلة والسفراء إلى مدينة أوترور Utrur - الواقعـة إلى الداخل على نهر سيحون، وشمال سمرقند - صادر حاكم المدينة بضائع القافلة. وكان في ذلك إهانة للخان الأعظم جنكىزخان.

إستعد المغول للقتال وحشدوا جيشاً بلغ قوامه مائتي ألف مقاتل في نهاية صيف عام ١٢١٩م. وتقدم إلى الشرق إلى مسافة حوالي ألف ميل لهاجمة الأراضي الخوارزمية، وبادر خوارزم شاه بالاستعداد للقتال، ودفع بعض قواته إلى الأمام بينما عسكر هو بالقوات الرئيسية في إقليم ما

وراء النهر عند مدینتی بخاری و سمرقند. وكانت المدینة الأولى التي واجهت الغزو المغولي هي مدینة أوترور، وهي المدینة التي صادر حاکمها تجارة القافلة المغولية، و يبدو أن هذا التصرف كان مقصوداً لتأديب المدینة وحاکمها.

و بعد سقوط أوترور تقدم الجيش المغولي إلى مدینة بخاری فوصلها في فبراير عام ١٢٢٠م، فبادر السکان بفتح أبواب المدینة، عدا قلة تحصنوا بالقلعة، ثم ما لبث أن قتلهم المغول عن آخرهم . و يبدو أن ماحدث في بخاری دفع خوارزم شاه إلى التراجع مما جعل مدینة سمرقند هدفًا سهلاً للمغول. وقد إستسلمت بدورها للمغول فقتل جنکیزخان جميع ما صادفه من الجنود فتراجع الخوارزمية حتى عاصمتهم أورجنده - الواقعة عند نهر جيحون - وتقع إلى الشمال الغربي من بخاری، وقد دافعت القوات الخوارزمية عن العاصمة دفاعاً مجيداً، الأمر الذي أجل سقوط المدینة عدة أشهر هرب خلالها خوارزم شاه. فطاردته بعض القوات المغولية، ولكنها لم تلحق به فوصل إلى جزيرة داخل بحر قزوين حيث مات في نهاية عام ١٢٢٠م.

بعد هذه الأحداث تولى جلال الدين حكم الدولة الخوارزمية بعد والده، واتجه إلى فرغانه فجمع القوات وتراجع إلى أفغانستان وتمكن من هزيمة بعض القوات المغولية، أما جنکیزخان فقد إتجه إلى بلخ فإستسلمت له، ومنها إتجه إلى مدینة بامیان فقاومته لبعض الوقت، ولقي حفيده في حصارها مصرعه، فلم يبق على أحد من سكانها بعد سقوطها. كما نجحت قوة مغولية بقيادة طلولی بن جنکیزخان في الاستيلاء على مدینة مرو وتم قتل جميع سكانها عدا المهرة من الصناع، ثم سقطت مدینة نیسابور ولقيت نفس المصير الذي لقیته مدینة مرو.

وفي خريف عام ١٢٢١ تقدم جنكىزخان بقواته لمقاتله جلال الدين عند نهر السند حيث وقعت معركة في نوفمبر من العام نفسه فر بعدها جلال الدين إلى مدينة دلهي، وفي أفغانستان قضى جنكىزخان حوالي العام تمكن خلاله من إسقاط مدينة هراه وقتل من سكانها الآلاف بعدما خربت المدينة،

وعاد جنكىزخان بعد ذلك إلى منطقة نهر سينهون الذي أصبح خراباً، وقد عبره عائداً إلى بلاده في ربيع عام ١٢٢٣م، فوصلها في صيف العام التالي. وقد راقب النساطرة في آسيا حروب جنكىزخان واستبشروا خيراً خاصة أن بعض أبناء جنكىزخان قد تزوجوا من أميرات مسيحيات من قبائل الكرايست، واعتقد الصليبيون في بلاد الشام وحكام الغرب الأوروبي أن بالإمكان إتخاذ جنكىزخان حليفاً لهم.

وكان جنكىزخان قد أرسل جيشاً تحت قيادة سوبوتاي Sobotai وجيب Jebe للحاق بخوارزم شاه بعد فراره من عاصمته أورجند، وبعد أن أفلت منها وأصلاً سيرهما نحو الغرب، وقد استطاعت القوات المغولية الاستيلاء على مدينة الرى في صيف عام ١٢٢٠م، ثم تلتها مدن قم وقزوين وزنجان. أما مدينة همدان فقد قدمت الفدية المناسبة فنجاً أهلها من القتل.

بعد هذه المرحلة تقدم الجيش المغولي لقتال بلاد الكرج (جورجيا)، وقاد الملك جورج الرابع قواته لمواجهة المغول، ولكنه منى بهزيمة ساحقة بالقرب من مدينة تفليس Tiflis حطم فيها جيش الكرج تماماً. وتوقف زحف المغول لبعض الوقت إلى الشمال لأنهم إضطروا للعودة إلى همدان لخروجها على طاعتهم، وفي طريقهم نهبوا مدينة مراغة ويقروا لبعض الوقت حتى نهاية عام ١٢٢١م.

وفي بداية العام التالي تقدمت القوات المغولية إلى الشمال مرة أخرى بقيادة سيوتاي وجيب واتجهوا إلى بلاد القفجاق عند نهر الفولجا والدون . وقد إستطاع المغول هزيمة القفجاق بعد أن حيدوا قبائل الآلان Alans واللكرز Lesghians ، ثم استدار المغول لهما بعد هزيمة القفجاق. وعند هذه المرحلة قام الآلان واللكرز بالاستنجاد بأمير مدينة كييف الروسي، وكان مصير هذا التحالف الهزيمة عند نهر كلكا Kalkha بالقرب من بحر آزرف.

وكانت المحطة التالية للقوات المغولية في هذا الجانب شبه جزيرة القرم، وقد تم نهب المركز التجاري الجنوي في مدينة صولدايا Soldaia المقام في تلك الأتحاء ، ثم اتجهت إلى الشرق حيث هزمت جيش بلغاريا. وبعد كل هذه العمليات العسكرية عادت إلى منطقة نهر سينيون لتنضم إلى الجيش الرئيسي بقيادة جنكيزخان في مطلع عام ١٢٢٣م. وهكذا إمتدت إملاك المغول من كوريا حتى غرب فارس، ومن المحيط الهندي حتى الشمال في روسيا. وكان فيما أنزله المغول من تخرير وتدمير وقتل وسلب ونهب دون رحمة ما منع أية دولة من المخاطرة بمقاومة القوات المغولية إلا فيما ندر. كما أن مداهنة المغول لبعض الدول المسيحية قد خيب آمال من إعتقدوا في إمكانية التحالف مع الغرب الأوروبي والصلبيين لهاجمة أملاك المسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي. ومات جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، بعد ما خلف بعده إمبراطورية شاسعة، وأقام حكومة عادلة ترعى الأمن والنظام، فإنتعشـت التجارة وأصبح يوسع القوافل أن تسير عبر آسيا آمنة، بعدما أهلك الملايين من السكان وخرّب ودمر المساحات الشاسعة من الحقول والبساتين.

### أوكيتاي (١٢٤١ - ١٢٢٧)

عندما توفي جنكيزخان كان له أربعة أولاد هم، جورجي، جفتاي،

وأكباتى، وأصغرهم طولوى، وطبقاً للأعراف المغولية كان ابن الأكبر ولسلطته من بعده الحق في حكم الإمبراطورية ، وأن يحتفظ إلابن الأصغر بالإقليم الأصلى للمغول، ولكن جنكيرخان خرج على هذه القاعدة التي كان يجب أن تنفذ لأول مرة، ورشع إبنه الثالث أوكباتى لتكون له السلطة العليا على الإمبراطورية المغولية. ولعل ما دفع جنكيرخان إلى ذلك بعض الأسباب التي لها وجاهتها، فكان يرى في جورجي أنه ليس بالقائد العسكري الناجح، وأن جفتاى حاد المزاج، أما أوكباتى فقد وصف بالصبر والقدرة على معالجة الأمور، في الوقت الذي كان فيه طولوى محباً للهو. ويقول رشيد الدين الهمذاني، إن عرش الإمبراطورية ظل خالياً من ملك قرابة سنتين، وأخيراً فكر الأُمّراء أنه قد يحدث أمراً ما ، وليس هناك من رئيس أو ملك، فيتطرق الفساد أو الخلل إلى أساس الملك، فمن المصلحة التعجيل بتنصيب خان للخانة، وبهذا الفهم الدقيق تبادل الأُمّراء الرسل فيما بينهم من الجهات المختلفة، وبدأ الإستعداد لعقد القراراتى ، وقد ظل المجلس منعقداً حوالي ثلاثة أيام، وبعد تبادل الرأى استقر الرأى على تعيين أوكباتى في منصب الخانة تنفيذاً لوصية جنكيرخان.

وبعد إنهاء مراسم تعيين الخان قام أوكباتى بتوزيع أراضي الإمبراطورية على الأُمّراء الكبار، فإحتفظ أخوه جنكيرخان بالإقليم الشرقية حول نهر آمور وإقليم منشوريا، وحاز أولاد جورجي - لأنه كان قد مات - وهم باطرو، وأوردا ، ويركة ، وشيبان الأقاليم الغريبة من الإمبراطورية حتى نهر الفولجا، أما أملاك أوكباتى الشخصية فكانت أراضي الكرايست والنامايان ، واحتفظ طولوى بالأراضي الواقعة على نهر أونون . ويعتبر ذلك أول تقسيم إداري لإمبراطورية المغول، وليس تقسيماً سياسياً، وعلى ذلك فعلى جميع الأُمّراء تنفيذ أوامر حكومة الخان الأعظم

التي أقامها أوكيتاي في قراقرم.

ومع وفاة جنكيمخان أطلت المشكلة الخوارزمية برأسها مرة أخرى، فقد نجح جلال الدين بن خوارزم شاه في العودة إلى بلاد فارس فرحب به الجميع والتفت حوله بقايا الجيش الخوارزمي، واعتبروه محرر البلاد من سيطرة المغول. وخلال عام ١٢٢٥م كانت له السيادة على بلاد فارس وأذربيجان، ولم يكتف بذلك بل إنه تقدم في العام نفسه إلى بلاد الکرج ودخلها بسهولة حتى وصل إلى العاصمة تفليس، وإنكمشت أملاك الکرج واقتصرت على أملاكها الواقعة على البحر الأسود. يضاف إلى ذلك أن جلال الدين نجح في فرض سيادته على بغداد في العام التالي .

وأمام هذه الأحداث تحركت القوات المغولية في مطلع عام ١٣٣١م، ويرجع هذا التأخير إلى إنشغال المغول بأحداث الثورات التي قامت في الصين، وتقدمت القوات المغولية بقيادة الأمير شورماجان-Chorma-gan حتى وصلت إلى أذربيجان دون مقاومة تذكر، وفر جلال الدين من القتال وتبعه الجنود، ومات جلال الدين بعد ذلك في ظروف غامضة في نواحي كردستان، أما الجنود الخوارزمية فقد إتجهوا إلى إقليم الجزيرة شمال العراق، وهناك عاشوا لبعض الوقت كجنود مرتزقة في جيوش الأمراء الأيوبيين المنافسين على السلطة في بلاد الشام.

وبانتصار المغول على الخوارزمية عادت فارس وأذربيجان إلى السلطة المغولية وظل شورماجان يحكم هذه المنطقة حتى عام ١٤٤١م. وفيما يتعلق ببلاد الکرج، فقد إلتقت أنفاسها بعد هزيمة القوات الخوارزمية واستعادت الملكة روسودان Russudan أراضيها ومنها العاصمة تفليس، ولكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً، فسرعان ما تحرك شورماجان بقواته إلى بلاد الکرج فأستولى على الجانب الشرقي منها، وإنتهى الأمر باعتراف

الملكة بأن تكون من أتباع المغول وأن يكون لإبنها مملكة الكرج من بعدها تحت سيادة الامبراطورية المغولية.

### باطو وغزو الروسيا :

بدأ الغزو المغولي لروسيا في عام ١٢٢٣م، ويرجع ذلك إلى أن القوات المغولية ظلت تتارد فلول القوات الخوارزمية حتى شواطئ بحر قزوين، ويبدو أن بعض القبائل الروسية التي كانت تعيش في هذه المنطقة قد عاونت القوات الخوارزمية بشكل أو باخر ضد القوات المغولية. والحقيقة أن الروس لم يكن يعلمون شيئاً عن المغول حتى تلك المرحلة، ويتبين ذلك من حوليه نوفجورود التي سجلت بعض الأحداث عن الغزو المغولي لروسيا في هذا العام، وما ذكرته أنه في عام ١٢٢٣م تقدمت إلى روسيا قبائل غير معروفة للروس، ولا يعرف أصلهم ولا دينهم وقد اطلقت عليهم حوليه إسم التتار. وذكرت حوليه أيضاً أن الروس قد سمعوا أنهم استولوا على الكثير من البلاد وأنزلوا بها الدمار. ويتبين من نصوص حوليه أن المغول هاجموا أول الأمر بعض القبائل التركمانية، وأن حاكم أقليم القفقاق (أوكرانيا حالياً) قد طلب النجدة من الحكام الروس الذين تجمعوا لمقاومة الغزو المغولي عند نهر كالكا Kallka، ولكن المغول هزموا هذا التحالف الروسي في شهر مايو من العام نفسه، والواقع أنها كانت معركة كبيرة قتل فيها الكثير من القوات الروسية، كما اسر العديد أيضاً، وما تبع ذلك من دمار المناطق التي مر بها المغول والأراضي التي دارت على رحاها المعارك. ثم ما لبث أن عادت القوات المغولية إلى الجنوب ثم إلى قواuderها في آسيا. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى مات

جنكيزخان في عام ١٢٢٧م، وتلى ذلك انشغال المغول بأمورهم الداخلية لبعض الوقت.

وطبقاً للتنظيمات الذي وضعها جنكيزخان قبل وفاته فقد آلت المناطق الجديدة الواقعة شمالي بحر أرال إلى ابنه جوجي Juji الذي توفي في حياة أبيه فآلت إلى باطو بن چوچي. كما أن المجلس الأعلى للمغول كان قد أقر في اجتماعه عام ١٢٣٥م ب التقسيم وتوجيهه الجيوش المغولية إلى أربعة اتجاهات للقتال، ومن هذه الاتجاهات روسيا والغرب الأوروبي التي تولى أمرها باطو. وتنفيذًا لذلك - أصدر الخان الجديد أركيتاي الذي تولى أمر المغول جميعاً بعد وفاة والده جنكيزخان - أصدر أوامره إلى كافة القادة المغول لإلزامهم بإرسال جانباً من القوات المغولية التي تحت إمرتهم لساندة باطو في حملاته المقبلة، كما عين سوبوتاي Slobotai، الذي لعب دوراً كبيراً في هزيمة القوات الخوارزمية، قائداً عسكرياً لهذه القوات، هذا بالإضافة إلى خبرته العسكرية في الحملة التي قامت بها القوات المغولية على جنوب روسيا في عام ١٢٢٣م.

كان تقدم القوات المغولية في صورة مفاجئة إلى المنطقة الشمالية لبحر قزوين، وفي هذه المنطقة توجد ثلاث أنهار هي نهر إمبو Embo إلى الشرق ونهر أورال في الوسط ثم نهر الفولجا في الغرب، وعلى هذا النهر الأخير كان يعيش بلغار الفولجا. الواضح من الأعمال العسكرية أن المغول أرادوا أن يتخدوا من منطقة جنوب نهر الفولجا مركزاً لعملياتهم العسكرية في روسيا أو المناطق المتاخمة لها.

كان تقدم المغول في عام ١٢٣٧م أى بعد أربعة عشر عام من حملتهم

الأولى التي يمكن أن تعتبرها أنها كانت حملة استكشافية للغزو المغولي المسبق للروسيا. وقد نجح المغول في هذا العام في مباغتة إقليم الفولجا بما يزيد عن مائة ألف من القوات المغولية وماوالاها من جنود الأقاليم التي فتحها المغول من قبل. وقد أزالت القوات المغولية الأعمال الوحشية ضد سكان هذا الإقليم مثل ذبح الرجال والنساء والأطفال، وتحولت المنطقة الواقعة في جنوب نهر الفولجا إلى السيطرة المغولية، وتمركزت القوات المغولية في هذه المنطقة لتنطلق منها في عملياتها العسكرية المقبلة.

ومن المعسكر المغولي خطط القادة المغول لغزو المنطقة الشرقية حيث يوجد نهر أورال وتعيش قبائل الباشكير والمنطقة الغربية الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفقاس. ولتنفيذ هذه الخطة قسمت القوات إلى قسمين اتجه القسم الأول إلى الشرق وهزم قبائل البашكير، كما اتجه القسم الثاني إلى الغرب واجتاز إقليم القفقاس فهرب الآلاف من سكان البلاد إلى الغرب بما فيهم ملك القفقاس ووصلوا إلى مملكة المجر حيث أقاموا هناك. وكان بين المغول والمجر جولة أخرى بعد ذلك.

وفي ديسمبر من عام ١٢٣٧م كانت وجهة المغول مدينة ريازان- Rayzan، وعندما أصبحت القوات المغول على مقرية من المدينة أرسلوا إلى أميرها إنذاراً يطالبوه فيه بالتسليم، ولكن أمير المدينة رفض طلبات المغول وأعد قواته للقتال وأرسل في طلب النجدة من أمير مدينة فلاديمير التي تقع على أحد فروع نهر الفولجا وإلى الشمال من مدينة ريازان، وعندما علمت القوات المغولية بنوايا أمير مدينة ريازان عجلت بهاجمة المدينة في الشهر ذاته فدمرتها وقتلت الكثير من سكانها. ثم تقدمت إلى الشمال واستولت على مدينة كولومنا Colomna التي تقع إلى الشمال منها.

ولقد دار جدل طويل بين المؤرخين حول كيفية توغل القوات إلى هذا العمق في الأراضي الروسية في قلب فصل الشتاء. وقد قدم كل منهم أسباباً متعددة حول هذا الموضوع، ولكن الأمر الذي يجب التركيز عليه هو أن المغول الذين عاشوا في عاصمتهم قراقوز قد تعودوا مثل هذه الظروف الجوية، لأن العاصمة المغولية تقع عند نفس خط العرض تقريباً التي تقع عليه مدينة كيف، ولم يكن تقدم القوات المغولية أكثر من ذلك إلا قليلاً.

ويعد هذه الانتصارات استراحة القوات لبعض الوقت طوال شهر يناير من عام ١٢٣٨م ولعل ذلك بسبب الأحوال الجوية، وفي الثاني من فبراير من العام نفسه تقدمت القوات المغولية إلى مدينة فلاديمير Vladimir وحاصرتها لمدة ستة أيام، ثم ما لبثت المدينة أن سقطت في أيديها فدخلتها وأشعلت النار فيها.

ويبدو أن هذا التصرف جاء إنتقاماً من المدينة التي رها كانت تستعد لنجددة مدينة ريازان. وعلى أية حال لقد هرب أمير المدينة إلى الشمال لعله يستطيع تجميع قواته لمنازلة المغول مرة أخرى، ولكن القوات المغولية اسرعت بالتقدم خلال الشهر نفسه إلى المناطق المجاورة، ونجحت خلال أسبوع قليلة في السيطرة على عدة مدن منها سوزدال Zuzdal إلى الشمال وتفر Tevr وموسكو إلى الغرب.

تطلغت القوات المغولية إلى التوجه إلى الشمال والاستيلاء على مدينة نوفgorod Novgorod التي تقع تحت خط عرض ٦٠ بقليل، وهي مدينة يحميها من الجنوب بحيرة إلمان Ilman. والواضح من النصوص التاريخية أن المدينة كانت قد استسلمت لمصيرها، ولم يعد لأهلها ورجال الدين فيها سوى الدعاء لله أن ينقذهم من خطر المغول. وواقع الحال أن المغول لم

يكلموا مسيرتهم في هذه المرحلة إلى توفجورد، وقد تناول العديد من المؤرخين تفسير تراجع المغول المفاجئ إلى الجنوب، ولعل أقرب الأسباب إلى الصواب يرجع إلى ذويان الجليد في فترة الربيع وظهور المستنقعات الكثيرة في الأراضي التي كان سيمر بها المغول، فضلاً عن مياه بحير إلان التي زادت مساحتها وهي البحيرة التي تحمي المدينة من الجنوب.

عادت القوات المغولية إلى قواuderها جنوب نهر الفوججا والدون عن طريق مدينة كالوجا Kaloga التي إجتاحتها، واستراحت جنود المغول بعض الوقت وأعاد قادتهم تنظيم صفوفهم مرة أخرى، وجددوا معداتهم أو أصلحوها، وبدأ التخطيط لجولة عسكرية أخرى. وانقضى عام ١٢٣٩م قام خلاله المغول بعمليات عسكرية محدودة في المنطقة الواقعة شمال بحر قزوين حيث يوجد معسكراً لهم. ويبدو أن هذه العمليات كانت من أجل فرض نفوذ المغول على المنطقة أو لجمع الضرائب، كما قامت القوات المغولية ببعض العمليات العسكرية في المناطق الواقعة إلى شمال البحر الأسود حيث قبائل القفقاس، والواضح أنها كانت عمليات استكشافية أكثر من غزو عسكري.

ويؤكد ذلك أنه في العام الثاني ١٢٤٠م كانت العمليات في ذات المناطق، ولكنها دارت على نطاق واسع. ويلاحظ هنا أن التوسيع المغولي في هذه المرحلة سوف يكون لا إلى الشرق أو إلى الشمال وإنما إلى الغرب، وهو الطريق الذي سيؤدي إلى أوروبا في مراحل مقبلة. والمهم هنا أن المغول نجحوا خلال شهور قليلة في الاستيلاء على مدینتين هامتين تقعان على نهر الدnieبر وهما تشنريجوف Chernigov ويرياسلاف aslav Perey ويبدو أن القوات المغولية لم تبذل جهداً كبيراً في عملياتها

العسكرية في تلك المرحلة الأمر الذي أغراها بالتقدم إلى الشمال حيث تقع مدينة كييف، وهي من المدن التي تقع على نهر الدنيبر أيضاً. وكعادة المغول فقد أرسلوا إلى حاكم المدينة يطالبونه بتسليم المدينة وإلا نزل بها الخراب والدمار، ولكن حاكم المدينة رفض طلب المغول وقتل سفراً هم فبدأت القوات المغولية في محاصرة المدينة، وبدأت آلات الحرب تدك أسوار المدينة حتى نجحت في تحطيم بعض أجزائها الأمر الذي سهل على القوات المغولية اقتحام المدينة في السادس من ديسمبر عام ١٢٤٠، وقد استولى المغول على كنوز المدينة، ولقي معظم السكان مصرعهم. وقد أبقى باطو على حياة ديمتري Dmitri قائد حامية المدينة لشجاعته في الدفاع عنها. ومن نتائج سقوط مدينة كييف أن أسرع أمراء القفقاس إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للقيادة المغول وتعهدوا بتقديم ما تفرضه عليهم القيادة المغولية من غذاء للقوات المغولية وعلف لدواهم، وبالإضافة إلى ذلك، لقد أصبح المغول على مشارف حدود أوروبا الشرقية.

### باطو وشرق أوريا :

كانت أول العمليات العسكرية التي بدأها المغول بعد أن استولوا على بعض مدن نهر الدنيبر هو التوجه إلى الغرب نحو نهر الفستولا حيث دولة بولندا. وقد دفع الخان باطو بقواته المغولية إلى تلك المنطقة تحت قيادة بайдار Baidar، وقد بلغ المؤرخون في عدد القوات المغولية التي غزت بولندا وقدرها بأكثر من مائة ألف مقاتل. وفي أواخر عام ١٢٤٠ أو أوائل عام ١٢٤١ تقدمت القوات المغولية إلى مدينة لوبين Lubin واجتاحتها، ثم تقدمت إلى الجنوب على طول نهر الفستولا لمسافة ستين ميلاً، ثم عبرت النهر وهاجمت مدينة سandomir فنهبتها، ثم

تقدّم بـأيدار بقواته حتّى وصل إلى مدينة كراوكو Craiou، وهي مدينة تقع عند منابع نهر الفستولا، وتبعد حوالي مائة ميل عن مدينة ساندومير وقد استولى المغول على المدينة ونهبواها.

لم يكن أمام الملك البولندي سوى طلب النجدة من جماعة الفرسان التيوتون المقيمين عند سواحل البحر البلطي، وهنري دوق سيليزيا وقد تم التحالف بين القوات البولندية وفرسان التيوتون والقوات السيليزية. وتقدّمت القوات المغولية إلى مدينة برسلاو Breslau، وهي مدينة تقع في شمال إقليم سيليزيا الذي يقع إلى الجنوب من بولندا، وتقع على الضفة الغربية لنهر الأودر Oder. وقد حاصرت القوات المغولية المدينة ثم أضرمت فيها النار، ولكنها إنسحبـت من أمامها عندما علموا أن القوات البولندية وحلفاءـها قد تجمعوا عند مدينة لينجنتز Liegnitz.

تقدّمت القوات المغولية إلى الجنوب حيث القوات المتحالفة، وفي مدينة فاـهـلـشتـات Wahlstadt القريبة من مدينة لـينـجـنتـز دارت معركة عنيفة في التـاسـعـ منـ آـبـرـيلـ عامـ ١٢٤٠ـ اـنـتـهـتـ بـهـزـيمـةـ الـقـوـاتـ الـمـتـحـالـفـةـ هـزـيمـةـ سـاحـقـةـ.ـ وـالـواـضـعـ أـنـهـ كـانـ هـنـاكـ إـنـتـفـاقـ مـسـبـقـ بـيـنـ الـقـائـدـ الـمـغـولـيـ بـأـيـدارـ وـالـخـانـ بـاطـوـ عـلـىـ غـزوـ بـلـادـ الـمـجـرـ،ـ بـعـدـ اـنـتـصـارـ الـقـوـاتـ الـمـغـولـةـ فـيـ بـولـنـداـ تـقدـمـتـ جـنـوـبـاـ إـلـىـ إـقـلـيمـ مـورـافـيـا~ Moravia،ـ وـمـنـهـ إـلـىـ جـنـوـبـاـ أـيـضاـ لـتـقـاـبـلـ مـعـ بـقـيـةـ الـقـوـاتـ الـمـغـولـةـ بـقـيـادـ بـاـيـدارـ بـاطـوـ.ـ

وفي الوقت الذي تحركت فيه بعض القوات المغولية بقيادة بـاـيـدارـ لـغـزوـ بـولـنـداـ كـانـ الـخـانـ بـاطـوـ يـسـاعـدـ الـقـائـدـ الـمـغـولـيـ سـوـبـوتـايـ قدـ غـادـرـواـ رـوـسـياـ بـعـدـ أـنـ تـرـكـواـ الـحـامـيـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ الـكـافـيـةـ بـهـاـ وـاتـجـهـاـ إـلـىـ بـلـادـ الـمـجـرـ (ـهـنـغـارـيـاـ - Hungaryـ).ـ وـقـدـ اـتـخـذـتـ الـقـوـاتـ الـمـغـولـةـ طـرـيقـهاـ إـلـىـ إـقـلـيمـ جـالـسـيـا~ Galicaـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـأـمـرـ بـعـدـ أـنـ عـبـرـتـ نـهـرـ الـدـيـنـسـرـ Dniesterـ.

وكانت دولة المجر تقع إلى الجنوب من مملكة بولندا ويتولى حكمها في تلك المرحلة الملك بيلا الرابع Bela IV (١٢٣٥ - ١٢٧٠ م).

وكان ملك المجر يتوقع الغزو المغولي بسبب إيوائه العناصر التي فرت من المناطق الروسية خاصة بعض قواد القفجاق. ويلاحظ أن دولة المجر كانت دولة صغيرة محدودة الإمكانيات، ولكن ملكها على ما يبدو اعتمد على قوة العناصر التي فرت من أمام الغزو المغولي، لذلك دعا إلى اجتماع كبير في مدينة بودا Buda وهي الجزء الغربي لمدينة بودابست الحالية الواقعة على نهر الدانوب، وقد حضر هذا الاجتماع كبار رجال الدين والنبلاء والقادة العسكريون. وفي هذا الاجتماع لم يتمكن الملك بيلا من السيطرة على الموقف. فقد كان للنبلاء بعض المطالب مثل الامتيازات التي كانت منحوة لهم من قبل، وطرد عناصر القفجاق التي اعتبروها السبب الرئيسي لغزو المغول لبلادهم. ولم يتنازل الملك عن بعض الامتيازات للنبلاء، ولكن أرضاهم وقبض على بعض قواد القفجاق. ولكن هذا التصرف جاء بنتيجة عكسية، إذ ثارت عناصر القفجاق وعاثت في الأرض فساداً، وبذلك أصبحوا مصدر ازعاج بدلاً من مساعدة الملك في محنته أمام الغزو المغولي.

دب الفوضى في المملكة المجرية الأمر الذي سهل أمر القوات المغولية التي تقدمت عبر مرات جبال الكريات، وعندما علم الملك بيلا بذلك أرسل أسرته وثروته إلى دوق النمسا Austria وطلب منه النجدة، كما أرسل أيضاً إلى بقية المالك الأوربية يطلب العون منهم. وكانت معركة غير متكافئة على الأطلاق خاصة أن القيادة المغولية نجحت في ضم جزء كبير من عناصر القفجاق إلى قواتها. وبالقرب من جسر مدينة موهي Mohi الواقعة على نهر سايو Sajo - أحد فروع نهر الدانوب - دارت

مذبحة مروعة في الحادي عشر من أبريل ١٢٤١م في صفوف القوات المجرية، ولما شعر الملك بيلا بعدم جدوى المقاومة هرب من أرض المعركة، فتقدم المغول إلى بلاد المجر دون مقاومة تذكر.

وتبعقت القوات المغولية الملك بيلا داخل إقليم كرواتيا حتى وصلت إلى سواحل إقليم دلماشيا على البحر الادرياتيكي حتى وصلت إلى مدينة كاتارو Cattaro الواقعة بين مدینتي راجوزه Raguse ودرازو Duazzo. ولعدم وجود قوات بحرية لدى القوات المغولية لم يكن يسعها أن تعامل مع هذه المنطقة، يضاف إلى ذلك أنه في أوائل عام ١٢٤٢م وصلت إلى الخان باطون الرسل تخبره بموت الخان أوكتيتاي في العاصمة الأم فراكورم في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٢٤١م بعد مرض لازمه لبعض الوقت، وبعد أن حكم خانًاً أعظم حوالي سبع سنوات، فعاد باطون بعد أن خلفه وراءه الحاميات العسكرية في روسيا.

### كيلوك خان ١٢٤٦ - ١٢٤٨

كان أوكيتاي قد جعل العرش من بعده لإبنه الثالث كوشو Kuchu ولكننه قتل في عام ١٢٣٦م في صراعه ضد أسرة سونج بالصين، فجعل أوكيتاي ولاية العهد لحفيده شريمون بن كوشو، ولكننه كان صغيراً قليلاً الخبرة، فلما توفي أوكيتاي تولت الوصاية على العرش أرمنته توراكينه، وحرست على أن يكون إبناها كيلوك Guyuk خانًاً أعظم للمغول، ولما كان كيلوك يحارب في شرق أوروبا مع باطون، قامت الارملة بإدارة شئون البلاد وحرست على إطالة مدة الوصاية حتى تمهد لتنصيب كيلوك خانًاً أعظم، وظلت وصايتها من ١٢٤٢ - ١٢٤٦ م تخلصت خلالها من العديد من مستشاري أوكيتاي.

وخلال فترة الوصاية غزا المغول أراضي آسيا الصغرى، وقد بدا ذلك أواخر عهد السلطان كيقباذ الأول، ولكن الخطر تأجل لبعض الوقت بسبب

بعض المشاكل الداخلية عند المغول وهي الفترة التي أعقبت وفاة الخان الأعظم أوكيتاي. وقد ظهر هذا الخطر بصورة فعلية عندما غزا بياجو Baichu بلاد سلاجقة الروم في أواخر عام ١٢٤٢م، واستولى على مدينة أرزن الروم، وكانت الهجمة الكبرى للمغول في يونيو من العام التالي عندما نجحت القوات المغولية بقيادة بياجو في إزالة هزيمة ساحقة بقوات سلطان سلاجقة الروم كيحسرو في معركة كوس داغ بالقرب من مدينة أرزنجان Erzinjan ، وأعقبت ذلك إستيلاء المغول أيضاً على مدينة سيواس ونهبها، ثم مدينة قيصريّة التي نالت نفس المصير، وقد فرض المغول على هاتين المدينتين جزية سنوية قدرها أربعمائه ألف دينار.

وعند هذه المرحلة هرب السلطان كيحسرو إلى الغرب حتى قارب الحدود البيزنطية، ولكن وزيره تصرف تصرفاً معقولاً، فقد توجه إلى العسكرية المغولي وبعد التفاوض نجح في عقد معااهدة مع بياجو تقضى ببقاء دولة سلاجقة الروم مع دفع الجزية وارسال الامدادات التي تطلب منها.

وفي صيف عام ١٢٤٦م إنعقد القوريلتاي، وحضر الاجتماع جميع الأمراء المغول عدا باطو الذي لم يحضر لمرضه، ، أو لعله علم بما تخطط له الأرملة توراكينه، كما حضر هذا الاجتماع عدد كبير من حكام الأقاليم والملوك التابعين للخان، وميدنا رشيد الدين الهمذاني بعض الشخصيات الأخرى التي حضرت الاجتماع ومنهم مسعود من التركستان وفي رفقته عظماء تلك الديار، ومن خراسان الأمير أرغون، في صحبته الأمراء والوجها، في هذا الأقليم، ومن العراق وازربيجان، ومن سلاجقة الروم السلطان ركن الدين، ومن جورجيا (ملكة الكرج) المطالبان بعرش المملكة وهما داود نارين، وداود لاجا، ومن حلب أخو أميرها ومن الموصل بدر الدين لؤلؤ، ومن دار الخلافة ببغداد قاضى القضاة، ومن أرمينيا حضر سمباد أخو الملك هيتووم، كما حضر رسول من فارس وكرمان وغيرهم ، وقد

حضر كل هؤلاء بأعمال كثيرة وهدايا تليق ب مثل تلك الحضرة، وقد أعد لهذا الاجتماع حوالي ألفي سراديق، ولكثرة الخلق لم يبق موضع للنزول في المنطقة المحيطة بالعسكر.

وفي هذا الاجتماع تحدث الامراء في موضوع تعيين الخان الأعظم، ولما كانت الارملة توراكينه قليلة إلى تنصيب إبنها كيوك، وأن شريون لازال قاصراً، فالمصلحة تقضى بأن ينصب كيوك خانياً أعظم، ولكن كيوك رفض أن يتقلد هذا المصب وطلب من الامراء ترشيح أمير آخر. واعتذر بإعتلال صحته، ولكن الامراء أصرروا على أن يتولى كيوك منصب الخانية، فقال لهم «إنني أقبل هذا المنصب، بشرط أن تبقى الخانية في ذريتي» فوافق الجميع.

ويمتنا عند هذه المرحلة أن نتوقف قليلاً لإلقاء الضوء على موقف حكام العالم الأوروبي من الغزو المغولي الذي وصل إلى بولندا وهنغاريا وشبة جزيرة البلقان حتى سواحل البحر الأدربياتيكي، وبهمنا أيضاً أن نذكر أن كل غزوات المغول كانت ببرية وليس فيها معركة بحرية واحدة. وأن المغول إجتاحوا أوروبا الشرقية في فصل الشتاء، وهو من أصعب الفصول على الحياة حيث الثلوج. ويكتفى على هذه الصفحات أن نذكر أنه كان على العالم الأوروبي أن يتدارس أمره بعد كل هذه الفتوحات ، لأن حكام الغرب الأوروبي كانوا على علم بكل هذه الاحداث ، كما أن طائفة الحشيشية التي اتخذت من قلعة الموت في جبال فارس مقراً لها قد إنزعجت من تحركات المغول بعد تدمير الدولة الخوارزمية، وقادرت بإرسال الرسل إلى حكام أوروبا تحذيرهم من هذا الخطر الجارف.

والواقع أن البابا جريجوري التاسع ( ١٢٤٠ - ١٢٢٧ م ) قام من جانبه بالدعوة إلى عقد تحالف بين دول أوروبا لمواجهة هذا الخطر، ولكن الدعوة شيء والتنفيذ شيء آخر. فقد كان الامبراطور الألماني فريديريك

الثاني (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) مشغولاً بصراعه مع البابا على ممتلكات المانيا في ايطاليا، واكتفى بأن طلب من إبنته كونراد وضع الجيش الألماني موضع الاستعداد للحرب، وطلب أيضاً من ملكى إنجلترا وفرنسا أن يستعدوا بقواتهم لهذا الغرض، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وتوقف حشد القوات العسكرية بعدما علم هؤلاء الحكماء بانسحاب المغول إلى الشرق لوفاة الخان الأعظم أوكيتاي ، وبدأ الغرب الأوروبي يعود إلى أوهامه ويتذكر أسطورة الكاهن يوحنا وما سيأتي على يديه من خلاص والتحالف مع الغرب الأوروبي والقضاء على المسلمين. وفي الوقت نفسه إنشغل الغرب الأوروبي باعداد حملة صليبية تولى أمرها الملك الفرنسي لويس التاسع Louis ix ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م لاستعادة بيت المقدس بعد ما إستردها المسلمين في عام ١٢٤٤ م.

### مونكو ١٢٥١ - ١٢٦٠ م

لما توفي كيوك تطرق الخلل مرة أخرى إلى شئون المملكة، وقامت زوجته أوغول قاميش بتدبير صالح البلاد مع كبار الأمراء حتى يتم تنصيب الخان الجديد. وكان الأمير باطو بن جورجي بن جنكيزخان يشغل منصب خان القبيلة الزرقاء في جنوب روسيا وغرب بلاد القفجاق مريضاً - مصاباً في قدمه - فأرسل الرسل إلى كبار الأمراء للحضور إليه، وكان باطو يرى أن يتولى منصب الخانية من يكون جديراً به وصالحاً له. وقد رفض أبناء أوكيتاي وكيوك الذهب إلى مقر باطو وقالوا «إن أونان وكلوران هما الموطن الأصلي وحاضرهم جنكيزخان، ولسنا ملزمين بأن نخطو خطوة إلى دشت القفجاق» ولكنهم أرسلوا رسلاً عنهم وقالوا «إن باطو هو الأخ الأكبر لكافة الأمراء ، وأمره نافذ على الجميع، وإننا لن نحيط بأى وجه عما يراه صواباً» .

وفي هذا الاجتماع إتفق الجميع على أن مونكو هو الجدير واللائق

للملك، وأن بإمكانه أن يضبط المالك والجيوش بفكر ثابت ورأى صائب، وقد تم تنصيب مونكو طبقاً لتقاليد المغول، فقد حل جميع الأمراء والأئمجال وأمراء الجيش أحزمتهم ورفعوا قلائصهم، وجشوا على ركبهم، ثم أخذ باطوا الكأس ، ثم بايع جميع الحاضرين مونكو، وكان عليه أن يتوجه إلى كلوران لتولي مهام منصبه. وقد صادف مونكو بعض العقبات من بعض الأمراء والوصية على العرش أرملاة كيوك، ولكن الأمور استقامت بعد سنتين وتسلم مونكو مهام عمله، بعد أن هدد باطوا بالاطاحة برأس كل من يخالف أحكام الياسا. وقد وجد مونكو عنایته إلى ضبط شئون المملكة وترتيبها، ونعمت الدولة في عهده بالعدل والسلام. وقد وجد كل إهتمامه برعاية المطاعين وقهر المتمردين، والترفيه عن الرعاعيا و توفير أنواع المؤن لهم، وإختار الجد على الهزل، وترك إدمان الشراب، وفي بداية حكمه بادر بإرسال الجنود إلى أقصى الشرق والغرب لضبط أحوال البلاد.

كما أصدر مونكو مرسوماً بشأن تخفيض الضرائب عن الرعاعيا، ويرجع ذلك إلى بعض الأمراء والخواقين قد منحوا البعض الناس إعفاءات ضريبية بغير حساب، فأمر بـألا يكتب الأمراء بعد ذلك منشورات عن أمور تتعلق بالمصالح العليا للولايات دون إستطلاع رأى نواب الخان الأعظم، وألا يصدروا أوامر لأي شخص ، وألا يستعمل كبار الرسل أكثر من أربعة عشر جواداً عندما ينتقلوا من دار البريد إلى دار أخرى، وألا يغتصبوا دواب الناس في الطريق، ورتب مونكو أيضاً إنتقال التجار على الدواب، فقد كان من المتبع أن التجار كانوا يسافرون إلى ولاية متغوليا على الخيول التي تملكتها الدولة، ورأى أن التجار ينتقلون لكسب الأموال، وليس هناك من معنى لركوبهم خيول الدولة، وأمر بأن ينتقل هؤلاء

التجار على دوابهم الخاصة، وأمر أيضاً بـألا يذهب الرسل إلى آية مدينة أو قرية ليست لهم مصلحة فيها، وألا يأخذوا من العلف أكثر من المقرر.

ورفع مونكو الظلم عن الرعية، لأن الدهاقين (رؤساء القرى) قد ضاقوا ذرعاً بسبب كثرة المطالب، وأداء الضرائب لدرجة أن محصولهم لم يعد يفي بنصف ما يطلب منهم، وطالب مونكو بأن على التجار وأصحاب الأعمال أن يسلكوا مع أتباعهم طريق المسامحة والمساواة، وأن يؤدي ، كل شخص على قدر استطاعته وقدرته، كل ما عليه من ضرائب دون مماطلة أو اعتذار، وأعفى مونكو من الضرائب طائفة السادات والكرام والشياخ الكبار والأئمة الآخيار من المسلمين، وكذلك كبار القساوسة والرهبان النصارى، واللامات البوذيين، كما أعفى كبار السن والعاجزين عن الكسب.

والحقيقة أن الاحوال الداخلية للبلاد في عهد مونكو تضيق بها هذه الصفحات، وقد نكتفى هنا بالقول أنه خص المسلمين بمزيد من الإكرام والإحترام، وميزهم على جميع الطوائف والمذاهب، وأمر لهم بالصلات والصدقات ، ومصداق ذلك أنه في عيد الفطر لعام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٢ هـ حضر إلى معسكر المغول القاضي جلال الدين محمود وطائفة من المسلمين، فخطب في الناس وأمهم، ووشح الخطبة بذكر ألقاب الخليفة ودعا للخان الأعظم مونكو، فأمر لهم بالمنح على سبيل التشريف وأعطاهم عريات محملة بأكياس النقد من الذهب والفضة والملابس القيمة، وقد ذاع أمر مونكو في أطراف البلاد ، وصار الترك من قريب ومن بعيد يلجأون إليه برغبة صادقة، وكان الملوك الذين دخلوا في طاعته، يرسلون إليه التحف والهدايا .

أما العمليات العسكرية في عهد مونكو فهي كثيرة ومتعددة،

وسوف نركز في هذه الصفحات على الجوانب التي تهم العالم الإسلامي والمسيحي، ومن ذلك أن الخان الأعظم أرسل أخيه الأصغر هولاكو Hula-<sup>gu</sup> إلى المنطقة الغربية في الامبراطورية، وقد قاد هولاكو جيشاً كبيراً إلى تلك النواحي. والمعروف أن هولاكو فاق كل أمراء المغول في العلم. وكان شاماني العقيدة مثل المغول، كما كان يميل إلى الشر وليس لديه نزعة إنسانية، وكانت زوجته طرز خاتون أميرة من قبيلة الكرايit مسيحية نسطورية، كرهت الإسلام وال المسلمين وحرست على مساعدة المسيحيين ، وكان الهدف الأول من هذه الحملة هو الاستيلاء على قلعة الموت مقر طائفة الحشيشية في فارس، لأنهم ترددوا على المغول وإغتالوا جفتاي Jagitai ثانى إبناء جنكيزخان، أما الهدف الثاني فكان ببغداد عاصمة الخلافة العباسية، والثالث دمشق مركز البيت الأيوبي في بلاد الشام.

والحقيقة أن الإستعداد لهذه الحملة بدأ في عام ١٢٥٣م ، فقد تم إرسال جيش كبير لتمهيد الطريق وعلى رأسه كتبغا النسطوري الذي كان ينتمي إلى قبيلة الناميان، وفي عام ١٢٥٦م كان تحرك هولاكو بقواته بعد أن انضم إليه الكثير من الأمراء المغول من كل حد وصوب. واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينيين البارعين في قذف السهام التي تحمل المشاعل .

ولما علم الحشيشية بتقدم المغول حاولوا بالطرق السلمية دفع هذا الخطر، ولكن كل هذا لم يجد، فقد إتجه هولاكو بجيشه حتى وصل إلى قلعة الموت وشدد الحصار عليها واضطرب زعيم الحشيشية ركن الدين خورشاه إلى الذهاب لخيمة هولاكو واعلن الخضوع والاستسلام. فأرسله هولاكو إلى الخان الأعظم مونكو ليرى فيه ما يراه، ولكنه رفض مقاييلته

فعاد ركن الدين، ولكن لقى مصرعه أثناء عودته. وتمكن هولاكو من الاستيلاء على قلعة الموت وغيرها من القلاع، وقتل الألوف من الحشيشية، وقبل أن ينتهي عام ١٢٥٧م لم يكن هناك إلا عدداً قليلاً منهم في جبال فارس، وعندما علم الحشيشية في بلاد الشام بما حصل لإخوانهم في فارس أحسوا بدنو أجلهم.

ومن طريف ما يروى حول سقوط قلعة الموت أنه كان بها مكتبة ضخمة تحتوى على العديد من الكتب النفيسة، وقد طلب هولاكو من حاجبه المسلم عطا الملك الجوني أن يفحص المكتبة، فأخرج المصايف والكتب التاريخية والعلمية وأحرق الباقي، ولكن صاعقة نزلت على المكان فأحرقت ما تبقى من كتب، ولم ينقد إلا القليل.

بعد أن إنتهت هولاكو من تدمير قلاع الحشيشية في بلاد فارس، تحركت القوات المغولية لتنفيذ الهدف الثاني من أهداف الحملة وهو مهاجمة بغداد، وكان على رأس الخلافة العباسية في تلك المرحلة الخليفة المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨م) الذي أصبح آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان يأمل في أن يعيد مجده الخلافة مرة أخرى، ولكنه كان رجلاً ضعيف الشخصية، وجعل كل إهتمامه إشباع غرائزه، يضاف إلى ذلك الصراع المذهبي الذي دار داخل البلاط بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي، وبين كاتب الخليفة السنوي أبيك.

وواقع الحال أن الجيش العباسي أو جيش الخلافة أصبح ضعيفاً بعد أن خفض الخلفاء، أعداده حتى وصلت إلى عشرين ألفاً بدلاً من مائة ألف فارس لعدم الوثوق في قادته، وظل الاعتماد على المقاومة محصوراً في حصانه مدينة بغداد، وعلى ما يمكن أن يأتي من مساعدة من البيت الأيوببي في مصر والشام، وهذا أمر مشكوك فيه لإنشغال القوات

الأيوبيه بالصراع مع الصليبيين، وعلى امكانية التفاوض مع المغول ودفع الأموال لتجنب مهاجمة بغداد.

أما القوات المغولية فرغم إستعداداتها وكثرة عددها، فقد وصلت إليها قوات إضافية من مقاتلى القبيلة الذهبية، وبعض القوات المغولية الأخرى من بلاد الأناضول بقيادة الأمير بياجو، وبعض العناصر الجورجية المسيحية الذين كانوا متلهفين على مهاجمة حاضرة الإسلام والمسلمين ومقر الخلافة العباسية وهي مدينة بغداد.

وقد ساعدت الفتن الداخلية في بغداد على تقدم الجيش المغولي، فقد كان يسكن المدينة عناصر مختلفة والأديان والطوائف، وحدث في تلك المرحلة الحرجة إنلاع الفتنة بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ، وقد ساند ابن العلقمي وزير الخليفة طائفة الشيعة، فتدخل أبو بكر بن الخليفة وولي عهده وأمر بنهب ضاحية الكرخ، وزاد الأمر حتى أن العسكر اعتدت على النساء. ويقول المؤرخ أبو الفدا «إن ذلك عظم على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطعمهم في ملك بغداد»، وهذا يدل على فساد الحكم وشدة الانقسام داخل الخلافة العباسية. وبدأت الأعمال العسكرية للقوات المغولية عندما تحركت في نهاية عام ١٢٥٧م من مدينة همدان التي تبعد عن بغداد إلى الشرق حوالي ستمائه كيلومتر. وإنقسم الجيش المغولي إلى ثلاثة أقسام سارت في ثلاثة محاور، الأول وتولى أمره الأمير بياجو واتجه إلى الموصل وعبر نهر دجلة وسار إلى جانب الشاطئ الغربي للنهر في الطريق إلى بغداد التي تبعد عن بصرى حوالي ثلاثة وثمانين كيلومتر، والمحور الثاني وعلى رأسه غا واتجه إلى سهل العراق الواقع شرق بغداد، والثالث وهو الرئيسي هو لاكيو وكانت وجهته بغداد مباشرة.

وحاول الكاتب أيبك أن يتصدى للقوات المغولية القادمة من الموصل، ولكن القوات المغولية أوقعته وقواته في كمين لاذ بعدها بالفرار في الطريق إلى بغداد، وحوالي ذلك الوقت خرج ابن العلقمي إلى هولاكو، فأخذ الأمان لنفسه، ولكنه مالبث أن عاد ومعه شروط هولاكو بالاستسلام، وموجز هذه الشروط أن يبقى المستعصم خليفة على البلاد، وأن يتزوج أبو بكر ابن الخليفة من إبنته هولاكو، وقد طلب ابن العلقمي من الخليفة الخروج مقابلة هولاكو وقد زين له هذا العمل، ويقول أبو الفدا «فخرج إليه المستعصم في جمع من إكابر أصحابه، فانزل في خيمة ، ثم إستدعاى ابن العلقمي الفقهاء، فإجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وغيرهم، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم». وعنده هذه المرحلة عبرت القوات المغولية إلى بغداد على جسر أقاموه على نهر دجلة وأنزلوا القتل في بغداد، وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلا صغار السن الذين أخذوا أسرى، ودام القتل والنهب في بغداد أربعين يوماً. وقد أسفر ذلك عن قتل حوالي ثمانين ألف من أهل المدينة. أما الجالية المسيحية فقد لجأت إلى الكنائس، وتدخلت طقز خاتون المسيحية زوجة هولاكو لحمايتهم فلم تتعرض القوات المغولية لهم بسوء. وكان هولاكو قد أبقى على حياة الخليفة حتى دخل بغداد وبعد أن دله على الأماكن التي وضع فيها ثروته وكنوزه. وقد إضطررت القوات المغولية إلى الانسحاب من المدينة بعد أن فاحت رائحة الجثث، وذلك في نهاية مارس ١٢٥٨ م.

وصار بحوزه هولاكو عند إنسحابه من المدينة ثروات الخلفاء التي كدسواها منذ قيام الخلافة في بغداد، وقبل أن يغادر هولاكو المدينة عين عليها والياً هو ابن العلقمي ، كما أغدق الأموال على البطريرك النسطوري ماكيكا Makika وخصص له أحد قصور الخلافة لتكون مقراً له وكنيسة.

كان لسقوط بغداد نتائج متعددة على الشرق والغرب على السواء، فقد إرتفاع العالم الإسلامي وبات يخشى العاقبة، أما المسيحيون فقد إبتهجوا وأعتبروا سقوط بغداد هو سقوط بابل الثانية، وأن هولاكو وزوجته طفرة خاتون هما الإمبراطورة قسطنطين وأمه هيلينا. وأن أسطورة الكاهن يوحنا أصبحت حقيقة ينقصها تحالف المغول مع المسيحيين للقضاء على المسلمين في بلاد الشام لاستعادة بيت المقدس.

وبعد سقوط بغداد أقام هولاكو معسكره في مراغه حيث يستقبل بعض سفراء الدول إما للتأييد أو الإعتذار، ثم استعد بعد ذلك لتحقيق الهدف الثالث وهو الهجوم على دمشق، ولم يبدأ هولاكو بهاجمة دمشق مباشرة بل قام ببعض العمليات العسكرية في بلاد الشام خاصة في الشمال واستمرت حوالي عام قبل أن يتوجه إلى هدفه الثالث والأخير دمشق.

وبدأت العمليات العسكرية في إقليم الجزيرة ضد مدينة ميافارقين لأن حاكمها الكامل الثاني نصر الدين (١٢٤٤ - ١٢٦٠م) كان قد صلب مبعوث هولاكو ورفض قبول السيادة المغولية. وقد سقطت المدينة في أوائل عام ١٢٦٠م، بفضل المساعدات التي قدمها الأرمن والكرجيون، ودارت مذبحة في المدينة قتل فيها كل المسلمين، أما المسيحيون فقد تم الابقاء على حياتهم. وتم القبض على الكامل الثاني وعذب حتى الموت، وقد حملت رأسه على رمح وطيف بها في البلاد مثل حلب وحماته دمشق، ولعل هذا التصرف أثار الرعب في نفوس أهل الشام ، مما كان أبلغ الأثر على الحالة النفسية للأهالي والقوات الإسلامية.

انت المرحلة الثانية من العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام مدن نصبيين وحران والرها والأراضي الواقعة في تلك النواحي مثل

البيزة وسرورج حتى وصلت القوات المغولية بقيادة هولاكو إلى مدينة حلب، حيث تم إلقاء الحصار عليها بعد أن رفضت الإسلام، وقد قاومت المدينة لمدة ستة أيام حتى انهارت أسوارها أمام ضربات المغول فدخلتها القوات المغولية وحل بها ما حل بالمدن الأخرى من ذبح المسلمين والإبقاء على المسيحيين، ورغم هذا كله فقد ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة شهر حتى سقطت، وقد احترم هولاكو الأمير الأيويي تورانشاه بن صلاح الدين لكبر سنّه ويسالتنه. وقد استولى هولاكو على ثروة المدينة وعين عليها الأمير الأيويي الأشرف حاكم حمص (١٢٤٦ - ١٢٦٢ م) الذي زار المعسكر المغولي قبل عدة أشهر من هذه الأحداث، واعتبر الأشرف من أتباع المغول بعد أن أعطاه هولاكو الدستور (الأمر) على حد قول أبو الفدا.

وبعد مدينة حلب اتجه هولاكو إلى الممتلكات الإسلامية في ضواحي أنطاكية خاصة أن أميرها بوهمند السادس Bohemond VI (١٢٥١ - ١٢٦٨ م) كان قد دخل في طاعة المغول، وكانت مدينة حارم وقلعتها في الطريق إلى أنطاكية، وقد رفضت الإسلام فوقع بها ما وقع بحلب، وفي تلك المرحلة تقدم بوهمند وهيثوم الأول ملك أرمينية (١٢٢٦ - ١٢٦٩ م) إلى معسكر هولاكو بإعتبارهما حلفاء له لتقديم فروض الولاء والطاعة، وقد كفأهما هولاكو ببعض العطايا، كما طلب من سلطان سلاجقة الروم إعادة الأرضي التي كانت في حوزة الأرمن من قبل ، كما أعاد إلى بوهمند بعض المدن والمحصون التي إستولى عليها المسلمين أيام صلاح الدين، وطلب هولاكو من بوهمند أن يعين البطريرك الأرثوذركسي يوثيرميوس Euthymius على الكنيسة الأرثوذوكسية في أنطاكية وكان في ذلك إرضاء للإمبراطورية البيزنطية التي كانت على علاقة طيبة بالمغول،

وقد ظل يوشيموس في منصبه حتى عام ١٢٧٤م، وليس معنى ذلك إلغاء منصب البطريرك الكاثوليكي فقد كان المنصبان موجودان في أنطاكية، ولكن هناك فرق بين بطريرك يعين وبطريرك منتخب.

وكانت وجهة هولاكو بعد ذلك مدينة دمشق ، ولما علم الناصر صلاح الدين يوسف سلطان دمشق بما فعله المغول بحلب رحل عن المدينة بما بقى معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية، ولم يحاول الدفاع عن المدينة، وأقام لبعض الوقت في مدينة نابلس، ثم اتجه إلى غزة، وبلغه أن المغول هاجموا نابلس، فرحل إلى العريش وأرسل إلى سيف الدين قطز (١٢٥٩ - ١٢٦٠م) يطلب منه المساعدة، أما دمشق فقد دخلها المغول بقيادة كتبغا بالأمان، ولم ت تعرض الأهالي إلى القتل والنهب. ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم وقاومت عدة أسابيع فأقام المغول عليها المجانق ثم تسلموها بالأمان في جمادى الأولى عام ٦٥٨هـ / أبريل ١٢٦٠م، ورغم ذلك نهب المغول جميع ما فيها وهدموا القلعة وأسوارها وما بها من أدوات القتال.

وهكذا حققت حملة هولاكو أهدافها بنجاح، وهي تدمير قلاع الحشوية وأسقاط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية، ودمشق عاصمة الآيوبيين في الشام، يضاف إلى ذلك أن هولاكو ضمن ولاء سلطنه سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ودولة الأرمن في قيليقية، والصلبيين في أنطاكية، أما بقية الإمارات الصليبية فلم يكن في نية المغول مهاجمتها طالما أظهروا الطاعة لهم، وقد إنתרم الجميع بذلك عدا جولييان Julian حاكم مدينة صيدا والشريف Beaufort وزوج يوفينا phemia إبنة الملك الأرمني هيشوم. وقد قام جولييان بالإعتداء على إضي البقاع الأمر الذي ألقى المغول، وأرسلوا إليه بعض القوات

المغولية بقيادة ابن أخت كتبغا، ولكن جولييان كمن لهذه القوات ودارت معركة قتل فيها القائد المغولي، وهنا أرسل كتبغا جانباً كبيراً من جيشه خرب مدينة صيدا، عدا القلعة التي انقذتها بعض السفن الجنوية التي أتت من صور، وترتب على ذلك عزل جولييان من حكم المدينة. وإلى جانب جولييان، ترد يوحنا الثاني إبلين John II of Ibelin حاكم بيروت عندما اعتدى على إقليم الجليل بمساعدة الداوية، وقد أرسلت قوة مغولية لردعه، وكان لتصرف المغول هذا أثره السيء في تصرفات الصليبيين ضد المغول في المرحلة المقبلة.

أما النتائج العامة لغزوات المغول في فارس والعراق والشام فكانت سيئة جداً على العالم الإسلامي وتوقعوا نهاية أجل الدول الإسلامية بعدما أحسوا أنهم في بلاد الشام وخاصة أقلية مغلوبة على أمرها، على العكس من الدول المسيحية والصلبية التي استبشرت خيراً بقدوم المغول، ولكن هذا الإحساس والتفاؤل شيء الواقع شيء آخر. فقد كان هناك مصر التي حملت لواء الدفاع عن العالم الإسلامي ومقدساته.

قوبيلاي ١٢٦٠ - ١٢٩٤ م

توقفت العمليات العسكرية المغولية في بلاد الشام عندما وصلت الأخبار بوفاة الخان الأعظم مونكو، وكان له ثلاثة أخوة هم قوبيلاي Ku-bilai وهو لاكيو، وأريق بوقا Arighboga ، وكان له أبناء صغوار قليلوا الخبرة. وأشارت الدلائل إلى ترشيح قوبيلاي لمنصب الخان الأعظم، وكان قوبيلاي أثناء ذلك يقود حملة عسكرية ضد بلاد الصين فساندته القوات المغولية المرافقة له في حملته، فبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة كلوران لتولى منصبه بحكم أنه الأخ الأكبر للخان الراحل. ولكن الأخ الأصغر وهو أريق بوقا كان في العاصمة وسيطر على أموال الإمبراطورية وطالب بالعرش.

وإنقسمت الأسرة الحاكمة إلى قسمين أحدهما يساند قوبيلاني والآخر يساند أريق بوقا، واختار كل فريق من يسانده لتولى عرش الخانية، وظلت المناورات حتى أواخر عام ١٢٦١م حتى إنتهى الأمر بإختيار قوبيلاني في منصب الخانية، ولكن أريق بوقا ظل يعارض أخاه لفترة ، وقع خلالها بعض الاحتكاك بين الفصائل المغولية حتى إنتهى الأمر بوفاة أريق بوقا عام (١٢٦٤هـ / ١٢٦٥ - ١٢٦٦م) . وبعد أن إستراح خاطر قوبيلاني من فتنة أريق بوقا دخل جميع الأمراء في طاعته عدا قلة، وفي النهاية خضع الجميع واستكأنوا.

وكان على هولاكو خلال هذه الأحداث أن يسحب بعض قواته ويتراجع ليراقب الأحداث ، فترك كتبغا مع بعض القوات المغولية في بلاد الشام، ولم يكن في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي من قوة تستطيع أن تواجه المغول سوى مصر وبها دولة المماليك التي تولت السلطة في مصر، وكان عليها أن تحمل راية الجهاد لإثبات وجودها وقوتها في المنطقة، وحتى تكون جديرة بحكم مصر، وما تتطلع إليه من ميراث البيت الأيوبي في بلاد الشام.

#### معركة عين جالوت ١٢٦٠م :

كان بداية الاحتكاك بين المغول والمماليك السفارة المغولية التي أرسلها هولاكو إلى مصر في أوائل عام ١٢٦٠م / ١٢٥٨هـ ، تطلب من السلطان قطز الخضوع للسيادة المغولية، ولكن قطز أمر بقتل الرسل، ومعنى ذلك أن الحرب قائمة لا محالة بين الطرفين، وعلى ذلك إستعد قطز للقتال فحشد قواته وإنضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية، وعساكر المغيث عمر الأمير الأيوبي حاكم إمارة الكرك حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية، واجتاز قطز وقواته الحدود المصرية في نهاية

يوليو ١٢٦٠ م وتولى بيبرس قيادة المقدمة وتمكن من الانتصار على القوات القليلة للمغول التي كانت مراقبة في غزة، وعلى أثر هذه الهزيمة أرسل القائد المغولي في غزة وهو بايدار Baidar إلى بعلبك حيث كان كتبغا يخبره بالوقائع.

إستعد كتبغا وما معه من قوات للتقدم من بعلبك إلى غزة، ولكنه اضطر لترك جانب من قواته لتتوجه إلى دمشق لقمع ثورة قام بها المسلمين داخل المدينة، وترجع أسباب هذه الثورة إلى أن المغول أخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليها من الإعتقال وضربوا أعناقهما، ولما كان أهل دمشق قد علموا بخروج العساكر من مصر لقتال المغول فإعتقدوا على المسيحيين الذين إستطاعوا على المسلمين، بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع، ونهبوا كنيسة السيدة العذراء.

وخلال هذه الفترة تقدم قطر إلى الشمال بحذاء الساحل وأرسل سفارة إلى حكام مملكة بيت المقدس الإسمية في عكا تطلب من الصليبيين إقامة تحالف إسلامي صليبي ضد المغول، والسماح للقوات الإسلامية بالمرور عبر الأراضي الصليبية، والحصول على المؤن الازمة للجيش. وعقد بارونات المملكة مجلساً للتشاور، وكان تقييم الموقف عند هؤلاء البارونات، أن سجل المغول حافل بالمذابح وإن المغول تعاطفوا مع المسيحيين المحليين، ولم يتعاطفوا مع الصليبيين، وأنهم اعتدوا على مدينة صيدا منذ قليل، وأن التعامل مع المسلمين رغم الحروب الدائمة أفضل بكثير من التعامل مع المغول، وإنتهى قرار البارونات إلى استبعاد فكرة التحالف العسكري مع المسلمين، والإكتفاء بالسماح بمرور القوات الإسلامية عبر الأراضي الصليبية، وتمويل القوات بما يلزم من المؤن، وعلى إثر هذه الاتفاقية تقدم قطر وقواته إلى الشمال حتى وصل إلى مدينة عكا وعسكر في البساتين الواقعة خارج المدينة لعدة أيام.

وفي الوقت نفسه كان كتبغا قد رتب ما لديه من قوات، وكان مع قوات المغول قوات كرجية وأرمنية، وكان أيضاً في معية كتبغا من البيت الأيويي الملك السعيد، والملك الأشرف موسى ، ولكنها كانت أقل عدداً من القوات الإسلامية.

وعلى أية حال تقدم كتبغا من بعلبك حتى وصل الناصرة، ثم إلى عين جالوت التي وصلها في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ / الثاني من سبتمبر ١٢٦٠م، وفي هذا المكان حيث كان كتبغا لا يدرى بما يدور حوله، ولم يكن هناك من السكان المحليين من يساعدته، كان قطر قد خطط للمعركة، وكانت خطة قطر تقضى بأن تختبأ القوات الرئيسية في التلال، ولا يظهر أمام القوات المغولية إلا قلة بقيادة الأمير بيبرس، وهنا أسرعت القوات المغولية للاحقة القوات الإسلامية التي ظهرت بالانسحاب، فانقضت القوات الإسلامية على القوات المغولية وهزمتها هزيمة قاسية، وأخذتها سيف المسلمين، وهرب من سلم من المغول إلى الجبال ولكن المسلمين تبعوهم وأفونهم، وقد نجح البعض في الهروب إلى الشرق، أما كتبغا فقد ظل يقاتل حتى هلك فرسه، فوقع في أسير المسلمين وحمل مقيداً بالأغلال إلى السلطان فأمر بقتله، كما وقع في الأسر الملك السعيد وقد أمر السلطان أيضاً بقتله، أما الملك الأشرف فقد فارق المعسكر المغولي وطلب الأمان من السلطان فأمنه وأقره على ما بيده وهو مدينة حمص ومضافاتها، وبعد هذه المعركة تقدم قطر حتى دمشق.

والحقيقة فإن الأمر يتطلب وقه قصيرة للنظر في الأسباب التي أدت إلى هزيمة المغول في معركة عين جالوت، وهم الدولة التي لم تهزم هزيمة واحدة في كل فتوحاتها من بلاد الصين غرباً حتى البحر الأدربيجاني شرقاً، ومن جنوب الروسيا شمالاً حتى تركستان جنوباً، ويمكن حصر هذه

الأسباب في عدة نقاط هي : وفاة الحان مونكو وما له من تأثير على عودة هولاكو والجزء الأكبر من جيش المغول حتى أصبح ما تبقى من قوات أقل من القوات التي كانت تحت السلطان قطز، وسبب آخر يرجع إلى مساعدة الصليبيين للقوات الإسلامية والسماح لها بالمرور في أراضيهم والالتفاف حول القوات المغولية من الشمال، وهو أمر لم يتوقعه المغول، يضاف إلى ذلك الثورة التي قامت في دمشق بسبب تصرف المغول وقتل نقيب قلعة المدينة وواليها، الأمر الذي أجبر كتبغا على ترك جانبياً من قواته لإقرار الأمن والنظام داخل المدينة، كما أن عدم تعاون الأهالي مع المغول في الأرضي التي مرروا بها جعلهم لا يدرؤون بما يدور من حولهم حتى فاجأتهم القوات الإسلامية، هذا بالإضافة إلى جهل المغول ببطوغرافية الأرضي التي مرروا بها، وأن وقت المعركة قد حدد بمعرفة قطر وليس بمعرفة المغول، وهذا أمر هام لأن المغول كما شاهدنا في المعارك السابقة كانت حروفهم تبدأ مع فصل الشتاء وتنتهي مع نهاية فصل الربيع. أما أحداث معركة عين جالوت فقد بدأت من شهر يونيو وامتدت حتى أوائل سبتمبر، وهذا وقت تشتد فيه الحرارة في بلاد الشام وتقل المياه في الأنهر والأفلاج. وأخيراً يمكن القول أن هذه المعركة كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لدولة المماليك الناشئة التي أعلنت راية الجهاد على أعداء الإسلام.

أما النتائج التي ترتب على هذه المعركة التي تعتبر من أهم المعارك الخامسة في التاريخ فهي كبيرة وعميقة الأثر على تاريخ العالم كله في تلك الحقبة التاريخية، فقد جعلت من دولة المماليك القوة الرئيسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي حتى الفتح العثماني، ولقد قوت هذه المعركة أيضاً من قوة المسلمين في آسيا كلها وأضعفـت العناصر المسيحية، حتى أن المغول الذين يقـوا في إيران والأقاليم الغربية

لإمبراطورية المغولية قد اعتنقوا الإسلام، كما عجلت هذه المعركة بالقضاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

كان جنكيز خان أربعة أولاد حسب كبر السن جورجي، وجفتاي، وأوكيتاي، وطولوي، وفي أيام جنكيز خان كانت الحكومة في إقليم منغوليا، أما بعد وفاة جنكيز خان فقد تم نوع من التقسيم الإداري، فأصبح أوكيتاي خاناً أعظم بالإضافة إلى إقليم منغوليا، أما جفتاي فقد احتضن إقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام ١٢٢٧ م وفي سلالته التي استمرت حتى عام ١٣٧٠ م، وفيما يختص بإقليم فارس فقد آل إلى هولاكو بعد موت طولوي وذلك منذ عام ١٢٥٦ م.

أما جورجي فقد حكم القبيلة الذهبية وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى اللون الذهبي الذي كان لون مخيماً لها، وقد حكم بعده ولدانه هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء وحكمت في جنوب روسيا وغرب بلاد القفقاس منذ عام ١٢٢٧ م حتى ١٣٨٠ م، والثاني هو أوردا الذي عرفت سلالته باسم القبيلة البيضاء واستمرت سلالته منذ ١٢٢٦ حتى ١٤٨١ م وحكمت في سيبيريا وشرق بلاد القفقاس.

وما يعنينا على هذه الصفحات في هذا الفصل خانات فارس، وهم فرع هولاكو وذلك لسبعين، الأول هو قرب فارس إلى العالم الإسلامي العربي، وما كان لهذا الفرع من إتصالات سلمية وعسكرية مع دولة المماليك في مصر، والثاني هو محاولة أوربا التحالف مع هذا الفرع في بلاد فارس للقضاء على دولة المماليك وفكين الصليبيين في بلاد الشام من السيطرة على منطقة الشرق الأدنى الإسلامي العربي.

مات هولاكو في مدينة أذربيجان في الثامن من فبراير عام ١٢٦٥ م

بعد أن كان قوييلاني قد منح هولاكو لقب خان في حكم إقليم فارس وعاصمته تبريز، وجعل له وسلطه الحكم وراثياً في هذا الإقليم، وما يهمنا في هذه الدراسة أن هولاكو توقف عن مهاجمة منطقة الشرق الأدنى الإسلامي بعد معركة عين جالوت، ويرجع ذلك إلى مشاكل هولاكو بسبب الوراثة في البيت المغولي، وبسبب مشاكله أيضاً مع مغول التركستان ومغول القبيلة الذهبية الذين اعتنقوا الإسلام، ولكنه رغم هذا كان يملك من القوة العسكرية التي أخافت المماليك من مهاجمة حلفائه من الأرمن، والصلبيين في أنطاكية، وسلامجة الروم في آسيا الصغرى ودولة الكرج (جورجيا)، ثم الإمبراطورية البيزنطية بذلك، وكان هولاكو يرى أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية، وذلك لإيجاد توازن في آسيا الصغرى بين الإمبراطورية وسلطنه سلامجة الروم، ولذلك أرسل هولاكو من عاصمته تبريز إلى الإمبراطورية يطالب بزوجة له، وقد وافق الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus (1258 - 1282م) وشرع في إرسال ابنه غير شرعية له هي ماريا . وتوفي هولاكو في الثامن من فبراير عام 1265 ، وجاءت وفاته في لحظة حرجة من تاريخ المغول، وكان لها أثراً كبيراً في إضعافهم، وقد نجحت زوجته طرز خاتون في الاحتفاظ بالعرش في إقليم فارس لإبنها أبيغا Abaga ، وماتت بعد قليل طرز خاتون حامية المسيحية في كل الأراضي التي دخلها المغول فحزنوا عليها حزناً شديداً، وثارت بعض القلائل ضد أبيغا من قبل بعض أمراء المغول، فلم يعد بوسعيه أن يقوم بأى عمل عسكري في بلاد الشام في تلك المرحلة .

### أبيغا خان فارس (1265 - 1282م)

وإذا كان العالم المسيحي قد حزن على موت طرز خاتون، فإنهم وجدوا في ماريا البيزنطية ما يعوضهم عن ذلك، فعندما وصلت ماريا إلى

البلاط المغولي في فارس كان هولاكو قد مات، ولكنها تزوجت من ابنه أبغا، وبذلك حلت ماريًا التي عرفت في البلاط المغولي باسم ديسينا خاتون Despina Khatun محل طcer خاتون، ووجدوا فيها حاميًّا جديداً لل المسيحية، وقد أجلها المسيحيون والمغول وإحترموها لما إشتهرت به من حب الخير والحكمة.

وقد شجع ذلك الغرب الأوروبي وعلى رأسه الباباوية ، فأرسل البابا كlemens الرابع (1265 - 1268م) إلى أبغا يعرض عليه عقد محالفه عسكرية لمحاربة المالك، ولكن أبغا كان مشغولاً بحروبه مع القبيلة الذهبية، ولذلك لم يقدم سوى وعداً غامضاً، كما إنشغل بحرب أخرى بعد قليل مع ابناء عمومته آل جفتاى الذين أغادروا على أملاكه الشرقية في عام ١٢٧٠م. وفي العام نفسه وبعد أن إنتهى من مشاكله مع ابناء عمومته وهزمتهم، فكر أبغا في التحالف مع الملك لويس التاسع وتعهد بأن يقدم المساعدات العسكرية إذا وصل لويس بحملته إلى بلاد الشام، ولكنه لويس لم يتقدم إلى بلاد الشام بل وجه حملته إلى تونس حيث مات هناك ففشل هذا المشروع، وكان لويس قد إتفق مع الأمير الأنجلينزي إدوارد أن يتوجهها بحمله صليبية معاً ، فلما مات لويس كان إدوارد موجوداً في صقلية، فأبحر إلى جزيرة قبرص ومنها إلى عكا في التاسع من مايو ١٢٧٠م.

وما يعنينا في هذه الدراسة هو محاولة تحالف إدوارد مع المغول لقتال المسلمين. وقد أرسل الأمير الأنجلينزي إلى أبغا سفارة مكونة من ريجنالدرسل Reginald Russel وجود فرى ويليس Godfrey Welles . وحنا باركر John Parker إلى الخان أبغا يطلب منه المساعدة لقتال المالك، ولما كانت قوات أبغا مشغولة بالقتال في تركستان، فقد أرسل إليه في منتصف أكتوبر عام ١٢٧١م عشرة آلاف فارس سحبها من بلاد

الاناضول.

تقدمت القوات المغولية إلى مدينة عين تاب، ثم إلى حلب ففرت الحامية المملوكية إلى حماة، فتقدمت القوات المغولية في إثرهم حتى معرة النعمان وأفاميه، ولما أحسست بقدوم القوات المملوكية عادت من حيث أتت لأنها شعرت بقلة قواتها أمام القوات المملوكية. ومن الملاحظ أن إدوارد لم يتقابل مع القوات المغولية، ولم يكن هناك أي تنسيق في العمليات العسكرية، وقد غادرت الحملة الانجليزية بلاد الشام بعدما قامت ببعض العمليات العسكرية البسيطة في ضواحي عكا، وبعد أن رتب إدوارد لعقد هدنة بين الصليبيين في عكا والظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٩ م) في القاهرة، ما لبشت أن تساقطت الممتلكات الصليبية واحدة بعد الأخرى.

وفي نهاية القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر قام المغول ببعض الغارات على بلاد الشام أحياها الأمل عند الغرب الأوروبي في إمكانية الاعتماد على المغول في القضاء على الدولة المملوكية، ففي عام ١٢٩٩ م أغار على بلاد الشام خان فارس غازان محمود (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) الذي اعتنق الإسلام واستبدل لقبه بلقب السلطان بدلاً من لقب خان، وقد نجح غازان في هزيمة الحاميات المملوكية، عند حمص في نهاية عام ١٢٩٩ م، ثم تقدم إلى مدينة دمشق في مطلع العام التالي ١٣٠٠ م، فاعترفت المدينة بسيادته، ومن دمشق هدد غازان بفتح مصر ثم غادرها إلى عاصمته في فارس.

وتقدم غازان مرة أخرى إلى بلاد الشام في عام ١٣٠٣ م ولكنه هزم في مرج الصفر فعاد بعدها إلى بلاده، وهذا تهديده لصر لبعض الوقت، ورغم أن غازان كان قد اعتنق الإسلام إلا أنه كان يبحث عن حلليف للقضاء على القوات المملوكية، ولم يكن هناك سوى دول أوروبا التي سبق

لها أن توسلت كثيراً إلى خانات المغول للتحالف ضد المماليك، ولكن الخانات كانوا يطلبون الخضوع لا التحالف، وبذلك ضاعت فرصة التحالف الأوروبي لضرب العالم الإسلامي.

وإنقلبت الأوضاع وبدأ المغول يبحثون عن حليف في أوروبا يتعاونون معه لضرب القوة المملوكية، ولذلك أغاث أولجايتتو خدا بندة محمد الذي اطلق عليه أبو الفدا اسم خريندا على بلاد الشام في عام ١٣٠٨ م بذب أنظار حكام أوروبا، وتغلق حتى وصل إلى مدينة بيت المقدس. وترددت الشائعات بأن أولجايتتو ينوي تسليم المدينة إلى دولة مسيحية تحالف معه، ولم يحدث أن تقدمت دولة أوروبية لعقد هذا التحالف، رغم وجود إرهاصات بقيام حملة صليبية دعا إليها البابا وملك فرنسا، وبعد سنوات قليلة مات خان فارس، فتضاءلت فرص التحالف الأوروبي المغولي، وعندما تولى أبو سعيد بهادر السلطة في فارس نزع إلى الوفاق مع مصر، وقد ظل أبو سعيد في السلطنة حتى عام ١٣٣٥ م تفككت بعده الخانية وانقسمت إلى أسرات عديدة، ولم يعد هناك ما يهدد مصر، أو من يفكر في التحالف مع أوروبا.

## مغول القفجاق

سبق إن ذكرنا أن جورجي بن جنكيز خان حكم القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق، وفي عهد الخان بركه Berke بن جورجي (١٢٥٧ - ١٢٦٧ م) انتشر الإسلام في بلاد القفجاق كأول قبيلة مغولية تعتنق الإسلام، وقد أدى هذا إلى ظهور العداء بين بقية القبائل المغولية وبين القفجاق، وقد ترتب على ذلك تقرب القفجاق إلى الدول الإسلامية المجاورة خاصة دولة المماليك، كما سعى أيضاً المماليك بدورهم للتقارب من خانات القفجاق خاصة أن الصراع ظلل على أشده بين خانات فارس وبين المماليك في مصر. وتبودلت السفارات والرسائل بين الطرفين، ومن ذلك أن الخان بركه

أرسل في عام ١٢٦٣ م سفارة إلى مصر حملت معها رسالة للسلطان بيبرس، وقد إمتلأت هذه الرسالة بالعبارات التي تفيض أن بركه متخصص بالإسلام وال المسلمين وأنه لا سبيل له إلا إعلاء كلمة الله. وقد أرسل بيبرس رسالة عبر فيها على انجيازه الكامل لقبيلة القفجاق وإحترامه الزائد للخان بركة،

ولم يقف بيبرس عند هذا الحد من المجاملة، بل أنه أمر بالدعاء للخان بركة - بعد الدعاء للسلطان المملوكي - على منابر البلدان الإسلامية المقدسة وهي مكة والمدينة والقدس بالإضافة إلى منابر القاهرة. واستمرت العلاقة بين الظاهر بيبرس والخان مانكو تيمور ١٢٦٧ - ١٢٨٠ م بقصد توحيد الجهود لمواجهة أخطار مغول فارس، ولم تقطع هذه الصلات بعد بيبرس، فقد أرسل الناصر محمد بن قلاوون رسالة يساند فيها غياث الدين تقتو ١٢٩٠ - ١٣١٢ م، ويعلن إستعداده لمحاربة غازان خان المغول في فارس. ويبدو أن مغول فارس قد تنبهوا لهذا الترابط الذي قام بين الماليك وخانات القفجاق، لأن أولجايتو خليفة غازان رضى بالصلح مع دولة الماليك، فخفت حدة التوتر بين مغول فارس وبين الماليك وبالتالي إلى حد ما مع مغول القفجاق.

ورغم هذا إستمر الترابط بين الماليك ومغول القفجاق، وفي عهد غياث الدين محمد أزيك ( ١٣١٢ - ١٣٤١ م ) أرسل الناصر محمد بن قلاوون في عام ١٣١٦ م يطلب منه الزواج من إحدى أميرات القفجاق، وقد تأخر تنفيذ ذلك لبعض الوقت حتى كانت سنة ١٣٢٠ م حتى وصلت العروس إلى ميناء الإسكندرية، وكانت تدعى طولونية، ويقال دلبية. وفي السنوات التالية وخاصة في عهد جاني بك ( ١٣٤١ - ١٣٥٧ م ) كانت العلاقات مع سلاطين الماليك قائمة على التقدير والاحترام المتبادلين. ومع انحلال خانية فارس منذ عام ١٣٣٦ م زال الخطر المشترك

بين القفجاق والماليك، ثم دخلت خانية القفجاق هي الأخرى في مرحلة من الانحلال بعد عام ١٣٥٧م ، كما إشغله الماليك بقضايا أخرى، الأمر الذي أدى إلى إضعاف روابط الاتصال مع القفجاق .

تيمور لنك ١٣٦٩ - ١٤٠٤ م

ولد في قرية خواجه إيلغار بالقرب من مدينة سمرقند في عام ١٣٣٦م، وعندما بلغ الثلاثة والثلاثين من عمره أصبح حاكما على إقليم تركستان الشرقية وإقليم ما وراء النهر، وهي المنطقة التي حكمها الخانات من فرع جفتاى بن جنكيزخان ، ومنذ تولى تيمور لنك السلطة شن حرباً واسعة على بلاد فارس ثم على بغداد، وعلى بلاد روسيا حيث توجد القبيلة الذهبية، وعلى شرق بلاد الأناضول حيث أملاك الدولة العثمانية، وفي نهاية القرن الرابع عشر ومطلع الخامس عشر الميلادي تقدم إلى بلاد الشام حيث حلب ودمشق وغيرها.

وترجع إنتصارات تيمور لنك في كل هذه الأقاليم إلى حروبه التي كانت شديدة الوطأة لا تعرف الرحمة، مما أدخل في الذهان عصر خانات المغول الأوائل. ويلاحظ على فتوحات تيمور لنك في بدايتها أنها كانت بطيئة ومتأنية ولكنها كانت فتوحات مدروسة مكن فيها تيمور لنك لنفسه ولدولته في الإقليم الذي حكمه، وقد ظلت حروب تيمور لنك منذ عام ١٤٣١م وحتى وفاته عام ١٤٠٤م. وكانت بداية عمليات تيمور لنك الرئيسية ضد خانات المغول في فارس ، لأن بلاد فارس قد تمزقت إلى عدة دول في عام ١٣٣٦م بعد خان موسى، ولعل هذا ما أغري أو شجع تيمور لنك على غزو هذه النواحي، وقد نجح في ١٣٨٦ من الاستيلاء على تبريز وتفليس. وظل يترقب الأوضاع في بغداد حتى إستولى عليها عام ١٣٩٢م.

وبعد هذه المرحلة تطلع تيمور لنك إلى قتال القبيلة الذهبية في روسيا، وتقدم بعده حملات متلاحقة حتى وصل إلى مدينة موسكو. وفي سنة ١٣٩٥م اتجهت القوات المغولية إلى بلاد الأناضول فخضعت له مدineti أرزنجان وسيواس وغيرهما، وبعد ثلاث سنوات كانت حملات تيمور لنك على شمال بلاد الهند في عام ١٣٩٨م وتميزت حملاته على الهند بقسوة لم تعهد لها البلاد التي فتحها من قبل. وكان لذلك أثره على سكان البلاد التي فتحها بعد ذلك.

وبدأت الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام بقيادة تيمور لنك في عام ١٤٠٠م، وكانت وجهته مدينة حلب التي قاومت ببسالة، ولكنها سقطت في النهاية، ودخلتها القوات المغولية واستباحتها لمدة ثلاثة أيام، وبلغ عدد القتلى من أهالي المدينة حوالي عشرين ألفاً، وقد قطعت بعض رؤوسهم في كومة قطرها عشرين ذراعاً وارتفاعها عشر ذراع. كما دمر المغول مدارسها ومساجدها التي أسسها البيت الزنكي والبيت الأيوبي والماليك.

وحاول السلطان المملوكي فرج بن برقق (١٣٩٩ - ١٤١٢م) أثناء حكمه في المرة الأولى أن يتصدى للجيش المغولي ولكن القوات المغولية أبادت الطلائع التي أرسلها لمقاومتها، فأصبح الطريق مفتوحاً أمام تيمور لنك إلى دمشق. وقد صمدت المدينة حوالي شهر، ثم استسلمت المدينة بعد ذلك، ويقول ابن تغرى بردي إن تيمور لنك لم يحترم شروط التسليم التي قرأت على منبر جامع دمشق، فقد جمع من سكان المدينة حوالي ثلاثة آلاف من الرجال والنساء والأطفال - دون تفرقة بين الجنس أو العمر - في جامع المدينة ثم أمر باضرام النار في المسجد، فلم يبق منه شيئاً سوى بعض الجدران.

كما نقل تيمور لنك جميع العلماء والحرفيين المهرة إلى عاصمه

سمرقند، ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بثلها استمرت تسعة عشر يوماً بعدها أشعلت النار في المنازل والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وظلت النار مشتعلة ثلاثة أيام بليلها، حتى ثارت دمشق أطلالاً باليه، وما كاد يفرغ من دمشق حتى إتجه إلى بغداد في العام التالي (١٤٠١م) لينزل بها العقاب بسبب ثورة قامت فيها، وحل بغداد ما حل بدمشق.

ودارت الدائرة بعد بلاد الشام على آسيا الصغرى حيث كانت الدولة العثمانية، وترجع بداية هذه الأحداث إلى أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٩ - ١٤٠٢م كان قد استولى على أراضي بعض أمراء الأتراك السلجوقية، وقد لجأ هؤلاء إلى تيمور لنك لحمايتهم، وقد أرسل تيمور لنك في مطلع عام ١٤٠٢م إلى السلطان بايزيد يأمره بإعادة كل المدن والأراضي التي استولى عليها إلى أصحابها. وقد رفض السلطان بايزيد طلب تيمور لنك ورد عليه بإجابة قاسية، وكان ذلك يعني الحرب . وتقدم تيمور لنك إلى مدينة أنقرة، فوجد بالقرب منها جيش بايزيد وكانوا حوالي مائه وعشرين ألفاً، وفي صباح الثامن والعشرين من يوليو دارت معركة بين الطرفين تصدى لها من جانب الدولة العثمانية الجنود الصرب بقيادة ستيفان لازاروفيتش Stephan Lazarovic، ولكن بايزيد أمرهم بالانسحاب حتى لا تخاصلهم القوات المغولية، فتقدم المغول حتى بلغوا الصفوف التركية، فألقى الأتراك السلجوقية سلاحهم ورفضوا القتال ضد أمرائهم المغول السابقين، وثبت بايزيد في المعركة حتى المساء، ثم حاول الفرار تحت ظلام الليل، ولكنه وقع في الأسر هو وإبنه موسى وبعض القادة.

ولمزيد من السخرية والاهانة للسلطان بايزيد وضعه تيمور لنك في

قفص من حديد وطاف به البلاد، ثم ما لبث أن توفي بايزيد في الأسر في الثامن من مارس ١٤٠٢م فسمح تيمورلنك بدفنه في مدينة بروسه. وقد ترتب على غزو تيمورلنك للبلاد العثمانية، عودة الأمراء السلاجقة إلى إماراتهم، كما أبقى تيمورلنك إقليم تراقيه في أوروبا في يد ابن بايزيد تحت السيادة المغولية، وبعد أن نهب المغول جميع مدن آسيا الصغرى عادوا إلى بلادهم، ثم ما لبث أن مات تيمورلنك في التاسع عشر من فبراير عام ١٤٠٤م، وهو الشهر نفسه الذي مات فيه هولاكو عام ١٢٥٦.

ويعود موته استرد المماليك سوريا، وظهرت في أذربيجان أسرة الشاه السوداء التي أقامت دولة إمتدت من شرق آسيا الصغرى حتى بغداد. كما ظهرت انتفاضات قومية في بلاد فارس ظهرت على إثرها الدولة الصفوية، وظلت سلالة تيمورلنك تحكم في إقليم ما وراء النهر طوال القرن الخامس عشر، كما استطاعت سلالته إقامة دولة في الهند عرفت باسم إمبراطورية المغل في دلهي واستمرت لفترة طويلة.

### الطرق التجارية زمن المغول:

كانت التجارة قبل الفتوحات المغولية تمر عبر الطريق الذي كان يعرف باسم طريق الحرير، وكان هذا الطريق يبدأ من الصين ثم إلى التبت وإلى شمال بحر آرال، ثم إلى جنوب بحر قزوين فإلى طهران وبغداد ودمشق، ومنها إلى ثلاث شعوب هي الطريق إلى بيروت، والطريق إلى صور، والثالثة إلى انطاكية، ومن هذه المدن إلى موانئ البحر المتوسط في أوروبا وأفريقيا.

ولكن هذا الطريق قد تأثر في بداية فتوحات المغول، وبعد أن هدأت الاحوال وأصبح للمغول إمبراطورية واسعة، بدأ المغول في تشجيع التجار

على أن يرتادوا الطريق البري القديم القادم من الصين ويختار تركستان ثم إلى شمال بحر قزوين إلى موانئ البحر الأسود، أما الطريق الآخر فقد بدأ من الصين ثم إلى بلاد فارس ثم إلى سواحل البحر الأسود الجنوبي مثل طرابيزون أو إلى مدينة إيساس الواقعة في الجنوب الشرقي لآسيا الصغرى. وقد شجع التجار على إعادة استخدام مثل هذه الطرق، ما فرضه المغول من الأمان والنظام حتى أصبح الطريق البري أفضل من طريق البحر الطويل لموره بالهند، وما به من أخطار وكوارث طبيعية. كما ترتب على سيطرة المغول على بلاد العراق أن جانباً من تجارة الشرق الأقصى وصلت إلى بغداد عبر الخليج ومنها إلى دمشق أو حلب ثم المدن الساحلية الشامية التي كانت في أيدي الفرنج الصليبيين لبعض الوقت، ومنها إلى مدن البحر المتوسط مثل مدينة إيساس.

واشتد تنافس مدن البحر المتوسط مثل البندقية وجنوة ثم لحقت بهما بيزا. وقد سيطرت البندقية في أول الأمر على البحر الأسود بعدما ساعدت الصليبيين في إقتحام القسطنطينية عام ١٢٠٤م، ولما استعاد البيزنطيون عاصمتهم في عام ١٢٦١م بمساعدة الجنوبيين تراجع نفوذ البنادقة التجاري من البحر الأسود، واحتكرت جنوة تجارة الرقيق القادمة من سهوب روسيا إلى مصر والشام. أما البنادقة فقد تقربوا إلى الأرمن الذين تحالفوا مع المغول، وبذلك سمح للبنادقة أن يشاركوا في تجارة المغول القادمة إلى مدينة إيساس. وفي سواحل بلاد الشام حيث كان الصليبيون فقد سيطر البنادقة على التجارة في عكا، كما سيطرت جنوة على التجارة في مدينة صور وإن كانت أقل من تجارة عكا. وعندما تطورت مدينة إيساس بفضل التجارة المغولية ضعفت موانئ الساحل الشامي الصليبي. ورغم ما قام بين المغول والماليك من حروب بعد

سقوط الإمارات الصليبية فإن ذلك لم يعرقل مسيرة التجارة كثيراً، فتقدمت القوافل من بلاد فارس إلى العراق ثم إلى سواحل بلاد الشام، وطبقاً للقاعدة الاقتصادية بأن رأس المال جبان ، فمما لا شك فيه أن الحروب تؤثر بشكل أو بآخر على سير الحركة التجارية، وكما هو معروف أيضاً أن التجارة سارت وراء الصليب في العصور الوسطى ، فإن الصليب سار وراء التجارة مع الكشوف الجغرافية.

ومن العوامل التي ساعدت على سهولة العمليات التجارية داخل الامبراطورية المغولية قيام الخان الاعظم بانشاء دار لسلك النقود بالعملة الورقية ، والحقيقة أن النقود الورقية كانت مستخدمة في بلاد الصين ، وقد قام الخان الاعظم أوكيتاي في عام ١٢٣٤ م بتقليل ما كان سائداً في بلاد الصين ، وأن مقر دار سلك النقود هذه كان في مدينة كانبala . ولصناعة هذه العملة الورقية كان الخان يأمر بنزع لحاء اشجار التوت ، ثم تأخذ منها القشرة الداخلية الرقيقة التي تقع بين البابس وخشب الشجرة ، ثم تنقع هذه القشرة وتدق في هاون حتى تتحول إلى عجينة يصنع منها الورق الذي يماثل في مادته الورق التي يصنع من القطن .

وبعد ما يصبح الورق معداً للاستعمال يتم قطعه إلى أحجام مختلفة شبه مربعة ، وكان لكل حجم قيمه ثابته لعملة أخرى أجنبية . وتعطى هذه العملة الورقية شرعيتها ببعض الاشكال والرسوم ، ويتولى بعض الموظفين المختصين وضع اسمائهم واحتامهم على هذه العملة . فإذا صدرت هذه العملة على الطريق السابقة يتولى كبير الموظفين المفوض من الخان الاعظم بختتها بالخاتم الملكي الموجود في حيازته، وعلى هذه الصورة تكون العملة الورقية أصبحت معده للتداول .

وكان يعد تزوير هذه العملة جريمة عقوبتها الاعدام ، وعلى ذلك لا

يجروء إنسان على القيام ب مثل هذه العمل والا عرض حياته للموت ، وكان يسجل على كل عملة عبارة « كل من زور سوف تقطع رأسه » وكان يتم تداول هذه العملة داخل الامبراطورية وخارجها ويتقبلها الرعايا والاجانب دون تردد.

وكان المخان الاعظم يضع ثمن لكل سلعه واردة من الخارج ، فعندما تصل القوافل الضخمة يقوم المخان باستدعاء جماعه من ذوى الخبرة فيأمرهم بفحص السلع بكل عناء ، ثم يضعون ثمنا لكل سلعه ، ثم يسمح بهامش ربح معقول يضاف الى ثمن السلعه . ثم يدفع للتجار الثمن على الفور بالعمله الورقيه دون أى اعتراض من التجار ، واذا كان هؤلاء التجار من اقليم لا يتعامل بهذه العمله الورقيه ، فانهم يستثمرون المبلغ فى شراء سلع تجارية أخرى تناسب اسواقهم ، وعندما يتصادف أن يتلک شخصا نقودا ورقية بلیت من طوال الاستعمال ، فإنه يحملها الى دار سلك النقود فيسلمها ويحصل على أوراق جديدة بدلا منها بعد خصم ٣٪ من القيمه .

وإذا أراد أى فرد الحصول على الذهب أو الفضة بقصد تصنيعها كؤوسا للشراب أو أحزمه أو غير ذلك وجب عليه التقدم بطلبه الى دار سلك النقود ، حيث يحصل على ما يريد مقابل ما معه من عملة ورقية ، وكانت أعطيات الجندي تصرف بهذه العملة الورقيه أيضا التي تعد عندهم على نفس قيمة الذهب أو الفضة .

الفصل الثاني  
أوروبا من المفول

إنجلترا  
فرنسا  
ألمانيا  
البابوية



## الفصل الثاني أوروبا من المغول

### أولاً : إنجلترا :

وفي الوقت الذي ظهر فيه المغول على الساحة الآسيوية والأوروبية كانت أوروبا الغربية قد وصلت إلى مرحلة من الاستقرار النسبي مكتنثها من أن تكون لها مكانتها العالمية خاصة بعدما لعبت دوراً كبيراً في الحروب الصليبية، ومن الدول التي كانت لها قوتها السياسية والعسكرية إنجلترا وفرنسا وألمانيا، والدول الأسبانية والبرتغالية التي لعبت دوراً كبيراً في حركة الاسترداد في الأندلس، هذا فضلاً عن الباباوية التي مكتنثها سلطتها الروحية من فرض كلمتها لبعض الوقت على ملوك وحكام أوروبا. وفيما يتعلق بإنجلترا، فيمكن البدء بعهد الملك ريتشارد الأول قلب الأسد . وهناك ملاحظة هامة يجب الإشارة إليها قبل الخوض في تاريخ إنجلترا - وهي أن الجزيرة البريطانية تتكون من ثلاثة أقسام كبيرة هي إنجلترا وويلز واسكتلندا وهو ما يعرف اليوم باسم المملكة المتحدة إذا أضفنا إليها الجزء الأيرلندي. ولذلك فإنه عندما تتحدث في العصور الوسطى عن إنجلترا فإننا نقصد به على هذه الصفحات الأجزاء الجنوبيّة والشرقية من الجزيرة البريطانية ولا يدخل فيها ويلز أو اسكتلندا ، مع عدم الالتزام بالحدود الإدارية المعروفة الآن.

### ريتشارد الأول ١١٩٩-١٢٥٩ م

تولى ريتشارد الأول حكم إنجلترا بعد أبيه، ويعرف باسم ريتشارد قلب الأسد Richard I The Lion-Heart ، وقد ولد في إكسفورد عام ١١٥٧ م، وعاش أكثر عمره في مقاطعة أكيتين Aquitaine ليصرف شئون المقاطعة بدلاً من أمه إليانور Eleanor . وكان لتواجده في إقليم

إكوتين أثراً كبيراً على ثقافته، فلم يعد إنجليزياً، وتأثر بالثقافة الفرنسية الجنوبيّة خاصةً الشعر والغناء وحب المغامرات، وعندما تولى حكم إنجلترا اضطر للعمل بالسياسة وهو عنها بعيد.

وانشغل منذ توليه عرش إنجلترا بالإستعداد للقيام بحملة صليبية وهي الحملة المعروفة بالثالثة، وانضم فيها فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفريديريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا، ومن أجل هذه الحرب إضطر للمال ولم يكفيه ما تركه والده، ولكي يحصل على الأموال فصل عدداً كبيراً من موظفي الدولة ثم أعاد تعيينهم مقابل بعض الأموال، ومنح براءة قيام بعض المدن من أجل المال أيضاً، وحصل على مبلغ هزيل من أجل الاعتراف باستقلال إسكتلندا، وصادر بعض السفن التي كانت راسية على شواطئ إنجلترا لاستخدامها في نقل قواته إلى سواحل الشام.

وفي طريقه إلى الأراضي المقدسة عبر البحر المتوسط مع فيليب أوغسطس استولى على جزيرة قبرص عام ١١٩١ ثم باعها لفرسان الداوية Templers، ولما فشلت الصفقة مع الداوية باعها إلى جائ لوزيحيان Guy Lusignan المطالب بعرض مملكة بيت المقدس الصليبية، وحارب ريتشارد صلاح الدين، وفشل الملك الانجليزي في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، وعقد مع صلاح الدين صلح الرملة عام ١١٩٢م، وعاد إلى بلاده مقنعاً بأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة وأن الاستيلاء على بيت المقدس لا يتم إلا بعد ضرب القوى الإسلامية في مصر.

وبعدما أبحر ريتشارد من الساحل الشامي في التاسع من أكتوبر ١١٩٢م فاجأته عاصفة دفعت بسفينته إلى جزيرة كورفو Corfu البيزنطية، وخاف أن يأسره الإمبراطور البيزنطي إسحق إنجليوس Isaac Angelus (١١٨١ - ١١٩٥م)، فإستقل قارباً إلى البحر الأدرياتيكي

ومنه إلى مدينة أكويلايا Aquileia ، ثم أسرع ليصل إلى ألمانيا حيث يوجد زوج أخته ما تيلدا ، هنري الأسد ولكنه وقع في يد ليوبولد دوق النمسا Leopold of Austria فأسره ، لأن ريتشارد مزق أعلام ليوبولد في عكا ، كما إتهمه بقتل كونراد أوف مونتفرات Conrad of Monferrat ثم سلمه ليوبولد بعد ثلاثة أشهر إلى هنري السادس أميراطور ألمانيا .

ظل ريتشارد سجيناً لدى هنري رغم مخالفته ذلك لقوانين الحروب الصليبية ، وطالب هنري بالفدية لإطلاق سراحه ، وظل في الأسر حوالي سنه عجزت فيها إنجلترا عن جمع الفدية الالزمة لإطلاق سراح ريتشارد ، وفي هذه الأثناء حاول أخوه يوحنا إغتصاب العرش ، ولكن الأماليانورساند حقوق ريتشارد ففر يوحنا إلى فرنسا وإنضم إلى فيليب أوغسطس في الهجوم على إنجلترا ، ولما فشل فيليب في النيل من إنجلترا غزا نورماندي وراسل هنري السادس ليبقى على ريتشارد أسيراً .

وفي مارس ١١٩٤م أطلق سراح ريتشارد فعاد إلى إنجلترا ليستعد لمحاربة فيليب ، ونجح ريتشارد في استعادة أملاكه بعد حرب دامت خمس سنوات على أراضي القارة الأوروبية . وفي السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م مات ريتشارد في مدينة ليمزين Limousin بسهم انطلق من قلعة أحد الإقطاعيين الذين تصارع معهم ريتشارد .

### يوحنا ١١٩٩-١٢١٦م

تولى يوحنا بعد أخيه ريتشارد ، وعند تتوبيجه إضطره رئيس أساقفة كانتسيوري هيوبرت والتر Hubert Walter أن يقسم بأنه تولى عرشه بالانتخاب من قبل النبلاء ورجال الدين وليس وراءه من أخيه ، ويتبين من تاريخ يوحنا أنه لم يتلزم بهذا القسم ، وكانت حياة يوحنا عاصفة مع نبلائه

والباباوية وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، ورغم ذلك فإن سياساته لم تكن خاطئة على الدوام . وفي العام الذي تولى فيه يوحنا عرش إنجلترا طلق زوجته إيزابيلا إف جلوستر Isable of Gloucester بحجة أنها متزوجة من إنجولي . Isable of Angouleme بصلة القرابة وتزوج من إيزابيلا إف انجولي . وقد جرت عليه هذه الزيجة متاعب متعددة، لأن زوجته الثانية كانت مخطوبة إلى لوزجان Lusinan كونت لامارش La Marche . وقد غضب الأشراف في إنجلترا وفي بواتو Poitou لهذا العمل، كما احتج البارونات النورمانديون في أنجويون - واشتكى هؤلاء إلى فيليب أوغسطس بإعتبار أن نورماندي إقطاعية تابعة للتااج النفسي - وأن يوحنا بإعتباره مالكًا لإقليم نورماندي يعتبر تابعًا لملك فرنسا.

تجدد العداء القديم بين إنجلترا وفرنسا في هذه المرحلة ، ووجد فيليب في هذه القضية فرصة لإذلال يوحنا، وأرسل فيليب إلى يوحنا بإعتباره تابعًا له وأمره بالحضور إلى القصر الملكي في باريس ليدافع عن نفسه ، ومن الطبيعي ألا يحضر يوحنا وكان هذا متوقعاً، فانعقدت المحكمة الإقطاعية الفرنسية ومنحت آرثر Arther كونت بريتاني - وهو حفيد هنري الثاني - نورماندي، وأنجوا وبواتو ، وتشجع آرثر وطالب بعرش إنجلترا، وساعدته فيليب بماله والرجال لتحقيق ذلك.

تقدّم آرثر لهاجمة نورماندي وحاصر البانور والده يوحنا في قلعة ميرابو Mirabeau وقادت الملكة الأم القوات للدفاع عن حقوق ابنها، وأسرع يوحنا إليها وهزم آرثر وبعض عدوه وسجنه في قلعة فاليس Falaise ولم يسمع عن آرثر بعد ذلك، وبدو أن يوحنا أمر بقتله .

إنْتَهَزَ فيليب هذه الفرصة وتقدّم لغزو نورماندي وكان الموقف في صالحه، فقد كان يوحنا يفتقر إلى المال ووسائل الدفاع فهزمه فيليب وهرب

يوحنا إلى إنجلترا، وضم فيليب إلى فرنسا جميع الممتلكات الإنجليزية في القارة الأوروبية وهي نورماندي، ومين، وأنجتو، وتورين في عام ١٢٠٥ وأقسم إقطاعيوها بين الولايات للملك فيليب.

ولما كان البابا أنوست الثالث على خلاف مع فيليب أوغسطس فقد حاول مساعدة يوحنا قدر المستطاع، ولكن يوحنا لم يمن ببابا الفرصة لمساعدته، فقد اختلف الاثنان في العام نفسه بسبب الخلاف على تعيين رئيس أساقفة كانتربري. ويرجع هذا الخلاف إلى موت هيوبرت والتر عام ١٢٠٥، وكان الملك يوحنا يرى تعيين الأسقف يوحنا دي جرے Jhon de Gray، ولكن بعض الرهبان الشبان في كاتدرائية كانتريري اختاروا نائب رئيس ديرهم وهو ريجنالد Reginald.

اتجه المرشحان إلى روما يطلب كل منهما تأييد البابا أنوست الثالث، ولكن البابا اعترض على المرشحين وعين ستيفن لانجتون Stephen Langton وهو كاردینال إنجلترا وأستاذ سابق للاهوت في جامعة باريس. اعترض يوحنا على هذا الاجراء، ولم يعبأ البابا ونصب ستيفن لانجتون رئيساً لأساقفة كانتريري عام ١٢٠٧م، وتمكّن يوحنا بموقفه وهدد وتوعّد وأنذر الرهبان، وأصدر أوامره بعدم دخول ستيفن لانجتون الأراضي الإنجليزية وأعلن تحديه للبابا. رد البابا على هذا الاجراء بانزال قرار الحرمان على الملك وقرار القطع على إنجلترا في عام ١٢٠٨م وظل القراران حتى عام ١٢١٣م.

وخلال هذه المرحلة كان الملك يصادر أملاك الكنيسة، لذلك سانده النبلاء لأن إنشغال الملك بالصراع مع رجال الدين يشغله إلى حد ما عن الصراع مع النبلاء، ونجح يوحنا في هذه المرحلة في الانتصار عسكرياً في حروبه مع أيرلندا، واسكتلندا، وويلز. وقد شجع كل هذا يوحنا على

التمادي في سياسته المتشددة، فعندما إحتاج إلى المال زج باليهود في السجن وصادر أموالهم ولم يرحم رجال الدين من السجن أيضًا، وتركهم حتى ماتوا في سجنهم، كما زاد من الضرائب التي أرهقت الأهالى.

ولما يئس البابا أنوستن الثالث أصدر مرسوماً في عام ١٢١٢م بخلع الملك يوحنا من العرش الإنجليزي، وحل رجاله من القسم الذي أدوه له ، وأعلن أن الأملك الإنجليزية حقاً لكل من يتمكن من الاستيلاء عليها. وحانَت الفرصة للملك الفرنسي فيليب أوغسطس فإستعد لغزو إنجلترا. وعلم يوحنا بهذا الاستعداد فدعا رجاله للحرب، ولكن رجاله لم يمدوا له يد المساعدة خوفاً من عقوبات البابا. وأحس يوحنا بالخطر، وكان لابد من التراجع حتى يفوت الفرصة على الجميع فعقد اتفاقاً مع المعموت البابوي باندولف Pandulf . ويقضى هذا الإتفاق بأن يرد الملك يوحنا جميع أملك الكنيسة وأن يضع إنجلترا بأكملها تحت السيادة الباباوية الاقطاعية إذا ألغى البابا قرار الحرمان وقرار القطع. وإتفق الطرفان على ذلك وسلم يوحنا إنجلترا إلى البابا عام ١٢١٣م - ويعتبر هذا الإسلام الأول للملك يوحنا - ثم يستعادها بعد بضعة أيام بوصفها إقطاعاً، وعلى الملك أن يؤدي الجزية عن إنجلترا للباباوية.

وبعد أن سوى يوحنا مشكلته مع الباباوية واستعد لمحاربة فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وتحالف مع أوتو الرابع Otto IV إمبراطور المانيا ١٢٠٨ - ١٢١٥م، ولكن بارونات إنجلترا تخلفوا عن المشاركة في هذه الحرب، ورغم ذلك عبر يوحنا القناة الإنجليزية بما لديه من رجال ووصل إلى أنجو في الوقت الذي سار فيه أوتو إلى باريس، وفي يوليو عام ١٢١٤ هزم أوتو في موقعه بوفين Bouvines في إقليم فلاندرز، وترتب على هذه الهزيمة نتائج هامة جداً في تاريخ أوروبا خاصة في المانيا

وإنجلترا. ففي المانيا إهتز عرش أوتو وفتح المجال أمام فريديريك الثاني ليتولى عرش المانيا. أما في إنجلترا فقد اضطر يوحنا إلى عقد الهدنة بعد هزيمة المانيا وتخلى باروناته عنه. وبموجب هذا الصلح تنازل يوحنا عن إقليم بواتو. أما فرنسا فقد أصبحت القوة الوحيدة على القارة الأوروبية.

ولم يكن يوحنا جاداً في طلب الهدنة إنما عقدها لكسب الوقت، فلما عاد إلى إنجلترا بعد عقد الهدنة بدأ يعد جيشاً لمحاربة فيليب، ولكن الأشراف والنبلاء رفضوا مرة أخرى الانضمام إلى الجيش واعتراضوا على الضرائب التي يجمعها الملك للدخول في حروب لافائدة منها، وذكروا الملك أيضاً بسياسته الخاطئة التي أدت إلى تسليم إنجلترا للباباوية، ولم يكن لدى الملك وسيلة غير التفاوض.

عرض يوحنا على الأمراء أن يؤدوا مبلغاً من المال بدلاً من الخدمة العسكرية، ولكن الأمراء تجاهلوا هذا المطلب وطالبو الملك الإلتزام بالقوانين التي وضعها الملك هنري الأول والتي تحدد حقوق الأشراف وسلطات الملك. وماطل يوحنا في الرد، فظن الأمراء أنه يستعد لمحاربتهم فجمعوا قواتهم، وحتى يكسب الملك يوحنا تأييد البابا ورجال الدين أعلن بعض الامتيازات لرجال الدين، وأعلن أنه سيحمل الصليب ويقود حملة صلبيّة إلى الشرق لاستعادة بيت المقدس.

ولم يغير هذا مجرى الأحداث، فقد اجتمع في أبريل عام 1215 في مدينة براكلي Brackley خمسة من الإيرلات وأربعون من البارونات وقدموا قائمة بطلابهم للملك، وأرسل الملك إلى المجتمعين ولهم لامارش بالإضافة إلى ستيفن لانجتون بهدف إخضاعهم لسلطان الملك، ولكن المجتمعين رفضوا وأعلنوا في مايو من العام نفسه الحرب على الملك ونجحوا في غزو لندن عندما استمالوا مواطنيها، وطلب الملك من ستيفن لانجتون رئيس

أساقفه كانتربرى إنزال قرار الحرمان على المتمردين ولكن ستيفن رفض إصدار مثل هذا القرار.

تحرك يوحنا بقواته من إكسفورد إلى وندسور Windsor وتحرك البارونات من لندن وعقدوا اجتماعاً في رونيميد Runnymede من الثامن حتى الرابع عشر من يونيو 1215م، وتولى أمر الوساطة بين الملك والبارونات ستيفن لانجتون ووليم لامارش، وظلت المباحثات بين الطرفين، حتى إنتهت بالوثيقة المعروفة بالعهد الأعظم Magna Carta ، وهي الوثيقة التي صيغت عباراتها خلال عدة أيام، ووقعها الملك يوحنا في الخامس عشر من يونيو عام 1215م. ولعب ستيفن لانجتون ووليم لامارش دوراً كبيراً في صياغة بنودها. ويعتبر العهد الأعظم أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي بأكمله وبه إسلام يوحنا الاستسلام الثاني. والعهد الأعظم يتكون من إثنين وستين مادة بخلاف الدبياجة وقد ورد بها.

تحية من يوحنا المتوج ملكاً على إنجلترا بعنابة الله تعالى، وسيد إيرلندا، ودوق نورماندي وакوتيين وكوانت انجو، إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والإيرلات والبارونات .. وجميع رعاياه المخلصين ... وبإرادة الله ومن أجل خلاص جميع أرواحنا وأرواح خلفائنا ... وتلى ذلك البند الخاصة بالعهد الأعظم، ونكتفى في هذا الموضوع بإلقاء الضوء على بعض بنوده، فقد ورد في البند الأول أن تكون الكنيسة حرية لا يتعدى أحد على شيء من حقوقها وحرياتها، وفي البند الثاني «إننا نفتح جميع الأحرار في مملكتنا عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر جميع الحريات المدونة فيما بعد ». .

مادة ١٢ : لا يفرض بدل خدمة أو معونة ... إلا المجلس العام في المملكة.

مادة ١٤ : وهي مرحلة إنتقال حتى يتم تشكيل المجلس العام، وقد ورد بها، حتى يجتمع المجلس العام الذي يتولى تقدير المعونات وبدل الخدمات .. نأمر باستدعا ، كبار الأساقفه، والأساقفه ، ورؤساء الأديرة والإيرلات وكبار البارونات في البلاد وغيرهم من هم تحت رئاستنا بعقد إجتماع يحدد له موعداً ثابتاً دوريأ كل أربعين يوماً على الأقل، ويحدد مكانه أيضاً.

مادة ١٥ : لن نسمح من الآن فصاعداً لكاين من كان أن يأخذ معونة من رجالنا الأحرار إلا إذا كان ذلك بسبب الفداء، أو تنصيب الإبن الأكبر فارساً، أو زواج إبنته الكبرى لأول مرة، ويشترط أن تكون المعونة في مثل هذه الحالات معونة مقبولة.

ولما كانت الشكاوى تعرض من قبل على محكمة الملك، ولما كانت محكمة الملك تتبعه أينما كان، فقد ورد في المادة السابعة عشر ما نصه: «لن تعرض الشكاوى العادية على محكمتنا، بل ينظر فيها في مكان محدد ».

وفي المادة السادسة والثلاثين، ورد مبدأ في غاية الأهمية ويعتبر ثورة على النظم السائدة، وهو يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة.

وفي التاسعة والثلاثين، تقرر لا يقبض على أي رجل حر أو يسجن أو تنزع ملكيته أو يخرج عن حماية القانون أو ينفي، أو يؤذى بأى نوع من الایذاء، إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه المساوين له في المدينة، أو بمقتضى قانون البلاد.

وتعرضت المادة الحادية والأربعون لحرية التجارة، فقد نصت على تمنع جميع التجار بحق الدخول إلى إنجلترا والإقامة فيها والمرور بها برأ وبحراً سالمين مؤمنين للشراء والبيع، دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة.

وورد في المادة الستين، أن كل الحريات السالفة الذكر يجب أن يراعيها أهل إنجلترا كلهم سواء رجال الدين أم غيرهم.

وإذا إكتفينا في هذا الموضوع ببعض البنود الواردة في العهد الأعظم، إلا أنه يمكن القول أن هذا العهد كان أساس الحريات التي تمتلك بها إنجلترا ولا زال كذلك، وواقع الأمر أن العهد الأعظم جدير بهذه الشهرة. والحقيقة أن هناك بعض القصور في نصوص العهد الأعظم، ولكن علينا أن ننظر إليه في عصره وما كان هناك من أنظمة ولا نقارنه بما نحن فيه الآن، وإذا كان العهد الأعظم بدا وكأنه إنتصاراً للقطاع لا للديمقراطية، إلا أنه نص على الحقوق الأساسية وحماها وزاد عليها بعد ذلك ، وهو الذي بدل الملكية المستبدة، إلى ملكية دستورية مقيدة.

لقد وقع يوحنا العهد الأعظم وهو مرغم، دون أن يدرى إنه خلد إسمه في التاريخ بالنزول عن سلطاته الاستبدادية، وأنه الذي جعل من إنجلترا دولة تفخر بأنها أمّا للديمقراطية. وعز على يوحنا هذا التنازل وأنه يعتبر بالنسبة لعصره ضعيفاً لا قوياً، لذلك حاول إلغاء العهد الأعظم وسانده البابا في هذه المرحلة، فأعلن الملك والبابا أن العهد باطل، ورفض الامراء إطاعته أوامر الملك والبابا، فأصدر الأخير قرار الحرمان عليهم، ولكن ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربرى صانع هذا العهد رفض نشر قرار الحرمان.

تأزم الموقف بين البابا وستيفن لانجتون، وقام مبعوثو البابا في إنجلترا، بإذاعة قرار البابا ووقف ستيفن عن العمل، فاستنجد نبلاء إنجلترا بالملك فيليب أغسطس الذي كان على خلاف مع البابا في هذه المرحلة، وهب فيليب لمساعدة النبلاء خاصة أنه كان يرى أن ملك إنجلترا ليس إلا تابعاً له.

أرسل فيليب ابنه لويس لمساعدة النبلاء وليتولى في حالة نجاحه عرش

إنجلترا، ولما كان البابا لا يوافق على مثل هذا العمل فقد حذر على لسان مبعوثه الأمير لويس من الإبحار إلى إنجلترا، وفي الوقت نفسه قام يوحنا بضرب النبلاء في كل مكان واشتد في معاقتهم، ولكن مرض فجأة على أثر تناول كمية كبيرة من الدراق (الخوخ) ومات على أثر هذا المرض في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٢١٦م.

### هنري الثالث ١٢١٦ - ١٢٧٢ م

تغير الموقف تماماً بعد وفاة الملك يوحنا، فقد مال الأشراف إلى الملك المرتقب وإنفضوا من حول لويس وطالبوه بالعودة إلى فرنسا، وتوج هنري الثالث ابن الملك المتوفى ملكاً على إنجلترا (١٢١٦ - ١٢٧٢م)، ولما كان هنري الثالث في السادسة من عمره فقد وضع تحت وصاية وليم لامارش إيرل بمبروك Pembroke ، وقد قام هذا الوصي بإعادة إصدار العهد الأعظم باسم الملك الجديد فهدأت النفوس كلها وإلتقط الشعب الإنجليزي حول ملكه الجديد وسانده أيضاً مبعوثو البابا غالبية رجال الدين، وكما يقال لقد فضل الإنجليز ملكاً إنجليزياً طفلاً عن ملك فرنسي غريب.

مات وليم لامارش في عام ١٢١٩م بعد أن حكم إنجلترا حكماً فعلياً منذ تولية هنري الثالث وساعدته في هذه الفترة المبعوث البابوي، وتولى الوصاية على هنري المبعوث البابوي حتى عام ١٢٢١م حيث عاد إلى روما، وتولى بعد ذلك أسقف ونشستر Winchester بطرس دي روشييه Peter De Roches بورج Hubert de Burgh.

وفي عام ١٢٢٣م أعلن البابا هونوريس الثالث أن الملك هنري بلغ سن الرشد وعليه أن يحكم بمفرده، ولكن هنري لم يتخل عن مساعدة بطرس

حتى عام ١٢٢٧م عندما ذهب بطرس في الحملة الصليبية السادسة مع فريدريك الثاني.

وعلى أية حال فقد كان هنري الثالث على شاكله أسلافه، ففرض الضرائب التي أرهقت النبلاء وكادوا يشورون عليه، وسمح لرجال الدين بجمع العشور لمساعدة البابا في حروبه ضد الامبراطور فريدريك الثاني.

ورغم هذا كله فإن أهم شيء حدث في عصر هنري الثالث هو أن فترة قصور هنري الثالث ، أشعرت الوزراء بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم، فتعاونوا مع النبلاء ونجحوا في دفع الدولة إلى الأمام بطريقة أفضل بكثير من الأجيال السابقة عندما كانت السلطة في يد الملك، ومن تجاربهم في السلطة بدون تعرض الملك، وضعوا أساس الحكم الديمقراطي في إنجلترا وقد ظهرت نتائج هذه الممارسة على مر الزمن .

### إدوارد الأول ١٢٧٢ - ١٣٠٧ م

ولى حكم إنجلترا وهو في السابعة والثلاثين من العمر، وكان ملوكاً طموحاً قوياً للإدارة، على درجة وافرة من العلم، خبيراً في الفنون العسكرية، راغباً في العدالة والاصلاح، وكان لهذا كله أثراً بالغاً في تاريخ إنجلترا، وقد إدوارد حملة صليبية في عام ١٢٧١م وهو أمير ولكنه لم يوفق في حروبه ضد المسلمين في بلاد الشام، فحاول التحالف مع المغول لمحاربة الدولة المملوكية ولكنه لم يوفق أيضاً، فعاد إلى إنجلترا ليتولى عرشهما على أمل العودة مرة أخرى إلى بلاد الشام للتحالف مع المغول ومساعدة مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية وإمارتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين، ولكن ظروف إنجلترا الداخلية والخارجية لم تكن بهذه ذلك.

وكان من سياسة إدوارد العمل على تحقيق الوحدة بين إنجلترا وويلز واسكتلندا ليقيم دولة قوية متراقبة، والواقع أن الصراع بين إنجلترا وويلز يرجع إلى عهد الملك الإنجليزي وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧ م)، فقد طالب وليم بخضوع ويلز لسلطانه بعد أن غزا إنجلترا باعتبارها جزء من مملكة هارولد Harold المهزوم، ولكن مشاكل وليم الداخلية والخارجية لم تكنه من تنفيذ ذلك سياسياً أو عسكرياً، واستعراض عن ذلك بأن أقام على حدود ويلز الشرقية ثلاث مقاطعات، تولى كل منها حاكم بلقب إيرل Earl، وطالب هؤلاء الحكم بالتوسيع في أراضي ويلز. وإلى جانب هذه المشاكل الشرقية واجه أهل ويلز أيضاً غارات القراصنة النورمان البحري.

ورغم هذا كله فقد نجح أهل ويلز في هزيمة الانجليز عند كورون Corwen عام ١١٦٥ م ولما كان هنري الثاني ملك إنجلترا مشغولاً بالصراع مع توماس بكت، فقد اعترف باستقلال الجزء الجنوبي من ويلز تحت حكم رويس آب جروفيد Rhys ap Gruffydd البطل الشائر في جنوب ويلز، وتمكن ليولن الأكبر LLyeuelyn The Great في بسط نفوذه على ويلز بفضل مقدراته العظيمة في الحرب والسياسة، ولكن أولاده تنازعوا فيما بينهم فعمت الفوضى أنحاء ويلز، ولكن حفيده ليولن آب جروفيد تمكن من السيطرة على الموقف داخل ويلز ورد إلى البلاد وحدتها وعقد الصلح مع هنري الثاني ملك إنجلترا واتخذ لنفسه لقب أمير ويلز.

ولما كان إدوارد هنري قد عقد العزم على غزو ويلز فلم يكن ما حدد من صلح إلا كسباً للوقت، فإيستعد بقواته البرية في عام ١٢٨٢ م وتقدم إلى ويلز حيث التقى ليولن الذي لم يكن لديه إلا قوات محدودة فقتل ليولن، كما تم القبض على أخيه داود، وثم فصل رأسيهما عن جسديهما وعلقت الرأسان في برج لندن، وفي عام ١٢٨٤ م أصبحت ويلز جزء من

إنجلترا، وفي عام ١٣٠١ خلع إدوارد لقب أمير ويلز على ولد عهد إنجلترا.

وأخذت تشريعات الملك الإنجليزي إدوارد الأول مكانة عظيمة في تاريخ إنجلترا والقاربة الأوروبية كلها، فقد وجد الملك أن الكنيسة تمتلك حوالي ثلث الأراضي في البلاد. وهي أراضي معفاة من الضرائب، وبدأ بإصدار مرسوماً في ١٢٧٩ م يمنع بموجبه التنازل للكنيسة عن الأراضي سواءً أكانت منحًا أم هدايا حتى لا تتضخم ثروات الكنيسة أكثر من ذلك. وإلى جانب ذلك فقد أجاز الملك إنتقال الأرض من مالك لآخر عن طريق البيع والشراء بعد أن كان الاقطاع هو السبيل الوحيد لحيازة الأرض، هذا بالإضافة إلى تشريعات تتعلق بالأوقاف ومعاملة اليهود، كما أنه درب جميع الإنجليز على حمل السلاح، واعداد تنظيم قواته العسكرية.

والحقيقة أن ذلك كله لم يكن سبباً في تمجيد عهد إدوارد، فإن نمو البرلمان الذي بدأ في عام ١٢٩٠ م باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور هذا البرلمان إلى البرلمان النموذجي الذي عقد في عام ١٢٩٥ م بحضور البارونات والإيرلات والفرسان ونواب عن رؤساء الأساقفة والأساقفة العامة، وهو الذي خلد عهد الملك إدوارد.

فقد قرر هذا البرلمان عدم فرض ضرائب إلا بموافقتهم ، ووضع مبدأ في غاية الأهمية وهو أن ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا عليه جميعاً، كما قرر البرلمان أيضاً أن الأخطار التي تواجه الدولة يجب أن تعالج بطرق يتفق عليها الناس جميعاً، وبالإضافة إلى ذلك تحسنت طرق الإجراءات القانونية والتحقيق القضائي، وحدد اختصاص مجالس القضاء الكنسي بقانون صدر في عام ١٢٨٥ م، وفي نهاية عهده كان هناك ثلاث محاكم

أخرى، الأولى تختص بالشئون المالية، والثانية للدعوى المدنية العامة، والثالثة وهي التي تفصل في جميع القضايا المدنية والجنائية التي تخص الملك الانجليزي. هذا بالإضافة إلى بعض التشريعات التجارية وصدر قانون التجار في عام ١٢٨٣م، وعهد التجار في عام ١٣٠٢م، وعندما مات ادوارد في عام ١٣٠٧م كانت إنجلترا تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل.

### إدوارد الثاني (١٣٢٧ - ١٣٥٧م)

خلف والده في حكم إنجلترا ولم يكن على مستوى أبيه في الحكم والإدارة، فقد كان ضعيفاً محباً لرفقة رجال السوء حتى أصبح أعمدة في يد نديمه، وضاق أعضاء البرلمان بتصرفاته فقبضوا على صديقه ونديمه جاueston إيرل كورنول Cornwall وقتلوه في عام ١٣١٠م، وفي الوقت نفسه بدأ التعاون بين ايرلندا واسكتلندا في حوالي عام ١٣١٥م طرد إنجلترا من ايرلندا.

ويرجع هذا التعاون إلى أن روبرت بروس Robert Bruce الأسكتلندي وقد هزم الانجليز عام ١٣١٤م عند بانوكبرن Bannockburn، كما نجح أخوه إدوارد بروس في الرسو على أرض ايرلندا ومعه حوالي ستة آلاف مقاتل، ولم تنزعج إنجلترا وحدها لهذا الحدث بل انزعج البابا يوحنا الثاني والعشرين وأصدر قراراً يقضي بحرمان كل من يساعد إسكتلندا من رحمة الكنيسة، ولكن أهل ايرلندا لم يعبأوا بذلك هذا القرار وساندوا القوات الاسكتلندية وتوجوا إدوارد بروس ملكاً على ايرلندا في عام ١٣١٦م، ولكنه هزم وقتل في عام ١٣١٨م، وفشلت محاولة انفصال ايرلندا عن التاج الانجليزي، وهكذا فقدت ايرلندا حريتها ولكنها ظلت ايرلندية الطابع

### إدوارد الثالث ١٣٢٧ - ١٣٧٧ م

إختلف كثيراً عن والده وريبا شابه جده إدوارد الأول، ولعل طول مدة حكمه قد ساعدته على إنجاز العديد من المشروعات سواء على المستوى الداخلي أم الخارجي، وعلى المستوى الداخلي فقد تم تحويل كثير من الأراضي الانجليزية إلى أراضي زراعية وذلك بفضل جماعة السترشيان. هذا بالإضافة إلى الاهتمام بصناعة غزل الصوف التي إشتهرت بها إنجلترا وأصبحت من أهم مصادر الثروة في البلاد ، ورغم هذا فقد كان للوباء الأسود الذي إجتاح أوروبا عام ١٣٤٩ م أثره السيء على إنجلترا حيث إرتفعت الأسعار ارتفاعاً كبيراً.

وعلى المستوى الخارجي فقد شهد عهد إدوارد الثالث بداية الحرب التي عرفت باسم حرب المائة عام ١٣٣٧ - ١٤٥٣ م وهي الحرب التي دارت بين إنجلترا وفرنسا بسبب أملاك إنجلترا في القارة الأوروبية، والمهم في هذا المقام أنه لم يتبق لإنجلترا عند نهاية حكم إدوارد سوى بعض المواني مثل كاليه Calais وبرست Brest وبايون Bayonne وبوردو Bordeaux ، وما لا شك فيه أن هذه الحروب قد أثرت كثيراً على الأحوال الداخلية للبلاد الانجليزية، فقد أدى طول الحرب إلى عدم إنتظام التجارة بين إنجلترا وأوروبا خاصة مع إقليم فلاندرز الذي كان يستورد معظم الصوف الانجليزي لتصنيعه، وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثير من الصناع من فلاندرز إلى إنجلترا واقامة مراكز لصناعة الصوف بالقرب من مراكز انتاج المواد الخام.

وعلى المستوى الخارجي أيضاً ساءت العلاقة بين إنجلترا والباباوية في روما بسبب إقامة الباباوية في افينيون وهو ما يُعرف باسم الأسر الباباوية، وترتبط على ذلك أن البرلمان الانجليزي أنكر في عام ١٣٥١ م

شرعية تعيين البابا لكتاب رجال الكنيسة في إنجلترا. كما أصدر البرلمان أيضاً في عام ١٣٥٣ م تشريعاً يقضى بعدم إستئناف القضايا أمام المحاكم الأجنبية، ومنها المحاكم البابوية، وبذلك حرمت البابوية من الموارد المالية التي تؤول إليها من هذا الجانب. كما رفض البرلمان دفع الجزية التي تعهد بدفعها الملك يوحنا بعدهما إستسلام للبابوية في عام ١٢١٣ م، وعلى المستوى الخارجي والداخلي، فقد ظهرت في إنجلترا حركة الإصلاح الديني التي نادى بها جون ويلفيس John Wyclif ( ١٣٢٤ - ١٣٨٤ م )، وقد نادى ويلفيس بحق الدولة في مصادرة أملاك الفاسدين من رجال الدين، وعدم التقيد بالأوامر الباباوية، واعتبار الانجليز هو المرجع الوحيد للمسحيين، ولما كانت مثل هذه الآراء تعتبر هرطقة في نظر معظم المعاصرين له، فقد أدت إلى الكثير من المشاكل في داخل إنجلترا وخارجها.

وليس لنا في هذا المجال أن نقتبس تاريخ إنجلترا حتى نهاية العصور الوسطى أو حتى قيام أسرة شهودور في عام ١٤٨٥ م، ولكن نكتفى على الصفحات بالقول أنه رغم المشاكل الداخلية والخارجية التي عاشتها إنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلا أنها حازت الكثير من التقدم في المجال الحضاري، ومن ذلك التقدم في صناعة الصوف، وظهور الطباعة في عام ١٤٧٤ م هذا بالإضافة إلى إنشاء المدارس وقيام الجامعات مثل جامعة كمبرidge، والحركة الناشطة في بناء الكاتدرائيات وغيرها من المباني الدينية كالكنائس والأديرة وفقاً للنظام القوطي الذي حل محل النظام الرومانسي. كما ظهرت اللغة الإنجليزية وحل محل لغة اللاتينية، وقد يستخدم جوفري تشوسير Geoffrey Chaucer ( ١٣٤٠ - ١٤٠٠ م ) اللغة الإنجليزية في كتابه قصص كانطريوري ومهد لنهضة

أدبية في القرن السادس عشر حيث ظهر وليم شكسبير ١٥٦٤ - ١٦١٦  
الشاعر الانجليزي الذي يعتبر من أعظم شعراء إنجلترا الذي وضع  
العديد من المسرحيات الشعرية الخالدة.

### ثانياً : فرنسا :

وحيث أن محور هذا الكتاب هو أوريا والمغول، وقد بدأنا الكتابة عن إنجلترا بعهد الملك ريتشارد قلب الأسد لأن بداية حكمه تزامن تقريباً مع ظهور المغول في الشرق، وهنا في فرنسا يتزامن مع حكم الملك فيليب مع هذه المرحلة.

### فيليب الثاني أوغسطس : (١٢٢٣ - ١١٨٠ م)

كان ملكاً ذكياً عمل على تشجيع العلوم، كما إتصف أيضاً بالحزم والشجاعة والحدار والدهاء، ولم يتردد عن سلوك أي سبيل يوصله إلى غايته. ومن حذره أنه كان كريماً مع الكنيسة ولكنه لم يسمح لرجال الدين أو الباباوية بأن تتدخل في شئون دولته السياسية، ولعل في هذه الصفات ما جعله يحصل على ما يريد دون استعمال القوة العسكرية. وواقع الأمر، كانت فرنسا في أشد الحاجة إلى مثل هذه الشخصية لتقف أمام إنجلترا وفيها هنري الثاني ، وريتشارد قلب الأسد، ويونا، وأمام المانيا حيث حكم فريدرick باريروسا وهنري السادس.

نجح فيليب في عام ١٢٠٤ في فتح أقليم نورمانديا واسترداده من التاج الانجليزي ، وتقوى فيليب بهذا النصر واستطاع أن يضم بريطانيا، وأنجيو، ومين، وتورين، ويواتو إلى أملاك التاج الفرنسي، ومع قوة الملكية بالحصول على هذه الأراضي استطاعت السيطرة على الحكومة المحلية وتقلصت سلطة الأدواق والكونتات، وأشرفت الدولة على جميع الأقاليم.

لم تُسلم إنجلترا بضياع نورمانديا، فتحالف يوحنا ملك إنجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦م) مع أتو الرابع أمبراطورmania ومع كونت فلاندرز للوقف في وجه التوسيع الفرنسي، ووضعت الخطط العسكرية للقضاء على فيليب في ضربة واحدة، ووقف فيليب وحدة في الميدان ليواجه كل هذه القوى مجتمعه، ولم يوزع قواته على جبهات القتال بل نازل بها مجتمعه القوات الانجليزية في معركة بوفين Bouvines عام ١٢١٤م، وهزم فيليب يوحنا وترتب على هذه الهزيمة نتائج بالغة الأهمية كان لها أثرها السياسي على قارة أوروبا بأكملها، ومن هذه النتائج خلع أتو من عرش الامبراطورية الألمانية وتولية فريدرick الثاني، وإنها زعامة ألمانيا على القارة الأوروبية، كما خضع كونت فلاندرز لملك فرنسا، أما في إنجلترا فقد كان من نتيجة هذه الهزيمة ترد النبلاء الانجليز على الملك ومحاربته وهزيمته وإجباره على توقيع العهد الأعظم بعد عام من الهزيمة ١٢١٥م، ولا شك أن موقف الملكية في فرنسا قد زاد قوة على ما تبقى من نفوذ الانقطاعيين.

وفي مجال السياسة الداخلية فقد حكم فيليب بلاده بمنتهى الأخلاص رغم صراعه لبعض الوقت مع الكنيسة بسبب زواجه من أجنس أوف ميران Agens of Meran وطلاقه لزوجته الثانية انجبورج Ingeborg، وتعرض فيليب لقرار الحرمان من الكنيسة ولكن لم يعبأ بهذا القرار . وأعاد فيليب تنظيم دولته فاستبعد رجال الدين من البلاط وحل محلهم رجال القانون ، وشجع التجارة بمنح الامتيازات وحماية التجار ومنح عدداً من المدن عهداً بالحكم الذاتي، واستبدل بالخدمات الانقطاعية التي أصبح في غنى عنها البدلات العسكرية، واهتم بالعمارة فتم في عهده بناء حصن اللوفر ليحمي نهر السين . وأتم واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame.

ولإرضاء الباباوية والرأي العام الأوروبي ولكن لا يظهر بهظير المخالف عن حماية الأراضي المقدسة خرج مع الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد وفريدرick باريروسا لمحاربة صلاح الدين، وعاد فيليب من الشام فاشلاً قبل أن تستكمل الحملة أعمالها - وعلى أية حال فقد مات فيليب عام ١٢٢٣م بعد أن أقام دولة فرنسا القوية.

#### لويس الثامن ١٢٢٦ - ١٢٢٣م :

تولى الحكم بعد أبيه، وقد شارك لويس في كثير من الاعمال في حياة أبيه، ومن ذلك انه قاد الجيش الفرنسي ضد إنجلترا عندما إستنجد بارونات إنجلترا بالملك فيليب أوغسطس بعد محاولة تنصل الملك الإنجليزي يوحنا من بنود العهد الاعظم، كما تولى لويس أيضاً قيادة القوات الفرنسية في الحملة الالبيجنسية ضد الهراطقة في جنوب فرنسا، وهي المشكلة التي ورثها من أبيه، وأكمل لويس سياسة أبيه في تقوية السلطة المركزية والقضاء على الهراطقة الذين سيطروا على جانب من جنوب فرنسا. وفي السنة الأخيرة من حكمه ١٢٢٦م توجهت القوات الفرنسية إلى جنوب فرنسا لضرب الهراطقة وسانده في عمله هذا الباب هونوريوس الثالث، ولم يستطع عموري دي مونتفورت Amoury De Montfort ابن سيمون دي مونتفورت قائد الحركة الالبيجنسية مواجهة القوات الفرنسية فأقر سيادة لويس الثامن على أراضي الجنوب، وكان لويس قد تزوج من بلانش القشتالية Blanche of Castile وأنجب منها إبنا هو لويس المعروف بإسم القديس لويس أو لويس التاسع .

#### لويس التاسع ١٢٧٠ - ١٢٢٦م :

حكم لويس فترة طويلة، ويرجع ذلك إلى توليه الحكم قاصراً في الثانية عشر من عمره فتحولت أمه الأرملة الشابه بلانش الوصاية عليه ورغم

جمالها وفتنتها لم تفك في الزواج وصانت ما يجري في عروقها من دم ملكي. فهى ابنة الملك الفونسو التاسع Alfons IV ملك قشتالة ١١٥٨ - ١٢١٤ م، وزوجة ملك هو لويس الثامن وأم ملك هو لويس التاسع . وحفيده ملك هو هنرى الثاني ملك إنجلترا، ويبدو أن هذا الرصيد الهائل من الملكية دفعها إلى سلوك طيب حيال فرنسا وعوضت ما شاب جدتها اليانور زوجة هنرى من سلوك معيب.

وعلى أية حال تفرغت بلاش لتربيتها إبنتها لويس تربية فاضلة حتى حكم لويس بنفسه منذ عام ١٢٣٥ م، وخلال فترة حكمها نجحت في السياسة الداخلية والخارجية، ففي المجال الداخلي قامت بأعمال إجتماعية عظيمة، فقد أعتقدت الكثير من أرقاء الأرض، وجهزت العديد من البناء الفقيرات للزواج، وتغلبت على البارونات الذين حاولوا إعادة حقوقهم القديمة. أما في المجال الخارجي فقد عملت على حقن الدماء عندما إشتد الصراع بين فرنسا وإنجلترا وفضلت الصلح بشروط مشرفة.

وعندما تسلم لويس التاسع مقاليد الحكم لم يبتعد عن السياسة التي رسمتها والدته، ففي مجال السياسة الداخلية عامل النبلاء معاملة طيبة مقابل وفائهم بما عليهم من الإلتزامات لرجالهم وللدولة، وشدد العقاب على المخالفين ، وأدخل العديد من القوانين التي تحرم الشأر وقتل العبيد والاتباع دون محاكمة، وأوجب المحاكمة بالأدلة والشهود محل المبارزة، وزاد من عدد المحاكم الملكية وتقلصت محاكم البارونات، ولكي يتتأكد لويس من حسن سير القضاء قرر حق إستئناف أحكام المحاكم البارونات أمام محكمة الملك المركزية، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لكل شاك الحق في مقابلة الملك ليعرض عليه مظلمته في القصر الملكي أو في أي مكان، وسجل المؤرخ الفرنسي جوانفيلي Joinville المعاصر للملك

لويس، أن الملك كثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ويجلس تحت أحد الاشجار في غابة فنسن Vincenne وحوله رجاله، فيتقدم إليه كل مظلوم ويشرح له قضيته دون مراسم رسمية، وقد يفصل الملك في القضية في حينه، أو يحيلها إلى أحد رجاله الجالسين حوله إذا كان الأمر يحتاج إلى دراسة.

وخلاصة القول إن فرنسا نعمت بربخاء لم تعرفه منذ قرون، وأمن طالما إشتاقت الناس إليه فأنتجوا وزادت ثروة فرنسا بدرجة كبيرة، وفيما يتعلق بالملك لويس وعلاقته برجال الدين، فقد عاملهم على أنهم يشرّعون عيوب البشر كثيرة، ولم يجد لويس من علاج سوى القدرة الحسنة، فكان لهم مثالاً، ولم يتورع عن معاقبة المخالفين، وحاكمهم أمام المحاكم الملكية بعد أن قيد سلطة المحاكم الكنيسة، وظل القانون بظله جميع المواطنين، ورغم علاقة لويس الطيبة مع الباباوية إلا أنه أصدر في عام ١٢٦٨ قانوناً قيد به حق البابا في تعيين رجال الدين في فرنسا.

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد سار لويس على المفهوم نفسه الذي سار عليه في علاقته بباروناته ورعايتها، فقد كان يرى أنه بوسع الحكومة أن تسلك سلوكاً طيباً مع جيرانها مع الحفاظ على كرامتها، فعمل على تجنب الحرب بقدر الإمكان رغم ما كان له من جيش منظم مدرب. ومن ذلك أن لويس رد إلى إنجلترا وإسبانيا أراضي إستولى عليها أسلافه دون وجه حق، حتى أن لويس لم يدخل في حرب منذ عام ١٢٤٣ حتى وفاته ١٢٧٠م باستثناء الحروب الصليبية، وهي الحروب التي كانت عملاً مقدساً من وجهة نظر الغرب الأوروبي.

وكثيراً ما تدخل لويس بين دولتين للتفصيق بينهما، وهي سياسة مخالفة تماماً للعصر الذي عاش فيه، فقد كان المأثور إثارة النزاع بين الأطراف، وأن تشتعل الحرب بينهم والمنتصر في الحرب ضعيف، وإذا كان

لويس قد نجح داخل فرنسا في الساحة الأوربية التي عرف فيها باسم القديس لويس، وأصبح المحارب والسياسي البارع والتقي الورع الذي حكمه الملوك بينهم، فإنه قد فشل في حملاته الصليبية، فقد قام لويس بحملته الأولى المعروفة بالحملة السابعة عام ١٢٤٨م، واتجه إلى مصر ورسا عند مدينة دمياط واستولى عليها، وحقق نجاحاً في أول الحملة حتى وصل إلى مدينة المنصورة، ولكن الدائرة دارت على قواته وهزم وأسر عام ١٢٥٠م. وعندما إفتدى نفسه بالمال أبحر إلى الشام ليقوم بحملة أخرى ليعوض فشله في مصر ولكنه فشل في الشام مثلما فشل في مصر، فعاد إلى بلاده مهزوماً ذليلاً، وحاول لويس أن يعوض فشله في الحملتين السابقتين، فإستعد في عام ١٢٧٠م بحملة أخرى كانت وجهتها تونس هذه المرة، ولما كان لويس مريضاً فقد مات بعد ما وصل إلى تونس، ولم يعد هذه المرة مهزوماً بل عاد جثماناً ليكرمه الفرنسيون لما قدمه من أعمال عظيمه وأدخلوه في عداد القديسين، وظلت ذكراه عالقه بالأذهان بإعتبار أن عصره كان من العصور الذهبية التي عاشاتها فرنسا . وكان للملك لويس جولات مع المغول فقد استقبل وأرسل السفارات إليهم وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب .

### فيليب الثالث ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م :

ورث فيليب الثالث دولة فرنسا القوية بفضل أعمال أسلافه، ولم يكن فيليب حاكماً قوياً مثلهم ولكن الأنظمة التي ورثها ساعدته كثيراً، فلم تظهر عدم كفايته بقدر كبير. وقد لعب القدر دوراً كبيراً في حياة فيليب، فقد نجح في ضم بعض الأقاليم إلى فرنسا دون إراقة دماء، وترتب على ذلك القضاء على جانب كبير من نظام الملكية الإقطاعية في فرنسا وظهور الملكية المركزية.

ومن ذلك أن الفونسو أمير بواتيه أبحر وزوجته مع لويس التاسع إلى تونس في الحملة الصليبية، ولكنه مات هناك، وباعتبار فيليب ملكاً على فرنسا فقد آلت إليه أملاكهما الواسعة في إقليم تولوز وبروفانس وبواتيه.

### فيليب الرابع ١٢٨٥ - ١٣١٤ :

عرف باسم «الجميل» لجمال وجهه، وقد سار على النهج نفسه الذي سار عليه أسلافه من تقوية السلطة الملكية وإخضاع كافة الطبقات من رجال الدين والأسراف وال العامة لحكم القانون. وفي المجال الاقتصادي شجع الصناعة والتجارة حتى لا يعتمد اقتصاد فرنسا على الزراعة فقط، ولتنفيذ هذه الأفكار اعتمد على رجال القانون الشبان فكانوا أعيانه ومستشاريه، ولعل ما دفع فيليب إلى ذلك، ما ورثه في فرنسا القوية بجهد أسلافه بفضل الحروب الصليبية التي لعبت فيها فرنسا دوراً كبيراً عاد عليها برفعه أدبية وروحية، هذا بالإضافة إلى عدم الاستقرار في إنجلترا بسبب الصراع بين الملوك والبارونات، وفي ألمانيا المفتكه نتيجة الصراع بين الأباطرة والباباوات.

وسوف نتناول في هذا العهد - وهو عهد فيليب الرابع - أربع نقاط رئيسية الأولى وهي السياسة الخارجية للدولة مع دول أوروبا خاصة إنجلترا، والثانية وهي علاقة فيليب بالباباوية والثالثة وهي الأحوال الداخلية لفرنسا في عهده، والرابعة والأخيرة وهي الجوانب الإدارية والتشريعية. وفيما يختص بالسياسة الخارجية فقد كانت سياسته ترمي إلى توحيد فرنسا الجغرافية لتكون فرنسا بحدودها السياسية، ومعنى ذلك طرد الانجليز من الأراضي التي يسيطرون عليها، وبلغ هذه الخطوة تحقيق زعامة فرنسا على كل أنحاء أوروبا، وقد ساعد في ذلك مجموعة من المستشارين الذين هبوا له هذه الأفكار خاصة أن عهده عاصر نهاية الحروب الصليبية العسكرية في بلاد الشام، وبدأت أوروبا تفكر في طريقة

أو أخرى لاستعادة الممتلكات الصليبية سواء بالطرق العسكرية أو غيرها.

ومن أجل تنفيذ ذلك أعلن فيليب عند توليه عرش فرنسا أن حدود بلاده السياسية هي نهر الراين في الشرق أي الحدود الألمانية، وأن حدودها في الجنوب هي جبال الألب، وحدودها الجنوبية هي جبال البرانس، ومعنى ذلك أنه أغفل ذكر أي ممتلكات إنجلترا في فرنسا، وهذا يعني أن هناك صداماً عسكرياً سوف يقع بين إنجلترا وفرنسا.

وبدأ فيليب تنفيذ خطته بزواج سياسي، فقد تزوج من حاكم إقليم شامبانى، وأخذ يخطط للسيطرة على جوين Guienne وجاسكوني Gascogne وكلاهما يقع في أقصى الجنوب الغربى لفرنسا بالقرب من الحدود الأسبانية، وكانتا تابعتين لإنجلترا مع الاعتراف بالتبعية إلى الملك الفرنسي . كما تطلع فيليب أيضاً لإقليم الفلاندرز الذى يقع في أقصى شمال فرنسا وتفصل القناة الانجليزية بينه وبين إنجلترا . وترجع أهمية هذا الإقليم إلى مراكز الصوف الصناعية وما يتبع ذلك من أعمال تجارية مع أوروبا خاصة مع إنجلترا التي تصدر إليه الصوف الخام، حيث يتم صنعه وبيعه ولا يخضع للضريبة المقررة على الصادرات من الصوف، ومن هنا كان التنافس بين إنجلترا وفرنسا على هذا الإقليم.

يضاف إلى ذلك التنافس بين إنجلترا وفرنسا على الثروة السمكية في بحر المانش وهو أمر أدى إلى الصدام بين الصيادين من الانجليز والفرنسيين، ثم إلى الصدام بين ملكي إنجلترا وفرنسا، وكانت الشرارة التي بدأ بها الصدام قيام بعض صيادي السمك بمقاطعة جاكوسوني الانجليزية بالاعتداء على بعض صيادي السمك الفرنسيين، فأصدرت المحاكم الفرنسية أحكاماً ضد صيادي جاسكوني الذين لم ينصاعوا لهذه الأحكام.

وكان على فيليب الرابع أن يتدخل حفاظاً على كرامة أحکام محاکمة، وأستغل المتابع التي تمر بها إنجلترا داخلیاً. واستدعاى ملك إنجلترا لاستجوابه، باعتباره فصلاً من أفضاله، أي إقطاعیاً تابعاً له، وعليه الالتزام بالواجبات الإقطاعية، والواقع ان هذا الواجب الإقطاعي يعود إلى أن ولیم الفاتح أول حاکم نورمانی لإنجلترا كان أصلًا حاکماً لمقاطعة نومانديا الفرنسية، وبالتالي فهو تابع لملك فرنسا وقسکت فرنسا بهذا الحق لفترات طویلة.

وعلى أية حال ورغم ما في الاستدعاى من شبه إهانة لملك إنجلترا إدوارد الأول، إلا أنه وعد بالحضور في وقت لاحق نظراً لشاكله مع أسكتلندا وايرلندا، وحتى يظهر حسن النوايا سلم بعض القلاع الانجليزية الموجودة في فرنسا إلى الملك الفرنسي كرهينة كوعد بالحضور، وحتى يهدأ الموقف، ولا يدفع ملك فرنسا للحصول على مساندة أسكتلندا أو ايرلندا، أرسل إدوارد أخيه الأكبر أدمند إيرل لانکستر Edmund Earl of Lancaster إلى باريس. ولما كان الملك فيليب يرغب في غير ذلك وهو العمل على ضم الأراضي الانجليزية التي تقع في الأراضي الفرنسية، فقد رفض هذا التصرف وتمسک بالقلاء التي وضعتها إنجلترا كرهينة لملك فرنسا، ومن هنا تصاعد الموقف وأعلن الملك الانجليزي إدوارد تحalle من التبعية الإقطاعية لملك فرنسا، وبدأ يعمل على التحالف مع بعض الأمراء في ألمانيا استعداداً للحرب مع فرنسا.

لم يقف فيليب مكتوف الأيدي وبدأ العمل للتحالف مع إسكتلندا ومساندتها ضد ملك إنجلترا الذي يعمل على ضمها للنایج الانجليزي، وتصاعد الموقف وهاجم فيليب منطقة جوين، كما هاجم إقليم فلاندرز لتعاطف حاکمه مع ملك إنجلترا، وهنا تأثرت المصالح التجارية كثيراً من

جراً هذه الأحداث، كما تأثرت فرنسا كذلك. وعند هذه المرحلة إتفق الملكان في عام ١٢٩٨ على الصلح، وفضلاً كلاً منها ما عقده من تحالف من أجل الحرب، بعد تدخل البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م).

وثارت المتابعة ضد ملك فرنسا عندما رفض أهالي فلاندرز الخضوع للملك الفرنسي لأن في ذلك ضرر كبير على صناعة الصوف وعلى اقتصاد البلاد، وتصدى أهل الفلاندرز للقوات الفرنسية التي تقدمت لغزو بلادهم في عام ١٣٠٢ م في معركة كورتراء Courtrai وهي أول معركة يتم فيها إنتصار لقوات المشاة على الفرسان منذ عرف القطاع في أوروبا.

وعند هذه المرحلة إضطر الملك الفرنسي فيليب إلى عقد صلح نهائي في العام التالي (١٣٠٣ م)، ومن شروط هذا الصلح بقاء جوين وجاسكوني في حوزة إنجلترا، وعودة كونت فلاندرز إلى بلاده حاكماً عليها، ولم يكن ما فعله فيليب مع فلاندرز إلا هدنة مؤقتة، فعندما مات البابا بونيفاس في نهاية العام وتحديداً في الحادي عشر من أكتوبر عام ١٣٠٣ م عاد مرة أخرى لمحاولة إخضاع إقليم فلاندرز، وقد انتصرت القوات الفرنسية في بداية الأمر، ولكن قوات الفلاندرز نجحت في الصمود أمام القوات الفرنسية الأمر الذي دفع فيليب إلى مصالحة كونت فلاندرز في عام ١٣٠٥ م.

وكانت علاقة فيليب الرابع عاصفة مع الباباوية كذلك، وقد عاصر فيليب مجموعة من الباباوات هم البابا هنرييوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧)، والبابا نيكولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢ م)، والبابا كلستين الخامس (١٢٩٢ - ١٢٩٤ م) والبابا بونيفاس الثامن، والبابا بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤ م)، وأخيراً البابا كلمت الخامس (١٣٠٥

- ١٣١٤م)، وكان البابا بونيفاس من أهم وأقوى الشخصيات التي عاصرها فيليب الرابع. وفلسفة هذه العلاقة تدور حول السياسة التي كان يتبعها الملك الفرنسي وهي العمل على تقوية السلطة المركزية للملك وعدم تدخل رجال الدين في الشئون الدنيوية للبلاد. ومن جانب آخر كان البابا بونيفاس يعمل على تقوية السلطة الباباوية داخل البلاد الأوروبية، لذلك بدأ الصراع بين فيليب وبونيفاس عندما فرض الملك على رجال الدين في عام ١٢٩٤م دفع الضرائب.

ولكن رجال الدين رفضوا أوامر الملك ورفعوا شكاوهم إلى البابا، والواقع أن مشكلة المال وحاجة ملوك أوروبا إليه إما للحرب أو للإصلاح سادت جميع المالك الأوروبية في تلك المرحلة، وخاف بونيفاس على السلطة الباباوية داخل هذه المالك وتصدى للملك الفرنسي ولغيره من الملوك وأصدر في عام ١٢٩٤م قراراً بعدم أحقيقة الملوك في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة دون الرجوع إلى البابا، ومن الطبيعي أن يهدد البابا بقرار الحرمان من رحمة الكنيسة لكل من يخالف ذلك.

وإستاء ملك إنجلترا كذلك من قرار البابا، وبدأ الصراع بين إدوارد الأول وبين رئيس أساقفه كانتريوري، وهو ما يذكرنا بالصراع الذي دار بين هنري الثاني وتوماس بكت، وفي فرنسا كان الصدام بين فيليب الرابع وبين البابا نفسه، وبدأ فيليب بإتخاذ بعض الإجراءات التي تضر بمصالح البابا المادية والأدبية، وعن الجانب المادي حرم فيليب تصدير الذهب والفضة إلى خارج فرنسا، وفي هذا التحريم عدم إرسال الأموال إلى البابا التي كانت ترسل إليه من فرنسا.

وعن الجانب الأدبي أصدر فيليب قراراً بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا أيّاً كانوا هؤلاء الأجانب، وفي هذا القرار تحريم بدخول المبعوثين البابويين إلى فرنسا. يستعد فيليب ولأول مرة في التاريخ لدعوة مجلس

الطبقات لاتخاذ موقف محدد تجاه هذه المشكلة، وصعد فيليب الرابع المشكّلة عندما قبض على المبعوث البابوي وسجنه، كما تم إحراق الرسالة التي أرسلها البابا إلى فيليب على مرأى من الجميع في باريس في الحادى عشر من فبراير عام ١٣٠٢م. وتبدل الموقف لصالح الملك عندما ساند رجال الدين الفرنسيون ملوكهم وكتبوا إلى البابا يفندون إدعائه وانهم يساندون ملوكهم مهما كانت الظروف.

وفي تلك المرحلة كان يعيش في فرنسا أحد رجال القانون البارزين وهو وليم إف نوجارت William of Nogaret، الذي أتهم أجداده بالهرطقة في جنوب فرنسا في عهد البابا أنوست الثالث، وكان وليم هذا شديد العداء للباباوية، وفي جلسة مجلس الطبقات التي عقدت بقصر اللوفر في باريس عام ١٣٠٣م هاجم وليم البابا وطالب بمحاكمته وذكر أن البابا عديم الأهلية، وإتهمه بالهرطقة، كما إتهمه أيضاً بالرشوة وأنه عديم الشرف وبعض الجرائم الأخرى. ورغم أن كل هذه الإدعاءات كانت غير حقيقة إلا أن النباء، ورجال الدين الفرنسيين، وكذلك بعض النبلاء الإيطاليين قد أيدوها.

وترك البابا مدينة روما واتجه جنوباً إلى مدينة أنياني Anagni هروياً من حرارة الصيف، وفي مدينة أنياني بلغه ما دار في فرنسا، فاستدعي الكرادلة لعقد مجلس يعلن فيه قرار الحرمان من رحمة الكنيسة ضد الملك الفرنسي، ويعلن أن الشعب الفرنسي في حل من الولاء الذي قدمه للملك، وتحدد الثامن من سبتمبر عام ١٣٠٣م لإعلان ذلك . وصمم فيليب على منع البابا من أصدار هذا القرار ، فتقابل مع وليم إف نوجارت وسكيارا كولوننا Sciarra Colonna وطلب منهما التوجه إلى مدينة أنياني لإثارة المواطنين هناك ضد البابا، وقد وصلا إلى المدينة

ومعهم جماعة مسلحة وهم يصيرون «الموت للبابا» وطول الحياة لملك فرنسا .

واتجه كولونا ومعه حوالي ثلاثة من الفرسان إلى مقر البابا وطالبواه بالاستسلام، وعند هذه المرحلة طالب البابا بمهلة لمدة تسع ساعات وقد وافق كولونا على طلبه. ولم يكن بوسع البابا خلال هذه المدة أن يطلب من أهالي المدينة الدفاع عنه أو نجاته، فقد هرب خدمة، وحتى ما كان عنده من أقارب من حوله، وفي النهاية إقتحم الفرسان القصر وأشعلوا فيه النار وتم القبض على البابا ونقله إلى روما ثم ما لبث أن مات بعد أسبوع قليلة في الحادي عشر من أكتوبر ١٣٠٣ م حزيناً.

وهكذا جاهد البابا بونيفاس قدر إستطاعته ولكنه فشل، بعدما أضناه الكفاح، وإذا كان فيليب قد تدخل من قبل في شؤون الكنيسة وأرضها التي بلغت حوالي ربع الأراضي الفرنسية، فإنه تدخل هذه المرة في تعين البابا نفسه، وعين البابا كلمنت الخامس ونقل مقر الباباوية من روما إلى أفنيون في عام ١٣٠٩ م، وظللت هذه المدينة مقرًا باباويًا حتى عام ١٣٧٧ م، وهي الفترة التي تعرف في التاريخ باسم الأسر البابوي، حكم خلالها ثمانية باباوات. وهكذا إنتصرت فرنسا على الباباوية بصورة لم ينتصر بها ملکًا أو أمبراطورًا من قبل، وانقلب الوضع في هذه المرحلة وأصبح رجال القانون هم الحكمون بعد أن استعان بهم فيليب في إدارة شئون الدولة، على العكس من العهود السابقة في أوروبا حيث كان يستعان برجال الدين لضرب الاقطاع وإضعافه.

والجانب الثالث في هذا الموضوع هو الاحوال الداخلية لفرنسا في عهد فيليب الجميل، ومن الاحوال الداخلية الجوانب الإقتصادية، وقد كان الملك يحتاجاً بصفة دائمة للمال لتنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية، ومن هنا إتخذ الملك بعض الإجراءات الصارمة في بعض الأوقات، وابتدع أنواعاً

جديدة من الضرائب، وما فعله الملك محاولته في عدم سيطرة الأجانب أو اليهود على الأحوال الاقتصادية في فرنسا، لذلك قام بطرد رجال المال الأجانب وكان معظمهم من اللمبراديين الإيطاليين وذلك في عام ١٢٩١م، وفرض على اليهود تقديم نصف أرباحهم إلى التاج الفرنسي في بداية الأمر، ثم عاد وصادر أملاكهم وأموالهم وطردهم من فرنسا في عام ١٣٠٦م، ولكن فيليب أدرك خطأ تصرفه هذا فأدّهم ثم عاد وطردهم، وتكرر ذلك أكثر من مرة، والواضح أن ذلك يرجع إلى حاجة فيليب للأموال التي يصادرها منهم عند طردتهم.

كما وقف فيليب موقفاً متشددًا من جماعة فرسان الداوية Templars وهي جماعة عسكرية تأسست في بيت المقدس عام ١١١٨م ولعبت دوراً بارزاً في الحركة الصليبية داخل وخارج بلاد الشام مثلها مثل جماعة الاستبارية وجماعة التيوتون. والحقيقة أن جماعة الداوية.

لعت إلى جانب نشاطها العسكري دوراً كبيراً في الانشطة المالية مما عاد عليه بالثراء الوفير حتى بعد سقوط الممتلكات الصليبية في بلاد الشام في أيدي الملك. وقمع أفرادها بشراء فاحش بعد إنصرافهم عن الجوانب العسكرية، وفي سبتمبر عام ١٣٠٧م أصدر فيليب أوامر سراً بالقبض على جميع أفراد جماعة الداوية داخل فرنسا، ومصادرة أموالهم وأراضيهم . ومن أجل مصادرة أموالهم شرعاً دعا البابا كلمنت وفيليب الرابع إلى مجلس عام عقد في مدينة فين Vienne التي تقع إلى الجنوب من مدينة ليون في أكتوبر عام ١٣١١م، وقد حضر هذا المجلس عدد كبير من رجال الدين، وكان الهدف من عقد هذا المجلس هو الدعوة لإرسال حملة صليبية إلى بلاد الشام بالتحالف مع المغول، ومن أجل أيضاً إعادة تنظيم الكنيسة والنظر في شئون أملاك جماعة الداوية وتأييد تصرفات الملك فيليب الرابع ضد البابا الراحل بونيفاس الثامن .

وما يعنينا من هذا الأمر قضيتان هما : الحملة الصليبية التي ترسل إلى بلاد الشام والتحالف مع المغول لمحاربة المالكين، وهذا أمر لم ينفذ، وسوف نناقش هذا الموضوع في الفصل الرابع من هذا الكتاب . والقضية الثانية هي أن المجلس قرر إدماج جماعة فرسان الداوية مع جماعة الاستمارية وهو ما لم توافق عليه جماعة الداوية، لذلك إتخد البابا بعض الاجراءات للتحقيق معهم.

ويذلك تشجع الملك فيليب وأصدر قراراً في عام ١٣١٢ م بحل تنظيم جماعة الداوية ومصادرة أملاكهم وعين موظفين بدلاً منهم للعمل تحت إشراف هيئة ديوان النفقات، ولم يكتف الملك الفرنسي بذلك بل قبض على جميع فرسان الداوية في فرنسا بما فيهم مقدم الجماعة جيمس أوف مولاي James of Molay الذي أعدم حرقاً، واتهم فيليب أفراد الجماعة بالعمل ضد المسيحية وحاكمهم وانتزع منهم إعترافاً بإدانتهم.

أما ما قام به فيليب في الجانب الإداري والتشريعي، فقد قام فيليب باستبعاد جميع الأقطاعيين من الهيئة القضائية ، وهي برلمان باريس، وحل محلهم مجموعة من رجال القانون يدينون بالولاء للملكية الفرنسية. كما أنشأ الملك محكمة مالية للنظر في جميع المشاكل والقضايا المالية. ولعل أفضل ما قدمه فيليب إلى بلاده دعوة مجلس طبقات الامة للاتعقاد في عام ١٣٠٢ م، وكان هذا المجلس الذي دعى لأول مرة يضم ممثلين عن رجال الدين والنبلاء ورجال الأعمال، وسيلعب هذا المجلس دوراً كبيراً في تاريخ فرنسا في المراحل المقبلة.

ورغم هذه الاصلاحات إلا أن أثراها كان سيئاً للغاية بعد وفاته، فرغم حب الشعب الفرنسي للملك فيليب وإعجابه بشجاعته إلا أنه صب اللعنة على ذكره فقد رأوا فيه ملكاً مستبداً حطم كيان فرنسا، وأن اصلاحاته المالية عادت بالضرر على الدولة، فمن المعروف إقتصادياً أن

رسل المال جبان وأنه يهرب من الحكم المطلق، لذلك فر رجال المال من اليهود واللمبراديين أمام تعسفاته في جميع المال ، فتتعطل التجارة وشلت حركتها . وخلاصة القول أن الرخاء الذي ورثه فيليب عن أجداده كان يسير بالقصور الذاتي في عهد فيليب ثم إضمحل بعد وفاته. وإذا ما إستثنينا هذا الجانب نجد أن فرنسا تقدمت تقدماً رائعاً في بعض النواحي الإقتصادية والتشريعية والأدبية والفنية، فقد جذبت الصناعات رقيق الأرض، وظهرت طبقتا رجال الأعمال ورجال القانون وطفقا على طبقة رجال الدين، وأصبح للطبقتين الجديدين صوت في مجلس الطبقات وهو المجلس الذي ناصر الملك ضد الباباوية.

وظهر في عهد فيليب شعراً الفروسيّة الذين كتبوا للحب العذر في إقليم بروفانس جنوب فرنسا، وظهرت أيضاً قصص الملائم في شمال فرنسا، وفي عصر فيليب أيضاً ظهر إثنان من المؤرخين هما جوانفيلي الذي أرخ للملك لويس التاسع وفلهارودين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية عام ١٢٠٤ وأقصى الحكم البيزنطي حتى عام ١٢٦١م.

وفي عهد فيليب أيضاً ارتقت جامعتا باريس وأورليان وأعيد تنظيمهما، وظهرت الكنائس الكبيرة في سانت دنيس ونوتردام في تحفه معمارية رائعة في فنها القوطي. والأهم من ذلك كله أن الوحدة الوطنية سادت هذه المرحلة لتعمل على وحدة البلاد بدلاً من التزعة الإقليمية الإقطاعية.

وفي ختام الحديث عن عهد فيليب نقول أن الفضل في هذا كله يرجع إلى طبقة رجال القانون - الذين سيطروا على مقاليد الإدارة - بعقولهم المفتوحة بدلاً من رجال الدين ذوى العقول الجامدة التي مثلت تلك العصور.

وفي الرسائل التي تركها بطرس دوبوا Pierre Bubois وهو من رجال القانون تتضح الفجوة الواسعة بين العقليتين. وما قاله أن أموال الكنيسة يجب أن تكون في خدمة الدولة، ويجب فصل كنيسة فرنسا عن روما والا يكون للباباوية سلطة زمنية على الاطلاق ، وشطب بطرس عندما قال : يجب أن يكون فيليب إمبراطوراً على أوروبا بأسرها ويتخذ من القسطنطينية مقراً له، ولكنه تجاوز نكر عصره بقرون عندما طالب بتكون محكمة دولية للفصل في النزاع القائم بين الدول، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أي دولة مسيحية ترفع سلاحها ضد دولة مسيحية أخرى، وإن ينح النساء جميع الحقوق السياسية كالرجال، وطالب بإنشاء معهد للدراسات الشرقية في روما. ولا شك أن مثل هذه الأفكار لم نسمع عنها إلا في القرن العشرين، وهذا يدل على عبرية بطرس وسعة أفق وطموح تجاوز الحد .

وتعاقب على عرش فرنسا بعد فيليب ثلاثة من أولاده كان آخرهم شارل الرابع ١٣٢٢ - ١٣٢٨م، ومات الأخير دون ولد يرث العرش، وكان أقرب وريث من الذكور هو فيليب دي فالوا Philippe de Falois ابن أخي فيليب، فاعتلى عرش فرنسا ١٣٢٨ - ١٣٥٠، ومع تولى آل فالوا العرش بدأت أسرة جديدة على عرش فرنسا وانتهت حكم آل كابيه.

### ثالثاً : ألمانيا :

ويعاصر الحروب الصليبية في الشرق وظهور المغول في آسيا كقوة عسكرية أسرة الهohenstaufen في ألمانيا، وواقع الحال أن الأسرة السالبة إنتهت بوفاة آخر حكامها لوثر الثاني Lothaire II ١١٢٥ - ١١٣٨م) ولم يكن لوثير بالرجال القدير ليرفع ألمانيا من عشرتها بعد الصراع الطويل مع الباباوية، كما أن لوثير نفسه لم يكن مقبولاً من أمراء سوابيا Swabia وهم آل الهohenstaufen .

لقد بُرِزَ في ألمانيا رجالان قويان بعد موت لوثر، الأول هو هنري المتكبر (ت ١١٣٩م) دوق سكسونيا ثم بافاريا أيضًا. وهنري هذا هو حفيد ولف الرابع Well IV (ت ١١٠١م)، ولذلك كان هنري عميد البيت الولفي وعرف أتباعه بالولفيين، والثاني يدعى كوزاد هوهنشتاوفن دوق سوابيا، وكونراد هذا حفيض هنري الرابع من الأم. ويطلق على الهوهنشتاوفن أيضًا الجبليون Ghibelline نسبة إلى قرية Waiblingen في إقليم سوابيا . وعلى ذلك أصبح أمامنا هنري المتكبر زعيم الولفيين، وكونراد رغيم الجبليين، ولما كان هنري رجلاً قوياً فقد خشي النبلاء قوته وسيطرته عليهم، وهو ما كانت تراه الكنيسة أيضًا، لذلك اختار النبلاء كونراد ملکاً عليهم. ومن هنا ظهر التنافس بين الحزبين الولفيين والجبليين، وإنقل صدی هذا التنافس إلى إيطاليا حتى أصبح مفهوماً لديها مع مطلع القرن الثالث عشر أن كلمة الجولف تعنى المعارض للجبليين أو الهوهنشتاوفن. أما في إنجلترا فقد أصبح مفهوم هذا التنافس يعني إن الجبليين أو الهوهنشتاوفن هم أنصار الإمبراطورية، أما الجولفيون هم أنصار الباباوية في صراعها مع الإمبراطورية، ولعل الأحداث التي وقعت في عهد أسرة الهوهنشتاوفن في صراعها مع الباباوية تفسر هذا المفهوم.

### كونراد الثالث ١١٣٨ - ١١٥٢ م :

قام الصراع بين الجبليين والولفيين مع اعتلاء كونراد عرش ألمانيا، وإذا كان كونراد قد ملك السلطة وكان يوسعه القضاء على هنري، فإن ولاء الولفيين لزعيمهم هنري كان أشد من بطش كونراد . وعلى أية حال فقد إتبع كونراد كافة السبل للقضاء على خصمه هنري ، وسادت البلاد حرباً أهلية مع بدايات عهد كونراد .. وكان لهذه الحرب أثراً كبيراً على ألمانيا في الداخل والخارج . ونجح كونراد في أول الأمر فانتزع بافاريا من

هنري ، وخطط لضم سكسونيا . ومات هنري المتكبر فجأة في عام ١١٣٩م أي بعد عام واحد من تولية الملك كونراد ، وإرثاح كونراد لموته ، ولكنه إصطدم بعناد أهل سكسونيا الذين ناصروا أسرة هنري وساندوا أبناء هنري الأسد الذي كان في العاشرة من عمره ونصبوه دوقاً على سكسونيا ، وظل العداء مشتعلًا حتى عام ١١٤٢م حين لجا كونراد إلى الصلح وأعاد إلى الولفيين بافاريا وسكسونيا لينفذ بلاده من الحرب الأهلية .

وإذا كان كونراد إصطدم بالحرب الأهلية مع بداية حكمه في عام ١١٣٨م فإنه إصطدم في العام الثاني ١١٣٩ بقرارات البابا أنوسنت الثاني (Innocent II - ١١٤٣م) التي تعطى الباباوية السلطة العليا على رجال الدين في كل أنحاء أوروبا ، فإهتز عرش كونراد في الداخل والخارج ، ولعل هذا مادفعه إلى عقد الصلح مع الولفيين ليتفرغ للباباوية . ولكن كونراد كان أضعف من مواجهة البابا . وحاول كونراد أن يعرض فشله مع الأمراء والبابوية ، فخرج في عام ١١٤٨م ومعه سبعون ألف محارب وإنضم إلى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ومعه لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ - ١١٨٠م) ، ولكن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وعاد كونراد إلى ألمانيا دون نصر يقوى به على الأمراء والباباوية . ويبدو أن هذا الفشل قد شجع بعض الأمراء داخل ألمانيا على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم ، ورغم خضوع كونراد للباباوية بهدف الحصول على اللقب الإمبراطوري ، فإنه لم يحصل عليه ، فقد مات عام ١١٥٢م وهو في طريقه إلى روما للحصول على اللقب .

فريدريك الأول بارباروسا Barbarosa (١١٥٢ - ١١٩٠م)

توفي كونراد والتنافس على أشده بين الجيليين والولفيين ، ولم يكن

من وريث للملك كونراد سوي فريديريك المعروف بالاول فهدأت النفوس،  
ولأن فريديريك هذا كان ابن فريديريك دوق سوابيا أخ كونراد ، وأمه هي  
جوديث Judith اخت هنري المتكبر وعمة هنري الاسد. وهكذا أصبح تعين  
فريديريك ملكاً على المانيا مرضياً للطرفين المتصارعين .

عرف فريدريك باسم يارياروسيا نسبة الى لحية الحمراء ، وكان ذا عقلية ناضجه وعزمه ماضيه ، ومن حسناته أنه عمل لخبير المانيا وأخي بين الجبليين والجلوفيين وجنب البلاد فوضى الحرب الأهلية ، وأعاد الى اسرة هنرى الاسد دوقتى بافاريا وسكسونيا . وتطلع فريدريك إلى اللقب الامبراطوري منذ إعتلاءه العرش ، ولكنكه كان مضطراً لانهاء الحرب الأهلية التي ورثها من أبيه ، وما أن إنتهى من تسوية أحوال المانيا حتى وافته الفرصة بدعوة البابا يوجين الثالث III Eugeius ( ١١٤٥ ) - ( ١١٥٣ م ) لمساعدته ضد أهل روما والنورمان نظير حصول فريدريك على التاج الامبراطوري . واتجه فريدريك الى روما عام ١١٥٤ م حيث كان يوجين قد مات وتولى عرش الباباوية هادريان الرابع Hadrian IV ( ١١٥٤ - ١١٥٩ م ) . وعند إجراء مراسيم التتويج تفاوضى فريدريك من إمساك زمام جواد البابا ومساعدته على النزول إلى الأرض .

تعقد الموقف ونزل البابا عن على فرسه بمفرده ، ورفض منح اللقب الامبراطوري للملك فريدريك . وظل الحال يومين دار خلالها نقاش بين رجال الملك والبابا وفي نهاية الامر رضخ الملك لطلبات البابا ، وأعيدت مراسيم التتويج من جديد وأمسك فريدريك بزمام جواد البابا طبقاً للتقاليد المتبعه في مثل هذه الحالات وتمت مراسيم التتويج فى يونيه عام ١١٥٥ م .  
بعد تتويج فريدرick إمبراطوراً أصبح أقليم لمبارديا تابعاً له ، لذلك أرسل الامبراطور حكام من قبله ليصرفوا شؤون البلاد لمباردية .

ورضخت بعض المدن للأمر واعتراض بعضها وعلى رأسها مدينة ميلانو . ولم يكن أمام فريدريك إلا أن يفرض سيادته بحد السيف ، فخرج في عام ١١٥٨ م ليخضع البلاد الرافضة لسيادته ، ويرى البعض أن فريدرick كان يقصد من وراء ذلك أيضاً السيطرة على المدن البحرية الإيطالية لتكون في خدمة التجارة الالمانية في حوض البحر المتوسط .

وجاءت المشكلة عندما فرض فريدرick سيطرته على الاراضي الباباوية فاعتراض البابا على هذا الأجراء الذي أعتبره مقدمة لفرض نفوذه فريدرick على حقوق البابا ، ولم يعبأ الامبراطور باعتراض البابا ، فرد الأخير بإنزال قرار الحرمان على الإمبراطور . وجلت القلوب لهذه الأحداث ولكن فريدرick لم يتراجع وبدأ بالزحف إلى ميلانو باعتبارها زعيمة للقوى المعارضه ، وحاصرت القوات الالمانية مدينة ميلانو وظل الحصار حوالي ثلاثة سنوات ، وأخيراً استولى عليها فريدرick بعدما أهلكتها المجاعة ، ولم يكتف الامبراطور بسقوط المدينة بل أضرم فيها النار .

خشيت وغضبت بقية المدن الإيطالية من هذا التصرف الذي ر بما لحق بها في القريب العاجل ، فكانت هذه المدن حلفاً في أواخر عام ١١٦٨ م وعرف هذا الحلف باسم العصبة اللمبardiّة Lombard League . وتتصدى هذه العصبة لقوات الإمبراطورية وانتصرت عليها في عده مواقع منها معركة لينانو Legnano عام ١١٧٦ م ، وفي العام التالي عقد صلحًا بين البابا وفريدرick عرف باسم صلح البندقيه ١١٧٧ م . وعلى أثر ذلك أصبح للمدن الإيطالية الحكم الذاتي وتفككت العصبة اللمبardiّة ، واحتفظ الامبراطور فريدرick بالسيادة الأساسية على هذه المدن .

ومن ذلك يتضح أن فريدرick لم يوفق تماماً في إيطاليا ، ولكنه عوض ذلك في بعض الجوانب الأخرى في أوروبا ، فقد نجح في تدعيم سلطاته في

هنغاريا وبوهيميا وبولندا ، وكما أنه نجح في أن يكون له الحق في تعيين بعض رجال الدين ، وتطلعت أمال فريدريك إلى أبعد من أوروبا لعله كان يرغب في بعث للإمبراطورية الرومانية بمساحتها القديمة ، فخرج في عام 1189 م على رأس القوات الالمانية التي قدرها البعض بحوالي مائة ألف ، واتجه ليصل إلى الأراضي المقدسة برأ عبر آسيا الصغرى لينضم إلى هذه الحملة الصليبيّة المعروفة بالثالثة وعلى رأسها ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، ولكن أحلام فريدرick لم تتحقق ، فلم يكن الإمبراطوريّة التي حلم بها ، ولم ينضم لقوات الحملة الثالثة ، فقد مات غريقاً في نهر سالف Seleph في إقليم قيليقية بآسيا الصغرى عام 1190 م

### هنري السادس 1190 - 1197

خلف هنري والده فريدرick على العرش وفكرة الإمبراطورية الرومانية العالمية لا تبرح عقله ، ونجح في ذلك نجاحاً ملماً ، فقدتمكن من اخضاع إيطاليا عدا المكتلكات الباباوية حتى لا يجر على نفسه المتاعب ، وليجد في الباباوية سنداً له ، ثم وسع ممتلكاته جنوباً وضم جنوب إيطاليا وصقلية وانهى الحكم النورمانى بهما . ويقضائه على الحكم النورمانى يكون هنري السادس بالحرب ، فإنه نجح في مجالات آخر دون حرب ، فقد طلبت إمارة أنطاكية الصليبية الخضوع للإمبراطورية باعتبار أن الإمارة نورمانية الأصل ، وأن زوجته كونتسانس هي الوريثة لعرش النورمان في صقلية وإيطاليا . كما طلبت مملكة قبرص الشئ نفسه وكذلك إمارة قليقيهالأرمنيه . وعندما وقع ريتشارد أسيراً في أيدي ليوبولد Leopold دوق النمسا أثناء عودته من الحملة سلمه إلى هنري

السادس الذى إحتفظ به مده عامين ، وجال بخاطر هنرى السيطره عسكريا على الامبراطوريه البيزنطية ، كما تطلع الى فرنسا وأسبانيا ، وتصور نفسه حاكما على الامبراطوريه الرومانيه بعد بعثها . وأعد قواته للخروج بحمله صليبيه الى الاراضى المقدسه ، وقد وصلت الحمله الى الشام ولكن هنرى لم يلحق بها فقد مرض ومات فى صقلية عام ١١٩٧ م ، بعد أن حكم الامبراطوريه الرومانيه المصغره مده سبع سنوات ، وعن عمر بلغ الثلاثاء والثلاثين فقط .

### فريدريك الثانى ١٢١٢ - ١٢٥٠

كان فريدرick الوارث الوحيد للأمبراطور هنرى السادس ، وكان فريدرick فى الثالثه من عمره آنذاك ، لذلك دبت الفوضى فى أنحاء المانيا قرابة عشرين عاماً تنازع السلطه خلالها الحزبان القديمان الولف والهوهنشتاوفن ، ورشح الولفيون أوتسواف برونزيك Otto von Brunswick (١١٩٧ - ١٢١٢ م) ويعرف ايضا باوتو الرابع . كما رشح الهوهنشتاوفن فيليب دوق سوابيا (١١٩٧ - ١٢٠٨ م) ويعرف ايضا باسم فيليب الرابع . وادعى كل منهما الحق لنفسه فى حكم الامبراطوريه . وقامت الحرب الاهلية بين الحزبين ، ولعبت السياسه البابا ويه والفرنسيه والانجليزية دوراً كبيراً فى هذا الصراع حتى عام ١٢٠٨ م حيث مات فيليب الرابع . وهدأت الاحوال نسبياً حتى عام ١٢١٢ م ، عندما حكم أوتو الرابع بدعم من البابا أنونسنت الثالث ولما بلغ فريدرick سن الرشد إشتعلت الحرب مره اخرى وأنتهت بانتصار فريدرick بعد ما تخلى البابا عن أوتو ، وساعد فريدرick الذى ظل تحت وصاية البابا منذ موت ابيه .

واذا جاز لنا ان نصف الامبراطور فريدرick فى أسطر قليله ، وفي ذلك ظلم له ، فيمكن القول أن فريدرick كان محارباً وسياسياً مثقفاً لدرجة

عالیه ، مشجعاً للعلوم بدرجة تفوق ثقافته وجذبيته . فقد تحدث فریدریک بلغات متعدده ، ونظم الشعر ، وشجع العلوم والفنون ، وله افكاره فى الفلسفه والطب والهندسه وعامل رعاياه معاملة بعيدة عن التعصب فكان منهم المسلم والمسيحي واليهودى وتكلم اللغة العربيه ويدا وکأنه شرقى العادات ، هذا بالاضافه الى حماسه للتجدد والثوره على القديم ، ولا عجب أن وصفه المؤرخ متى الباريسى Matthew Paris بأنه العجيب الذى بدل الدنيا وأثار إعجابها Mundi et immutater mirabi-lis أو اعجوبة العالم . ومن العجيب أن نجد مثل هذا الامبراطور قد فشل فى مجال السياسه فى نظر معاصريه، ويرجع ذلك الى آرائه المتقدمة لعصره التي أدت إلى اصطدامه بالكنيسة وعلى رأسها البابا أنوسنت الثالث وهنوريوس الثالث Honorius III ( ۱۲۱۶ - ۱۲۲۷ م ) وجريجورى التاسع ( ۱۲۴۱ - ۱۲۲۷ م ) .

والاسباب المباشرة لهذا الصدام ترجع الى عدة عوامل منها ، أن الامبراطور فریدریک عمل على ضم ايطاليا وصقلية للتايج الامبراطوري، ولكن الباباوية وبعض المدن الايطالية وجدت غير ذلك ، ونجحت الباباوية ومن يؤيدتها في النهاية .

ومن أسباب الصدام أيضاً موقف الامبراطور من الحملات الصليبية فهو الرجل الذي حكم العقل قبل السيف ، وكان لا يرى استخدام العنف طالما وجد سبيلاً" لغير ذلك . والمهم أن فریدریک تخلف عن قيادة الحملة الصليبية الخامسة كما سبق أن وعد بذلك ، ثم خرج على رأس قواته بالحمله الصليبية السادسة بطريقه لم ترض عنها الباباوية، وكان لذلك كله عواقب وخيمه على الامبراطور .

وموجز هذه الاحداث أن الحمله الخامسه ( ۱۲۱۸ - ۱۲۲۱ م ) استعدت للرحيل بعد أن اقسم فریدریک فى حماسه الشباب - لارضا

الباباوية - بقيادتها ، ولكن اعتذر ووعد باللتحاق بها . ووعد أكثر من مرة بالسفر ولكن اعتذر كذلك وطلب التأجيل ، وظل هكذا ثلاثة سنوات وأكثر حتى منيت الحملة بالفشل في خريف عام ١٢٢١م ، وحمل البابا والغرب الأوروبي مسؤولية هذا الفشل للإمبراطور ، وصدر ضده قرار الحرمان .

ووعد فريديريك بحملة أخرى ثم أجلها ، وأخيراً خرج بالحملة ولكن الباباوية تعتبرته محروماً من الكنيسة ولا يصح له قيادة حملة صليبية . ورغم ذلك خرج فريديريك بالحملة المعروفة بال>sادسة ونجح في ضم بعض الأرضي المقدسة بالوسائل السليمة إلى الأرضي الصليبية ، وصادفت حملته هذه نجاحاً لم تحصل أية حملة صليبية أخرى عدا الحملة الأولى ، ورغم ذلك عاد إلى أوروبا ليواجه غضب الكنيسة .

وأصطدم فريديريك مرة أخرى بالباباوية عندما أعاد تنظيم دولته وأقام المجالس العامة التي جمعت نواباً من النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ، لأن هذه النظم البرلمانية المتطرفة في حقل هذه العصور لم تجد هوئ نفس الباباوية والإيطالية ، وظنت الكنيسة أن فريديريك يسعى إلى هدمها . ولم يجد فريديريك في الرد على الكنيسة غير مهاجماتها بالحجج والبرهان ، وكتب في عام ١٢٢٧م أن المسيحية الأولى قامت على الفقر والبساطة وليس لأحد أن يشرع للناس قواعد غير التي شرعها السيد المسيح ، ولكن مثل هذه الكلمات لم يفهمها سوى طائفة الفرنسيسكان التي أسسها القديس فرانسيس أوف أسيس Francis Of Assisi ST. ، وهي الطائفة التي نادت بمثل هذه المبادى في هذه المرحلة . وظل الصدام بين الباباوية والإمبراطور حتى مات عام ١٢٥٠م ، بعد أن خلفه وراءه إسماً لازال الناس يختلفون في تقديره بين العظمة والعبقرية والإلحاد .

## رودلف الاول ١٢٧٢ - ١٢٩١ م (هابسبورج)

وإذا كان قد سبق عهد فريدريك الاول عشرون عاماً من الفوضى ، فقد لحقه ايضاً اكثراً من عشرين عاماً من الاضطراب ، وهى الفترة الممتدة من ١٢٥٠ م وحتى ١٢٧٢ م ، فيبعد وفاة فريدرick تولى عرش المانيا ابنه كوانزاد الرابع ConradTV ١٢٥٤ - ١٢٥٠ م ، ولكنها وجدت معارضة من وليم كونت هولندا William count of Holland وقد ساد هذه المرحلة فتره من الحروب الاهلية داخل الامبراطورية الرومانية . وبعد وفاة كوانزاد تم انتخاب ابنه كونرادين Conradiin ولكنها ماتت فى عام ١٢٥٦ م، ثم ماتت ايضاً وليم كونت هولندا . وانقسم الالمان إلى قسمين ، فقد رشح القسم الاول الايرل الانجليزى ريتشارد أوف كورنول Richard of Corn-wall ، ورشح الجانب الثاني الفونسو العاشر Alfonso X ملك قشتاله ( ١٢٥٢ - ١٢٨٤ م ) . وهنا سادت الفوضى المانيا وأصبح من الصعب السيطرة على الموقف . وعرفت الفترة هذه وحتى عام ١٢٧٢ م باسم عصر الفوضى الكبرى . وإستغل الاقطاع هذه الوضاع وقوى من نفوذه ، وسيكون لذلك أثراً كبيراً على المرحلة التالية في المانيا .

وفي عام ١٢٧٢ م تم إنتخاب رودلف أوف هابسبورج Rudolph of Habsburg ليبدأ عصر أسرة الهاسبورج التي ظلت سلالتها تحكم المانيا حتى الحرب العالمية الاولى . ويرجع أصل هذا الاسرة إلى مدينة هابس Habs التي تقع في دوقية سوابيا Swabia ، وقد أصبح لهذه الاسرة شأن كبير منذ عهد الامبراطور فريدرick باريروسا . وكان للباباوية دخلاً كبيراً في تولي رودلف عرش الامبراطورية لانه كان يخشى من تفكك المانيا مما يؤدي إلى توسيع فرنسا في المانيا وكذلك توسيع شارل الاول أوف أنجو Charles of Anjou حاكم صقلية ( ١٢٦٦ - ١٢٨٥ م ) .

تولى رودولف عرش المانيا وهو فى الخامسة والخمسين من عمره وحكم من ( ١٢٧٢ - ١٢٩١ م ) ، والواقع أن رودولف حكم المانيا فى فترة صعبه فى تاريخ البلاد . وكان عليه أن يعيد النظام داخل المانيا بعد فترة الاضطراب والحروب الاهلية الى سادتها لاكثر من عشرين عاماً . ويمكن التعرف على هذه الصفحات على بعض المشاكل الداخلية والخارجية التي عالجها رودولف . والمشكلة الاولى كانت تحديد موقفه من الباباوية حتى يكن معالجة بقية المشاكل ومنها الفونسو العاشر الذي رفض ان يتنازل عن لقب إمبراطور الامبراطورية الرومانية، ومواجهة التمرد الذى أعلنه أوتووكار Ottokar ملك بوهيميا . وفي البداية سعى رودولف إلى كسب رضا الباباوية باعتبارها قد ساندته فى تعينه إمبراطوراً على المانيا ، وثانياً أن مساندة البابا الروحية سيكون لها أثرها على المشاكل الأخرى . وقد تم ترتيب مقابلة بين البابا جريجورى العاشر Gregory X ( ١٢٧١ - ١٢٧٦ م ) خاصة أن هذا البابا قد رفض استقبال رسول الفونسو العاشر المطالب بعرش المانيا ، وعقد اللقاء فى مدينة لوزان Lausanne عام ١٢٧٥ م ، وفي هذا اللقاء تم الاتفاق على ذهاب رودولف إلى روما لتقبل التاج الامبراطوري . كما قبل رودولف أن يتولى قيادة حملة صليبية للتوجه الى الشام ، كما تنازل رودولف عن حق الامبراطورية فى ايطاليا واعترف بشارل أف أنجو ملكاً على نابولي وصقلية .

وبعد أن إطمأن رودولف وحصل على رضا الباباوية أستدار إلى التمرد الذى يقوم به أوتووكار ملك بوهيميا . وترجع مشكلة أوتووكار إلى أنه طلب أن يكون له دوراً فى إنتخاب حاكم المانيا الذى تم فى عام ١٢٧٢ م ، وفيه تم إنتخاب رودولف ولكن الجميع تجاهلو طلبه ، وعلى ذلك رفض الاعتراف بنتائج الانتخابات التى أسفرت عن تولى رودولف عرش المانيا . ومن مركز القوه الذى تقع به رودولف بعد مساندة الباباوية أقدم رودولف على خطوة عملية ودعا أوتووكار إلى اجتماع فى عام

١٢٧٤م ولكن الأخير لم يحضره فحدد إجتماعاً آخر في العام التالي ، ولم يحضره أوتوكار أيضاً . وعند هذه المرحلة لم يقف رودولف مكتوف الأيدي خاصة أن ملك بوهemia إحتل إقليم النمساوستيريا Styria وبعض أقاليم أخرى . لم يعد هناك أمام رودولف إلا استخدام القوة العسكرية لحل هذه المشكلة ، ولعبت العرقية دوراً في هذه الحرب ، فقد التفت حول رودولف جميع العناصر الألمانية لمقاومة تمرد أوتوكار ملك بوهemia السلافى العرق . وخرج رودولف يقود الجيش الإمبراطوري في عام ١٢٧٦م . وعند هذه المرحلة أدرك أوتوكار أنه سيخسر الحرب خاصة بعد ما استسلمت مدينة فيينا ، فبدأ بعرض الصلح على الملك الألماني ، وقد وافق الأخير على صلح عقد في نهاية العام . ويوجب هذا الصلح إحتفظ أوتوكار ببوهemia ومورافيا وتنازل عن بقية الأراضي التي استولى عليها . وكلل هذا الصلح بأن زوج أوتوكار أبنته إلى ابن رودولف ، كما تزوج ابن أوتوكار من إحدى بنات رودولف .

لم يستمر هذا الصلح سوى عامين فقط ، فقد تجددت الحرب بين الطرفين مرة أخرى ، ولم تكن الحرب في بداية الأمر في صالح رودولف ولكن نجح في كسب هنغاريا إلى جانبه وبعض العناصر الأخرى ، وتمكن في النهاية من كسب المعركة لصالحة ، وفي موقعة مارخفيلد Marchfield التي وقعت في أغسطس عام ١٢٧٨م إضطر أوتوكار للاستسلام وأُجبر على تسليم كل الأراضي التي استولى عليها ، على أن يحتفظ بإقليم بوهemia كاقطاع من رودولف . وبعد أشهر قليلة نقض أوتوكار الصلح وتقدم بقواته وغزا أراضي النمسا وتقدم رودولف إليه وقتلته في ساحة القتال . وهنا بدأت الأوضاع تأخذ طريقها إلى حد ما في الاستقرار داخل المانيا .

ومن أجل استقرار حكم الإمبراطورية الرومانية في النمسا قام رودولف بتوزيع أراضيها بين ولديه ، ثم زوج أبنه البرت إلى وريثة دوقية النمسا ، ويعتبر ضم النمسا إلى أراضي الإمبراطورية من أهم الأعمال التي قام بها

رودولف . ومن أعماله أيضاً أنه قام ببعض المحاولات من أجل تقوية السلطة المركزية ونشر السلام داخل ألمانيا ، ومات رودولف في عام ١٢٩١م بعدما أقام حكماً لاسرة هابسبورج على رأس الإمبراطورية الألمانية .

### أدولف أوف ناسو ( ١٢٩٨ - ١٢٩١م )

والحقيقة أن بيت هابسبورج كان قوياً للغاية عند وفاة رودولف . وعندما رشح البرت بن رودولف لعرش الإمبراطورية ، خاف النبلاء من سطوة البرت وإختاروا أدولف أوف ناسو Adolph of Nasasus باعتباره رجلاً طعيفاً لا يخشى منه . ويلاحظ هنا أن ولاية العرش في الإمبراطورية كانت انتخابية وليس وراثية ، ورغم هذا لم يقف البرت مكتوف الأيدي ، ولم يستسلم لنتائج الانتخاب وأعلن الثورة على أدولف ، وظل الصراع متقطعاً لمدة سبع سنوات ظل خلالها أدولف متمسكاً بحقه في تاج الإمبراطورية الرومانية .

والمهم هنا أن أدولف ، وبعد أن توج في مدينة أكس لاشابل ( آخر ) ، حتى ظهرت تطلعاته وتتنكر للوعود التي قدمها لكيان الامراء ورجال الدين . وبدأ عهده بقيادة حملة ضد البرت وأجبره على تقديم الولاء وتسليم شعار الإمبراطورية . كما بدأ في جمع صغار الملوك حوله لمساندته أمام كبار الأقطاعيين . وتطلع أدولف لأبعد من ذلك وأراد أن يجعل من نفسه نصيراً للوحدة الألمانية وإعادة أراضيها السلبية خاصة مقاطعة برجنديا التي تعرضت لاطماع فرنسا وأصبحت تابعة فقط لألمانيا من الناحية الاسمية .

وعلى ذلك استغل أدولف الحرب التي كانت دائرة بين إنجلترا وفرنسا

وتقرب إلى الملك الانجليزي إدوارد وعقد معه معااهدة في عام ١٢٩٤ م تعهد الطرفان بمحاجتها مواصلة الحرب ضد فرنسا . والواضح أن هذا التصرف كان تصرفاً ذكياً من أدولف لأن فرنسا كانت تسعى جاهده للسيطرة على الممتلكات الانجليزية في الأراضي الفرنسية ، ولذلك تقابلت المصالح الالمانية الانجليزية ضد فرنسا .

والواقع أن الامراء الالمان لكي يكتن يعنيهم في هذه المرحلة سوى تأكيد نفوذهم الاقطاعية وعدم مساس الحكم الالماني بحقوقهم داخل اقطاعياتهم ، ولذلك لم يساندو أدولف في اطماعه . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا يدرك ذلك دائماً ، كما أنه ادارك الصراع الدائر بين أدولف ومعه صغار الاقطاعيين ضد كبار الامراء ، وبدأ فيليب في إثارة الخلاف وعوامل الانشقاق داخل المانيا ، ولكن البابا بونيفاس الثامن الذي كان يعنيه واحده أوربا لاستغلالها في حروب صليبية والتحالف مع المغول لاستعادة الأرضي المقدسة في بلاد الشام، تدخل بين أدولف وفيليب ونجح في عقد الصلح بينهما دون أن تحصل ألمانيا على برجانديا .

احس كبار الامراء أن ما يقوم به أدولف ليس في صالحهم، وهنا ثارت مخافوهم وإلتفوا حول ألبرت بن رودolf حاكم دوقية النمسا وساندوه ضد أدولف ، وتشجع ألبرت بموقف كبار الامراء وإتصل بملك فرنسا عدو أدولف، كما تحالف ألبرت مع ونسلاس Wenceslas ملك بوهemia ، وتطورت الأمور حتى دعا رئيس أساقفة مدينة مينز إلى اجتماع في مدينة فرانكفورت حضره كبار الامراء، وفي هذا المؤتمر تم عزل أدولف عام ١٢٩٨ م وإنصب مكانه إلبرت بن رودلف. لم يستسلم أدولف لهذه النهاية وتقدم بقواته لمقاتله ألبرت، ودارت معركة قتل فيها أدولف وأصبح ألبرت ملكا دون منازع .

## أlbret الأول (١٢٩٨ - ١٣٠٨ م)

كان رجلاً عسكرياً قديراً وحاكماً ممتازاً، وعرف في التاريخ بقسوته وصارمته، ولعبت تصرفات البابا بونيفاس دوراً كبيراً في توجيهه سياسة ألمانيا في تلك المرحلة ، فقد رفض البابا الاعتراف بأlbret حاكماً على ألمانيا ، لذلك لجأ إلى التحالف مع فيليب الرابع ملك فرنسا عدو البابا ، وبهذا التحالف يكون أlbret قد تنازل عن حقه في إقليم برجانديا . وأيد هذا التنازل قوة التقارب بين أlbret وفيليب عندما التقى في أواخر عام ١٢٩٩، حيث تم الاتفاق على زواج رودولف بن أlbret إلى الأميرة الفرنسية بلانش . Balnche

وفي السياسة الداخلية سار أlbret على مناصرة المدن لضرب الاقطاع الذي يمثله كبار الأمراء . ولما كان مصدر قوة هؤلاء الأمراء يكمن فيما فرضوه من ضرائب جديدة في عصر الفوضى الذي أعقب وفاة الامبراطور فريدريك ، لذلك أصدر أlbret مرسوماً ألغى به جميع الضرائب التي صدرت بعد عام ١٢٥٠م، وعند هذه المرحلة شعر الأمراء بالخطر الذي يحيط بهم فتكثروا ضد أlbret وساندهم في ذلك بعض كبار الأساقفة، ولكن أlbret وجه ضربات متلاحقة لهؤلاء وأجبرهم على إلغاء الضرائب التي فرضوها على الأهالي والاعتراف بحق حكام المدن في منح إمتيازاتها وولايتها على المواطنين الذين يسكنون حول المدينة، ومن المشاكل التي تصدى لها أlbret مشكلة وراثة العرش في كل من بوهيميا وهنغاريا ، وهي المشكلة التي كانت سبباً في مقتله في عام ١٣٠٨ على يد ابن أخيه يوحنا.

## آل لكسنبورج : هنري السابع (١٣١٤ - ١٣٠٨)

بعد أن لقي أlbret مصرعه يستبعد الأمراء آل هابسبورج وتم اختيار

هنرى السابع أمير مقاطعه لكسمبورج ملكاً على ألمانيا ، و بذلك دخل تاريخ المانيا حاكماً جديداً من لكسمبورج . ولم يكن فى وسع آل ها بسبورج أن يفعلوا شيئاً بعد الصدمة التي تلقوها بموت ألبرت المفاجئ سوى الاعتراف بالملك الجديد مقابل الاعتراف بما تحت سلطانهم من أراضى وممتلكات .

والمهم هنا أن ألمانيا سوف تشهد مرحلة جديدة من الصراع الداخلى بين آل هابسبورج وآل لكسمبورج وما سيكون لذلك من نتائج على السياسة الألمانية الداخلية والخارجية .

وفي السياسة الداخلية فقد تقرب هنرى إلى كبار الامراء ، وذلك بالغاز الامتيازات التي كان ألبرت قد منحها للمدن ، ومعنى ذلك أن صغار الملوك وحكام المدن قد أصبحوا فى جانب ، وأن هنرى وكبار الملك قد أصبحوا فى جانب آخر . كما أراد هنرى أن يقوى من مركز أسرته فى الحكم ، فاستغل فرصة الثورة التى قامت فى بوهemia ، وانتهت بطرد ملكها هنرى أف كارنشيا Henry Of Carinthia فى عام ١٣١٠ ، وزوج إبنه يوحنا من اليزابيث إبنة حاكم بوهemia الأسبق ونسلاس .

أما فى السياسة الخارجية فقد ارتبط بإيطاليا كثيراً ، وكانت البداية عندما أراد أن يحصل على التاج الإمبراطوري ، ولذلك أنشغل ثلاثة أعوام ١٣١٣ - ١٣١٤ م حتى حصل على أملاك التاج فى مدينة بافيا ، وأقام نائباً له فى مقاطعة لمباردى ، ثم تحالف مع حاكم مدينة ميلان ، واتجه بعد ذلك إلى روما حيث توج فى كنيسة القديس بطرس فى التاسع والعشرين من يونيو عام ١٣١٢ م . وبعد ذلك اتجه إلى الشمال وحاصر مدينة فلورنسا دوّرخ نجاح ، والنتيجة العامة لذلك كلّه فى إيطاليا كانت ضياع أمل الجبلين خارج إيطاليا ، ومن فلورنسا استعد هنرى لشن

الحرب على مدينة نابولي ولكنها مات قبل أن يكمل حملته . والمهم هنا أن حملات هنري على إيطاليا كانت فاشلة ولم تعد بالربح على ألمانيا ، وبوفاته عاد الصراع داخل ألمانيا على عرش البلاد وأنتهى فيليب الرابع ملك فرنسا هذه الأوضاع وأمن وجوده داخل مدينة ليون التي أستولى عليها من ألمانيا في عام ١٣١٠ م.

لويس الرابع ١٣٤٦ - ١٣١٤ م

ظل الصراع على العرش داخل ألمانيا أكثر من سبع سنوات ، ويرجع هذا الصراع إلى عاملين رئيين ، أولهما : عدم وجود ملكية مركبة قوية تسيطر على طموح كبار الأمراء ، والثانى عدم وجود قواعد ثابتة يتم بموجبها انتخاب أو اختيار الملك . وقد ترتب على العامل الثانى أنه عند وفاة هنري السابع إجتماع الأمراء لانتخاب الحاكم الجديد ، وكان هناك مرشحان رئيسيان . الأول هو الابن الأصغر للملك الراحل هنري وهو يوحنا ملك بوهemia (١٣١٣ - ١٣٤٦ م) من آل لوسمبورج ، والثانى فريدرريك حاكم النمسا ، وهو ابن ألبرت الأول من آل هابسبورج . ثم ظهر على الساحة مرشح ثالث وهو لويس دوق بافاريا الذى هزم فريدرريك فى نوفمبر من عام ١٣١٣ م . وبدأ آل لوسمبورج فى مساندة لويس باعتباره رجلاً قوياً يستطيع أن يقف أمام مرشح آل لوسمبورج . وقد أسفرا الإنتخاب عن حصول لويس على خمسة أصوات ، بينما حصل فريدرريك على أربعة أصوات وأصبح الصدام العسكري ضرورياً لحل هذه المشكلة . وظل الصراع حتى سبتمبر من عام ١٣٢٣ م ، وانتهى بانتصار لويس فى معركة مولدورف Muhldorf الذى عرف فى تاريخ ألمانيا باسم لويس الرابع . وكان من أهم مظاهر حكم لويس الرابع هو الصراع بينه وبين الباباوية ، فقد استغل البابا فترة الصراع فى ألمانيا وتدخل فى الشؤون

الاداريه الالمانيه فى ممتلكاتها فى ايطاليا ، وعين روبرت الاول ملك نابلي ( ١٣٤٣ - ١٣٠٩ ) نائباً للامبراطور الالماني فى ايطاليا . وظل الحال كذلك حتى عهد البابا حنا الثاني والعشرين ، وعند هذه المرحلة التي انتهت بانتصار لويس على فريدرىك رأي البابا أن يقوم لويس بعرض القضية بالمتلكات الالمانية فى ايطاليا على المحكمة الباباوية فى روما ، فرفض لويس وتطور الامر وأصد البابا قرار الحرمان ضد لويس .

وقد ظهرت بعض العوامل التي أدت إلى إضعاف الباباوية وتنحية موقف لويس ملك ألمانيا ، ومن العوامل التي أدت إلى إضعاف الباباوية كثرة الخلافات الدينية وحركات الهرطقة داخل الكنيسة الغربية ، وأنتهاء الحرب الصليبية التي استغلها الباباوية لتنحية مركزها ، وأنتهاء بعض الجماعات العسكرية مثل جماعة الداوية ، والأسر البابوى فى أفينون ، ومواقف ملوك وحكام أوروبا من الباباوية .

أما العوامل التي أدت إلى تقوية مركز لويس ، فهو الشعور القومي الالماني ، ومن هذه المدخل إجتماع الناخبون الالمان فى مدينة رينز Rense فى عام ١٣٣٨ م ، وقرروا مبدأ فى غاية الاهمية فى تاريخ المانيا بخاصة وما سيكون له من نتائج على تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، فقد قرروا أن السلطة الزمنية مستمدة من الله مباشرة وأن الحاكم الذى يتم اختياره في المانيا ملكاً أو إمبراطوراً يصبح الحاكم الشرعي للبلاد ، بدون موافقة البابا أو أي سلطة دينية أخرى . وقد عقد إجتماع آخر فى مدينة فرانكفورت ، وقد أيد المؤمن الاخير قرارات المؤتمر الاول ، وأصدر عدة قرارات أخرى من شأنها تهدئة الاحوال داخل المانيا وتنحية السلطة المركزية ، ثم تحالف لويس مع إدوارد الثالث ملك انجلترا حتى يتمكن من الوقوف فى وجه الباباوية .

ورغم هذا كله فإن لويس تراجع فجأة عن موقفه المتشدد مع البابوية

وألغى تحالفه مع ملك إنجلترا ، وتصالح مع فيليب السادس ملك فرنسا ( ١٣٢٨ - ١٣٥٠ م ) ، لعله يستطيع أن يصلح أحواله مع الباباوية، ولكن هذا التصرف قد أضعف من مركز لويس داخل المانيا ، وظل الحال كذلك في الوقت الذي ظهر فيه التنافس من جديد بين آل لوكسمبورج وأآلها بسبورج ، وفي عام ١٣٤٦ م أصدر البابا كلمون الرابع ( ١٣٤٢ - ١٣٥٢ م ) قراراً جديداً يقضى بحرمان لويس من رحمة الكنيسة . وفي الوقت نفسه نصّح البابا بإجراء انتخابات جديدة في المانيا لاختيار حاكم جديد ، وتم انتخاب شارل حاكم مورافيا Moravia حفيد هنري السابع وهو من آل لوكسمبورج ليتولى الحكم في المانيا . وعلى أثر هذه التطورات وقعت معركة كريسي Crecy في أغسطس عام ١٣٤٦ م، هزم فيها شارل حاكم مورافيا ، وفر من أرض المعركة . وقد أضعف هذا التصرف من مركز شارل وقوى من مركز لويس ولكن الاخير مات في اكتوبر عام ١٣٤٧ م

#### شارل الرابع ١٣٤٧ - ١٣٧٨ م : -

عند موت لويس أصبح عرش المانيا مهياً لأن يتولاه شارل الرابع، والحقيقة أن ذلك يرجع إلى موقف الباباوية بالإضافة إلى مساندة بعض الامراء . ويرى البعض أن شارل الرابع يعتبر من أعظم الحكام الذين تولوا حكم بوهemia ، ولكنه لم يحكم الامبراطورية بالنجاح الذي حكم به بوهemia . ولعل ذلك مرجعه إلى مرض الوباء الاسود الذي هدد العالم في الفترة من ١٣٤٨ - ١٣٤٩ م وما كان لهذا المرض من تأثير على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بعد أن مات بسببه أكثر من ثلث السكان في أوروبا .

والواقع أن عهد شارل تميز بحدث هام وقع في عهده ، وهذا الحدث هو

صدر المرسوم الذهبي Golden Bull في عام ١٣٥٦م . وقد وضع هذا المرسوم القواعد المنظمة لانتخاب إمبراطور ألمانيا دون تدخل الباباوية أو الرجوع إليها ، وقد حدد المرسوم سبع شخصيات فقط في انتخاب الإمبراطور وهم رؤساء أساقفة مدينة كولونيا ، ومينز ، وتزيف ، وملك بوهemia ، ودوق بافاريا ، ودوق سكسونيا وأمير برانденبرغ Brandenburg ، وقضى المرسوم أن يتم الانتخاب في اجتماع يعقد في مدينة فرانكفورت ، وأن يتم التتويج في مدينة أكس لاشابل . وقضى المرسوم أيضاً على أنه في حالة اختيار أي ملك أو أمير من الولايات أو المدن السبع فإن أرضه تؤول إلى ابنه الأكبر فقط دون منازع حتى تظل وحده الملكية ثابتة ولا تتعرض للانقسام .

ومن الطبيعي أن يعلن البابا أنوسنت السادس ( ١٣٥٢ - ١٣٦٢ م ) عدم رضاه عن هذا المرسوم ، ولكن شارل الرابع لم يبال بموقف الباباوية ، وبذلك انقطعت الصلة بين الإمبراطورية الرومانية والباباوية التي كانت من قبل هي صاحبة الحق الوحيد في منح اللقب الإمبراطوري لحاكم ألمانيا ، وهي الدولة الوحيدة في أوروبا التي قسمت بهذا اللقب بعد شارلماן.

وتغلبت عاطفه الابوه على شارل الرابع ، فرغم أن المرسوم الذهبي ينص على وراثة ابن الأكبر لابيه خشية تفتت الملكية ، إلا أن شارل قام بتقسيم أملاكه بين أولاده . وقد أدى هذا في النهاية إلى إضعاف آل لوكسمبورج وسيكون لذلك أسوء الأثر على الأسرة بعد ذلك .

ونسلاس ( ١٣٧٨ - ١٤٠٠ م ) نهاية آل لوكسمبورج : -

لقد عهد شارل لابنه ونسلاس قبل وفاته ، ففي عام ١٣٧٦م قامت هيئة الانتخاب بانتخابه ثم توج في العام نفسه إلى جانب والدة ، ولكن

ونسلاس كان لا هيا مستهتراً فعزل في عام ١٤٠٠م ، وأعقبت ذلك فترة من الاضطرابات دامت حوالي عشر أعوام إنتهت بتوسيع أخيه سيجيسموند Sigismund حاكم هنغاريا حكم الامبراطورية منذ ١٤٠١م ثم مع بوهيميا منذ عام ١٤١٩م وحتى عام ١٤٣٧م . وقد مات دون وريث ذكر فخلفه البرت الثاني من بيت هابسبورج الذي حكم لمدة قصيرة ١٤٣٨ - ١٤٣٩م ، وتولى بعد ابنه فريدريك الثالث ( ١٤٣٩ - ١٤٥٣م ) . وقد ساعدت الفترة الطويلة التي حكمها فريدريك الثالث في التمكن لآل هابسبورج بالسيطرة على البلاد وظل اللقب الامبراطوري مقصراً على آلها بسبورج حتى عام ١٨٠٥م عندما وضع نابليون نهاية الامبراطورية الرومانية .

#### رابعاً: الباباوية في القرن الثالث عشر البابا أنوسنت الثالث ( ١٢١٦ - ١١٩٨م )

في الوقت الذي ظهر فيه المغول في آسيا ، كان البابا إنوسنت الثالث يجلس على عرش الباباوية في روما . وكان هذا البابا على درجة واسعة من العلم والمعرفة . إذ درس اللاهوت في باريس كما درس القانون في بولونيا ، ولم يكن ملوك أوروبا وأباطرتها المعاصرين له قوته وصيته ، فقد برهن على أنه سياسي ماهر سريع البديهة متتطور لمقتضيات الظروف والاحوال ، وكانت آمال إنوسنت الثالث تحصر في العمل على تسوية كافة مشاكل المالك ليسودها السلام حتى يتمكن من تسخير كافة القوى الأوربية في غزو مدينة بيت المقدس التي استردتها صلاح الدين في السابع والعشرين من رجب ٨٥٣هـ ( ٢١٧٨م ) ، خاصة بعد أن نجح أخيه العادل في جمع شمال البيت الآيوبي ، وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر التي كانت قوة المسلمين ومعقلهم المنبع ومركز تقوينهم بالمال والمؤمن والسلاح . وغير خاف أن البابا إنوسنت الثالث كان

يرمى من وراء ذلك إلى رفع شأن الباباوية وأن يكون له السلطة الدينية والدنيوية . وكان في الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق تلك الأمال ، فضلاً عن الهدف البعيد الذي ينحصر في فرض سيطرة الغرب الأوروبي على العالم الإسلامي .

لذلك بدأ البابا إنوسنت عهده بالكتابة إلى البناقة يطلب منهم لا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال في الحرب ، وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقعوا أشد العقاب عليهم . كذلك سارع بالكتاب في عام ١١٩٩ م إلى بطريق بيت المقدس الاسمي إمرى الراهب Aiemry The Monk (١١٩٧ - ١٢٠٢ م) يطلب منه تقريراً مفصلاً عن الحال في بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكلمة البيانات التي تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض ، كما طلب الشئ نفسه في عام ١٢١٣ م من الداوية والاستادية ، ويبدو أن هذه التقارير كانت ترسل إليه من أن الآخر . فقد أرسل إليه بطريق بيت المقدس الاسمي أيضاً تقريراً في عام ١٢١٤ م ، وقد اشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الأهمية تضمنت بعض النواحي السياسية والاجتماعية والعسكرية الخاصة بال المسلمين . فمن الناحية السياسية تضمن الحديث عن البلاد التي يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم ، وإشتمل الجانب الاقتصادي الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية في مصر ، وعن الناحية الاجتماعية تناول الحديث أحوال المسيحيين والمسلمين واليهود وعلاقتهم الطيبة بال المسلمين ، والجانب الخطير في هذا التقرير هو الجانب العسكري ، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن المصرية هي مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسلة وكيفية دخول السفن من دمياط التي كانت مفتوحة مصر أنا ذاك .

والواضح من هذا أن البابا أنوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتيني وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الامال الكبير التي رسمها لنفسه والكنيسة . وإذا كان البابا قد استهل عهده بالعمل على دعم الحركة الصليبية التي بدأ يشويها الفتور ، فإن الحوادث التي جرت في أوروبا اثناء توليه كرسي الباباوية ، مكنته من أن يبسط نفوذه على معظم ربع أوروبا تقريباً . واستطاع أن يعلى شأن الباباوية لما قام به من جهد طوال فترة بابويته حتى أصبح السيد الأوحد الذي لا منازع له مما هيأ الجو للدعوة للحملة الصليبية الخامسة بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت في تحقيق أغراضها .

وكان ظهور حركة الهرطقة من الامور التي شغلت بالباباوية خاصة بعد أن استفحلا أمرها . وحاول أنوسنت في أول الامر اقناع الهرطقة بالعودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية في روما واتباع تعاليمها ، ولكن مبعوثيه فشلوا في هذه المهمة . وتعاطف ريموند كونت تولوز مع الهرطقة وتقبل أراءهم ورفض أداد الباباوية بالقوة الكافية للقضاء عليهم . وأخيراً أتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا في عام ١٢٠٤ ، إلا أن فيليب كان مشغولاً بصراعه ضد حنا ملك إنجلترا . وكرر البابا نداءه لملك فرنسا ١٢٠٥م وأيضاً في عام ١٢٠٧م دون جدوى .

وتتطورت الحوادث وأصدر البابا قراراً حرماناً ضد ريموند كونت تولوز لرفضه إعادة الكنائس التي أستولى عليها ، فضلاً عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا . ولم يطق البابا صبراً على هذا التمرد الذي من شأنه القضاء على النفوذ البابوي في الملك الأوربي ، فدعى إلى حمله صليبيه ضد هؤلاء الهرطقة وهي المعروفة بالحملة الإلبيجنسية ، وكان على رأس الداعين لها جاك دي فتري James of Vitry الذي عين فيما بعد أسقفًا لعكا (١٢١٦-١٢١٨) ، وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨م (٦١٥هـ) وأرخ لها أيضًا .

وقد لبى بعض الامراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أوف مونتفرات  
الذى تولى قيادة الحملة واستطاع هزيمة ريموند عام  
١٢١٣م ، لذلك كافية البابا بأن لا يه ببعض الامارات الاقطاعية المجاورة  
له، وهذا يدل على مدى النفوذ البابوى وسيطرته على السلطة الزمنية .  
ولم يستطع فيليب أن يقف مكتوف الايدي ويضم أذانه عما حدث حتى  
لا تضيع هيبيته أمام البابوية وأوربا فارسل ابنه لويس للمشاركة فى هذه  
الحملة عام ١٢١٣م وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب ، إلا أن سلوك  
سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونت تولوز فى  
استرداد أملاكه، ثم قتل سيمون فى عام ١٢١٨م .

ورغم هذا نجد أن الغرب الأوروبي فى أواخر القرن الثاني عشر وبدايات  
القرن الثالث عشر للميلاد مسرحاً للقلائل والاضطرابات والمشاكل  
الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية  
فعالة ضد المسلمين وكان على رأس البابوية فى ذلك الحين شخص من  
أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا أنونسانت الثالث الذى كان  
يعتبر نفسه خليفة الله على الارض وأن الحكام والملوك أتباعه وعماليه ،  
وليس أدل على ذلك من موقفه من ملوك الغرب وحكامه . وقد بلغت  
البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن أصبحت أوربا تحت  
رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء .

### البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م)

لعل أهم الأحداث التي وقعت في عهده جانياً من الصراع الذي دار  
بين الامبراطورية والبابوية التي تضيق هذه الصفحات بذكرها . ومرجع  
هذا الامر أن الامبراطور فريدرريك الثاني قد وعد منذ توليه بعدم ضم

جزيرة صقلية إلى الامبراطورية الرومانية ، كما وعد بعد مجلس اللتيران الكنسى الذى عقد فى عام ١٢١٥ م بالتوجه إلى الاراضى على رأس حمله لتحرير مدينة القدس وإستعادتها من أيدي المسلمين بعد أن سقطت فى أيدي صلاح الدين ١١٨٧ م ، ولكنه ماطل ثم توج ابنه هنرى فى ١٢٢٠ م ليكون خليفته فى حكم الامبراطورية وصقلية معاً . ولم يكن فريدريك جاداً فى وعده ولم يلحق بالحملة الصليبية الخامسة التي قدمت إلى مصر وأستولت على مدينة دمياط فى عام ١٢١٩ م . ورغم زواج الامبراطور فريدرick من وريثه عرش مملكة بيت المقدس الصليبية الاسمية، الا انه لم يتقدم بخطوة عملية لتنفيذ وعده بالذهاب إلى بلاد الشام واستعادة القدس .

وقد ازعجت هذه التصرفات البابا إلى حد كبير يضاف إلى ذلك أن فريدرick إتخذ بعض القرارات التي ترمي للحد من نفوذ رجال الدين فى المانيا ، وهو الأمر الذى أزعج الباباوية باعتبار أن رجال الدين يقعون تحت سلطان البابا ، كما أن فريدرick تمسك بكل حقوقه فى اقليم لمبارديا الامر الذى اثار مدن اقليم لمبارديا ، وبدأت تحالف من جديد ضد الامبراطور ، وعلى أثر ذلك ضاق البابا ذراعاً بتصرفات فريدرick مما مهد لنزاع جديد بين الباباوية والامبراطورية . وما لبث أن توفي البابا فى مارس ١٢٢٧ م.

### البابا جرن بجورى التاسع ( ١٢٤١ - ١٢٢٧ م ) :-

كان قد بلغ الثمانين من عمره عند اختياره ليجلس على عرش الباباوية ، ورغم كبر سنه الا انه كان قوى الارادة حازماً ، وأصر على قيام الامبراطور فريدرick بحمله صليبيه إلى الشرق ، وقد أستعد الامبراطور

فريدريك بحملة صليبية ضد بلاد الشام ، وقد إستعد الامبراطور للسفر واتجه إلى مدينة برنديزى الإيطالية بنية الابحار إلى عكا ، ولكنه مرض ولم يكمل رحلته . وهنا أعتبر البابا أن الامبراطور يتمنى وغیر راغباً في محاربة المسلمين فأصدر قراراً في التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٧ بحرمان الامبراطور من رحمة الكنيسة . وكان رد الامبراطور على ذلك أن كتب إلى حكام أوروبا يوضح موقفه وحقوق الامبراطور . ورد البابا على ذلك بأنه أعاد إصدار قرار بالحرمان ضد الامبراطور في عيد القيامه للعام التالي ١٢٢٨ ولم يبال فريدرick بذلك وأبحر بحملته الصليبيه بعد دعوه الملك الكامل له لاستلام بيت المقدس ، ورغم أن الامبراطور قد حق نصراً كبيراً في حملته هذه ، الا أن البابا أرسل إلى الصليبيين في بلاد الشام يحذرهم من التعامل مع فريدرick باعتباره محروماً من رحمة الكنيسة ، ورد فريدرick على ذلك بأن توج نفسه ملكاً على بيت المقدس ، ومعنى ذلك أن فريدرick تلقى التاج من الله مباشرة دون وساطه رجال الدين وعلى رأسهم البابا .

وعاد فريدرick بسرعه إلى برنديزى فانزعج البابا واعتقد أنه سوف يهاجم مدينة روما ، فاستعد للدفاع عن نفسه ، وأخيراً بدأت المفاوضات بين البابا والامبراطور ، التي أنتهت بما يعرف بصلح سان جرمانو St - Germano الذي وقع في يوليو عام ١٢٣٠ ، ويوجب هذا الصلح تم رفع قرار الحرمان الذي وقع على الامبراطور واعترف البابا بالمكاسب التي عادت على المسيحية بعودة بيت المقدس ، وذلك مقابل اعتراف الامبراطور بحق الباباوية في السيادة على صقلية ، وتعهده بحماية أملاك الباباوية .

لم يكن ما يحدث سوى هدنه موقته ، لأن الباباوية تختلف تماماً في سياستها عن سياسة الامبراطور فريدريك التي ترمي إلى تقويه نفوذه الامبراطور في إيطاليا ، الأمر الذي ازعج المدن اللمبرادية وجعلها تحالف ضد الامبراطور ، ولكنها هزمت قرب مدينة ميلان في نوفمبر عام ١٢٣٧ عند مدينة كورتنوفا Cortenvova . وتدخل البابا للوساطه بين الطرفين ، ولكن فريدرick لم يقبل ذلك فوقف البابا إلى جانب المدن اللمبرادية والبنادقه . وتطورت الاحداث وأصدر البابا قرار بحرمان ضد الامبراطور في يوم عيد السعف عام ١٢٣٩ ، ورد الامبراطور بغزو الاراضى الباباوية في فبراير عام ١٢٤٠ ، وأحس البابا بضعف مركزه بعدما إبتعد عنه من ساندوه ، ولم يجد امامه سوى أن يعلن حملة صليبية ضد الامبراطور.

وفي عام ١٢٤١ م دعا البابا رجال الدين في كافة المالك المسيحية إلى مجلس ديني عام في قصر الاتيران في روما ، وظن فريدرick أن الغرض من إعقاد هذا المجلس هو أصدار قرار بحرمانه من رحمة الكنيسة كما هو مألف ، فعمل على منع هذا الاجتماع . ولما كان الترتيب يقضى باجتماع رجال الدين في مدينة جنوة ، فقد عمل فريدرick بمعاونة حلفائه على ضرب السفن الجنوبيه حتى لا يتم الاجتماع ، وقد نجح الامبراطور في ذلك حتى أنه تم القبض على بعض رجال الدين ، ولكن فريدرick أفرج عنهم أمام تهديد لويس التاسع ملك فرنسا بشن الحرب على الامبراطور ، وما لبث أن مات البابا في الحادي والعشرين من أغسطس . وتقلد كلستين الرابع منصب الباباوية حتى نوفمبر من العام نفسه .

#### أتوست الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ م)

ظل الكرسي البابوي خاليا لمدة تسعه عشرة شهراً . وقد ترك الكرادلة مدينة روما واتجهوا إلى مدينة أنياني ، وكان الامبراطور فريدرick وراء هذا التأخير ، وعلى أثر ذلك تكونت عصبة للوقوف في وجه الامبراطور .

وتعهدوا بالدفاع عن الكنيسة ورعايتها ، وفي نهاية الامر تم انتخاب أحد الكرادلة الجنوبيين ليصبح البابا أنوسنت الرابع . وقد أرسل الامبراطور من جانبه وفداً لتهنئة البابا ولعقد اتفاقيه سلام بين البابا والامبراطور ورفع قرار الحرمان . وقد تم عقد المعاهده بين الطرفين ، ونظراً لماظلة البابا فى رفع قرار الحرمان لم تتفذ المعاهده . وفي يونيو عام ١٢٤٥ دعا البابا مجلس عام فى مدينة ليون حضره أساقفه من فرنسا وإسبانيا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ، واستكلندا وأيرلندا وقليل من المانيا ، وفي هذا المؤتمر جدد البابا قرار الحرمان على الامبراطور فريدرريك وعزلة من منصب الامبراطور . وعند هذه المرحله أرسل الامبراطور الى كل أمراء أوروبا يطلب مساعدتهم . وهنا تدخل الملك الفرنسي لويس التاسع بين الامبراطور والبابا حيث تقابلوا فى أحد أديرة مدينة كلونى Cluny ولكن البابا رفض بدعوى أن الامبراطور قد أخل بوعده .

وتصاعد الموقف عندما كتب البابا رسالة فى الحادى والعشرين من ابريل ١٢٤٦م يطلب منهم اختيار ملكاً آخر للمانيا وحدد لهم شخصية هنرى حاكم ثورنجيا ، ولكن الامراء الالمان ظلوا أوفياء للامبراطور ، إلا أن بعض رجال الدين وعلى رأسهم أساقفة مدن كلونى ، وتريف ويرمن ومنيوز وسبير وغيرهم وقفوا الى جانب هنرى فاشتعلت الحرب التى قتلت فيها هنرى فى العام التالي ( ١٢٤٧م ) ، وبناء على توجيهه من البابا تم اختيار وليم ايرل هولندا ملكاً على المانيا . وظل الصراع بين البابا والامبراطور حتى موت الاخير فى ديسمبر ١٢٥٠ .

وعندما علم البابا بموت الامبراطور غادر مدينة ليون بعد أن قضى بها ست سنوات ، وعاد الى ايطاليا وظل لبعض الوقت فى مدينة بروجيا ، وفي المانيا تولى العرش كونراد الرابع ابن فريدرريك ، ولكن البابا رفض

الاقرار بأى حقوق له فى صقلية وأبوليا وأعلن أن هذه الاراضى هى اقطاع من البابوية . ولكن كونرادلم يعبأ بذلك وتقدم الى إيطاليا وسيطر على الموقف فى المدن المتمردة ووضع أخيه على الممتلكات الإيطالية وعلى جزيرة صقلية . وقد رفض البابا الاعتراف بأنه يحكم صقلية أى فرد من عائلة فريدرick ، ورشح لها رি�تشارد أوف كورنويل أخ ملك إنجلترا ، وشارل أوف انجو أخ ملك فرنسا ، ولكن كلاهما رفض هذا العرض .

وفي مايو ١٢٥٤ م مات كونراد وخلفه وراءه ابنه كونرادين وكان عمره ستة وثلاثين وتولى الوصاية عليه مانفرد الذى ارسل الى البابا يطلب منه وضع كونرادين تحت حمايته ، وأنه سوف يسلم مملكة صقلية للبابوية . وبذلك عقد السلام بين الباباوية والمانيا ولكنه كان سلاماً قصيراً فسرعان ما تمرد مانفرد على البابوية وكسب معركة عسكرية ضد حلفاء البابا . وعندما علم البابا بأنباء هذه الكارثة سقط صريح المرض ثم مات فى مدينة نابلي في ديسمبر ١٢٥٤ م . وما يذكر للبابا إنوسنت الرابع السفارات التي ارسلها الى المغول ، وسيرد ذكرها بالتفصيل فى الفصل الرابع .

#### الكسندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١ م)

وفي مسلسل الصراع بين البابوية والامبراطور أصدر البابا الكسندر فى شهر مارس فى عام ١٢٥٥ قرار الحرمان ضد مانفرد ، ثم اعقب ذلك بمعاهدة عقدها مع هنرى الثالث ملك إنجلترا منح بموجبها جزيرة صقلية إلى إدموند Edmund أبن هنرى . ولم ينته الامر عند هذا الحد فقد قامت ثورة فى مدينة روما يقودها بعض النبلاء ضد السناتور Brancaleone Brancaleone وطالبوا بعزله عن وظيفته وسجنه ، وقد تم عزله ثم أعيد الى وظيفته بعد سنتين . ولكن البابا أصدر ضده قرار الحرمان لتحالفه مع

مانفرد ضد البابا ، وقد هدد برانكاليون بالانتقام من مدينة أنياني مسقط رأس البابا بازالتها من الوجود ، فاضطر البابا للرضوخ إنقاذاً للمدينه . وتشجع مانفرد بذلك وأعلن سيادته على صقلية وأبوليا وكالابريا واجبر حلفاء البابا على الفرار من أمامه . وهدد البابا بإزالة قرار الحرمان على مانفرد إذا لم يحضر إليه أو يخضع لشروط البابا . ولكن الأخير توفي بعد قليل ، والمنافسه على عرش المانيا وصقلية مشتعلة .

#### أوريان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤ م)

ويعد ثلاثة أشهر من موت البابا الكسندر تم اختيار أوريان الرابع، ومع اختياره كانت الحرب دائرة بين المتنافسين على عرش المانيا وهم ريتشارد أوف كونويل والفونسو ملك قشتالة . وقد حاول البابا التوسط في الصراع ، ولكن ريتشارد رفض عرض البابا . وهنا تدخل الامراء الالمان وأختاروا كونرادين الابن الاصغر للامبراطور كوانزاد . ولكن البابا عارض هذا الاختيار بكل قوّة وهدد بقرار الحرمان لكل من يحاول انتخاب أي عضو من سلالة فريدريك باعتبارها أسرة معادية للكنيسة .

وكانت سياسة البابا ترمي لإبعاد مانفرد عن عرش صقلية وأخضاعها للسيادة البابوية . ولذلك طلب البابا من هنري الثالث ملك انجلترا اعلان الحرب على مانفرد لأن إرموند ابن هنري قد رشح لعرش الجزيرة ، واعتبار هذه الحرب حرباً صليبية . ولكن حرب الامراء الانجليز ضد ملكهم هنري جعلوه يرفض طلب البابا . وعند هذه المرحلة عرض البابا عرش صقلية على شارل كونت أنجيو مره أخرى ، وقد قبل شارل عرض البابا . وخلال هذه المرحلة زوج مانفرد ابنته إلى جيمس الثاني ملك أرغون ، وكان ذلك سبباً دفع البابا الى إزالة عقوبة الحرمان على مانفرد . وقد اندفع الاخير وسمح لفرق العربية التي كانت تدافع عنه كما

كانت تدافعت عن فريدريك من قبل بأن تتوغل في أراضي البابوية ، ولكن الجلفين دافعوا عن البابوية وعن مدينة روما . ولما أحس البابا أنه غير آمن في المدينة غادرها إلى مدينته بروجيا لكنه مات في اكتوبر ١٢٦٤م ، في الوقت الذي كان مندوبه جيدو Guido قد اتجهت إنجلترا ليصدر قرار الحرمان ضد النبلاء الانجليز الشائرين ، ولكن الملك الانجليزي منعه من دخول إنجلترا فإضطر إلى إصدار قرار الحرمان من مدينة بولونيا أمام جمع كبير من رجال الدين الانجليز . وما لبث أن وصل إليه خبر وفاة البابا وتعيينه خلفاً له .

#### كلمنت الرابع ( ١٢٦٨ - ١٢٦٥ )

وكان أول ما فعله كلمنت هو الكتابة إلى شارل كونت أنجو يطلب منه الحضور لتولي عرش صقلية الذي أسنده إليه البابا الراحل . وتم استقبال شارل في روما بكل ترحاب بعدما وصل من مارسيليا التي غادرها في أبريل عام ١٢٦٥م . وقد تعهد شارل في البداية بأنه سوف لا يتطلع ولا يتطلع خلفاؤه من بعده لضم عرش صقلية لعرش المانيا أو لمبارديا أو تسكانيا ، كما وافق على دفع ألفين أوقية من الذهب إلى البابا وحصاناً أبيض أصيلاً كل عام . وهكذا أصبح شارل سيداً على صقلية بمساندة من البابوية ، ولكنه عامل أهالي الجزيرة معاملة سيئة ، وسيكون لذلك أسوأ الأثر في نفوس المواطنين حتى كتبوا في النهاية رساله إلى كونرادين في بافاريا الذي لم يبلغ السادسة عشر من عمره للقدوم لتولي عرش صقلية ، وقد قبل كونرادين العرش ، وتوجه إلى إيطاليا حيث سانده الجبليون في مدن الشمال .

وانزعج البابا لتشل هذه الأحداث وأصدر قرار الحرمان ضد كونرادين ولكن الأخير لم يعبأ بذلك ، وتقدم حتى وصل مدينته روما حيث تم الترحيب به ، وقد نجح كونرادين بما معه من قوات في هزيمة قوات شارل

من الفرسين في بداية الامر ، ولكن هزم في التاسع والعشرون من أكتوبر ١٢٦٨م وأسر وأعدم ومعه صديقه دوق النمسا . وما لبث أن مات البابا كلمت الرابع في نوفمبر من العام نفسه .

### جريجوري العاشر ( ١٢٧١ - ١٢٧٦ )

ظل العرش البابورى خاليا بعد موت كلمت حوالي ثلاط سنوات، وفي النهاية تم اختيار ثيوبالد الذى عرف باسم جريجوري العاشر . وفي السنة التالية لحكمه مات ريتشارد أف كورنويل المطالبة بعرش ألمانيا ، كما أغتيل ابنه هنرى من قبل . وأثناء عودة الامير الانجليزى إدوارد من حملته على بلاد الشام زار البابا فى روما وطلب منه إصدار قرار الحرمان على المتورطين فى اغتیال هنرى . والمهم هنا أن العرش الالماني أصبح خاليا أمام الفونسو ملك قشتالة ، ولكن البابا رفض مساندته وأيد تعیین رودولف أف هابسبورج الذى اختاره الامراء الالمان ليكون ملك عليهم ، وقد توج فى سبتمبر عام ١٢٧٣م فى مدينة أكس لاشابل .

والحقيقة أن الهدف الرئيسي للبابا جريجوري العاشر كان توحيد كافة المالك المسيحية بهدف إرسال حملة صليبية الى بلاد الشام تحالف مع المغول بعد أن تدهورت أحوال الصليبيين فى عكا وطرابلس وأنطاكية ، ولذلك دعا البابا الى مجلس عام عقده فى مدينة ليون فى عام ١٢٧٤م . ومن أجل توحيد المالك المسيحية اتجه البابا الى شمال إيطاليا لانهاء الخلاف بين الجولفيين أنصار البابوية والجلبيين أنصار الامبراطور ، وقد فشل البابا فى مهمته وأنهى الامر باصدار البابا قرار القطع من رحمة الكنيسة على مدینتى فلورنسا وميلان .

وفي أول مايو عقد المجلس فى مدينة ليون واستمر حتى السابع عشر من يونيو عام ١٢٧٤م ، وقد حضر هذا المجلس خمسمائه من الأساقفة

وبسبعين من رؤساء الاديرة وألف من الرتب الدينية الصغيرة، كما حضر جيمس الاول ملك أراغون ( ١٢١٣ - ١٢٧٦ م ) رغم كبر سنه ، بالإضافة الى البطريرك الاتيني في القسطنطيني و بطريرك أنطاكيه وسفراء عن ملوك المانيا وفرنسا وانجلترا وصقلية وقبرص . وقد وافق الحاضرون على الاعداد لحمله صليبيه تحالف مع المغول وأن يتم جمع عشر الدخل من أجل بيت استعادة بيت المقدس . وخلال انعقاد المجلس وصل رسول الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوج ليعلن عن رغبة الامبراطور في خضوع كنسية القسطنطينيه الأرثوذكسيه لتعاليم كنسية روما الكاثوليكيه وسيطرتها عليها ، وكان ذلك يعتبر خطوة ايجابية في سبيل توحيد الكنستين الشرقية والغربية، ولكن ذلك لم ينفذ . وقد وافق المجمع على اختيار رودولف ملكاً على المانيا ، ونبذ فكرة تعيين الفونسو ملك قشتالة ، وهناك نقطه هامه اقرها المجلس ووضع فيها قواعد إنتخاب البابا ودون تأخير كما حدث من قبل ، وقد تم الاتفاق علي أن يتم اجتماع الكرادلة لانتخاب البابا بعد عشرة أيام في المدينه التي مات فيها البابا ، وذلك في مكان منعزل ولا يسمح لأحد بالدخول عليهم واذا لم يتوصل الكرادله الى اختيار البابا بعد ثلاثة أيام ، فيقدم اليهم الطعام المسموح به من خلال فتحه صغيرة تزداد في النقصان حتى يتم اختيار البابا . ومالبث البابا أن مات في يناير عام ١٢٧٦ م .

#### البابا أنوسنت الرابع ( ١٢٧٦ م )

تولى عرش البابوريه لعدة شهور بدأت من يناير حتى يونيو ، شغل البابا فيها نفسه ، باتباع سياسة سلفه وهي مواصلة السعي للإصلاح بين الولف والجبلين ، فأرسل سفراً لهذا الغرض ، كما حاول التوفيق بين الملك الالماني رودلف وبين شارل أف انجو ، وسعى أيضاً لتأكيد السياده

الباباوية على أراضيها في إيطاليا . ومات البابا وخلفه هادريان الرابع الذي توفي في أغسطس من العام نفسه ، ثم أعقبه البابا يوحنا الحادي والعشرين الذي تولى عرش البابوية من سبتمبر ١٢٧٦ حتى مايو ١٢٧٧ م . وخلال هذه المرحلة لم تتغير السياسة البابوية داخل أوروبا أو موقفها من الحروب الصليبيّة والتحالف مع المغول .

### نيقولا الثالث ١٢٧٧ - ١٢٨٠ م :

ومع تولي البابا نيقولا عرش الباباوية، كان رودلف ملكmania لا يستطيع الحضور إلى روما لتقديره التاج الإمبراطوري بسبب بعض الأوضاع في بلاده . وفي يونيو عام ١٢٧٨ م قدم رودلف تأكيداً بحقوق الباباوية على الإمبراطورية، ووعد باعادة الاراضي التي تخصل الباباوية إلى البابا ، ولذلك كافية البابا بأن عينه نائباً في مقاطعة تسكانيا ، وهو المنصب الذي تولاه من قبل شارل أف أنجو . كما كان على البابا أن يواجه شارل أف أنجو ملك صقلية الذي عارض انتخابه كبابا للعالم الغربي ، ولكن الموقف عولج بعد قليل عندما تزوج أحد أقارب البابا من إحدى قريبات شارل .

وما يذكر للبابا نيقولا أنه زاد من مساحة منطقة مبني الفاتيكان وأضاف إليها نافورة وحديقه ، وأنه أصر على وحدة الكنيسة الشرقيّة والغربيّة وهو الامر الذي عرضه مندوب الإمبراطور البيزنطي في مجلس ليون ، ولكن هذا الاصرار كان نظرياً ولم يوضع موضع التنفيذ . ومات البابا فجأة في أغسطس عام ١٢٨٠ م في منزلة الريفى الذي يقع بالقرب من مدينة فيتربو Viterbo ثم دفن في روما .

### مارتين الرابع ١٢٨٥ - ١٢٩١ م

اجتمع الكرادلة في مدينة فيتربو بعد وفاة البابا نيقولا الثالث ولكنهم

عجزوا عن اختيار البابا الجديد ، وفي هذه المرحلة إستخدم شارل أف أنجو نفوذة لتأمين عملية إنتخاب بابا تتفق اهواهه مع أهداف ومصالح شارل ، وتم القبض على أثنين من الكرادلة كانوا من أقرباء البابا الراحل وأودعا في السجن بتهمة تعطيل الانتخاب ، وفي فبراير عام ١٢٨١ تم اختيار البابا الذي عرف باسم مارتين الرابع وكان أول ما فعله البابا هو وضع مدينة فيترو تحت قرار القطع من رحمة الكنيسة بسبب الاحداث التي وقعت بعد وفاة البابا سلفه .

وإنشغل البابا بقضية توحيد الكنيسة الشرقية والغربية ، وأنزل قرار الحerman على الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوج بسبب عدم التزامه بمعاهدة وحده الكنيسة التي اقرها مجلس ليون . وجدير بالذكر هنا أن الامبراطور البيزنطي لا يعنيه من قريب أو بعيد قرار الحerman لأنه تابع للكنيسة الشرقية ويدين بالمذهب الارثوذكسي وليس الكاثوليكي . وانما تأثير هذا القرار ترجع قوته الى أنه يحرم على حكام وشعب أوروبا التعامل مع الامبراطور . ويرى البعض أن شارل أف أنجو كان له مصلحة كبيرة في صدور مثل هذا القرار ، لأنه كان يخطط لحمله عسكرية ضد الامبراطورية البيزنطية ، وأن البابا لبى طلب شارل كرد للجميل أوالدور الذي لعبه في عمله إنتخابه في مدينة فيترو .

وفي عهد البابا مارتين وقعت أحداث كبيرة كان لها أكبر الاثر على الباباوية وعلى كافة حكام أوروبا بما فيها مملكة أراغون في الاندلس والأمبراطورية البيزنطية وعلى الحروب الصليبيه في الشرق وخانينة فارس الغوليه . وتعرف هذه الحادثة باسم المذبحه الصقلية The Sicilian Vespers ، رغم أن كلمة vesper تعنى صلاة الغروب . وموجز أحداث هذه المذبحه أن الباباوية كان لها دوراً كبيراً في تعيين شارل أف أنجو ملكاً على جزيرة صقلية حتى تفصلها عن الامبراطورية الرومانية في ألمانيا .

وأن شارل عامل أهل الجزيرة معاملة سيئة حتى ضاقوا به ذرعاً ، حتى انهم كتبوا إلى كونرادين للقدوم إليهم وتولى أمر الجزيرة ولكن فشل وقتل . ومع تطور الاحداث زوج مانفرد الذي كان مرشحاً لعرش صقلية أبنته كونستانس إلى بطرس بن جيمس الثاني ملك أراغون ، وبذلك يكون بطرس صاحب الحق في عرش صقلية بعد وفاة مانفرد . وعلى هذا النحو أصبح شارل والبابا في جانب ، وشعب صقلية وملك أراغون والأمبراطور البيزنطي المحروم من رحمة الكنيسة في جانب ، وعلى ذلك يقال أن هذه الحادثة هي مؤامرة نسجت خيوطها في أراغون والقسطنطينية ثم نفذت على أرض مدينة بالرمون في صقلية . وقد تولى أمر هذه الشورة يوحنا حاكم بروسيدا Procida وهو طبيب ، وقد أبعده شارل من أراضيه ، وقد خطط يوحنا لعزل شارل وتعيين بطرس الاراغوني على عرش صقلية . وقد تم تحديد يوم عيد القيامة الذي وقع في آخر مارس عام ١٢٨٢ م موعداً لتنفيذ المؤامرة .

وعندما دقت اجراس الكنائس لتعلن وقت صلاة الغروب نهض أهل صقلية جمياً وذبحوا كل الفرنسيين الذي كانوا على أرض الجزيرة ، وقد رتبت هذه العملية بتخطيط جديد ، ولم تفرق بين السن أو الجنس ، وعند هذه المرحلة تقدم بطرس ملك أراغون إلى الجزيرة بإسطوله وتوج ملكاً على الجزيرة ، وتشير هذه الاحداث إلى أن بطرس يعتبر ضالعاً في المؤامرة والتخطيط لهذه المذبحة .

وفوجيء البابا بهذه الاحداث فانزل قرار الحرمان على الملك بطرس ووضع الجزيرة باكملها تحت قرار القطع من رحمة الكنيسة ، ولكن أهل الجزيره ساندو بطرس وأصرروا على عدم عودة شارل البغيض ، كما تحرك شارل وحصل على مساعدة بعض الفرق الفرنسيه وأبحر إلى نابلي ومنها إلى صقلية والقى الحصار على مضيق مسينا ، وهنا تدخلت الوساطة

للصلح بين الطرفين .

واقتصر شارل أقامة مبارزة فردية بينه وبين بطرس لجسم القضية ، واقتصر أن تكون مدينة بوردو مكاناً لهذه المبارزة . ولما كانت هذه المدينة تقع ضمن الأراضي الفرنسية فقد رفض الملك الانجليزي إدوارد إقامة المبارزة ، كما أن البابا حرم إقامة مثل هذه المبارزات ، لذلك لم تتم المبارزة وتصاعد الموقف وأصدر البابا في مارس عام ١٢٨٣م قراراً بحرمان بطرس من رحمة الكنيسة ، وأحل اتباعه من قسم الولاء الذي قدموه إليه . ورغم هذا القرار فقد ظل اتباع بطرس في أراغون وصقلية مخلصين له . وأمام هذه الأحداث منح البابا ملكة أراغون إلى شارل أف فالوا *valois* أصغر أبناء الملك الفرنسي فيليب الثالث .

وتحرك شارل أف أنجو وذهب إلى مقاطعة بروفانس لجمع بعض القوات الفرنسية ، وأثناء هذه المرحلة نجح الأسطول الأрагوني في الانقضاض على أسطول شارل وحطمه في ميناء نابلي ، وقد تم أسر ابنه ويدعى أيضاً شارل أمير سالرنو . وقد حزن شارل أف أنجو لذلك حزناً شديداً وبدأ اليأس يتسلل إلى نفسه ، ورغم هذا فقد اسرع لنجدته ابنه ولكنه ما لبث أن مرض ومات في مدينة فوجيا *foggia* في السابع من يناير عام ١٢٨٥م ثم ما لبس أن مات البابا مارتين في التاسع والعشرين من مارس في العام نفسه .

#### هonorius الرابع - ١٢٨٥ - ١٢٨٧

تولى السدة البابوية المشكلة الصقلية على أشدّها ، وفي نوفمبر من عام ١٢٨٥ مات بطرس ملك أراغون وصقلية ، فتولى حكم أراغون ابنه الأكبر الفونسو ، كما تولى حكم صقلية ابنه الثاني جيمس الذي توج في مدينة صقلية . ومن أجل حل هذه المشكلة اتفق شارل الثاني أمير سالرنو

وملك نابلي الاسير في تلك المرحله مع جيمس ملك صقلية، وتم توقيع  
معاهده بين الطرفين ، تم التسليم بموجبها بحق جيمس في عرش صقلية  
مقابل تحرير شارل الثاني من الاسر. واعتراض البابا علي هذه المعاهده  
وأصدر قرار الحرمان على الملك جيمس ، ورد عليه الملك بأنه ينكر حق  
الباباوية في التدخل في شئون صقلية ، وعارض البابا فشله في قضية  
صقلية بأن تقرب الى رودولف ملك المانيا وتم الاتفاق على قيام البابا  
بنج الملك لقب الامبراطور، ولكن وفاة البابا في ابريل عام ١٢٨٧ م ،  
منعت الملك من الحضور الى روما ولم يتم التتويج .

نيقولا الرابع ( ١٢٨٨ - ١٢٩٢ م )

تولى عرش الباباوية ولازالت مشكلة صقلية باقية ، وبدأ عهده بمساندة  
شارل الثاني ملك نابلي ضد حكام أراغون وتدخل إدوارد الأول ملك  
إنجلترا وتكون من فك أسر شارل الثاني ، وعلى ذلك تمت معاهده ثانية  
بين جيمس وشارل الذي تنازل عن دعواه في عرش صقلية . واعتراض  
البابا نيقولا كما اعتراض سلفه على المعاهده بدعوى أن مملكة صقلية  
تعتبر إقطاعية باباوية ، وليس من حق شارل أن يسلمها لأحد .

ويقى الباباطول العام الاول من عهده مقينا في روما ، وفي ربيع عام  
١٢٨٩ م حدث اضطراب في المدينة فاضطر إلى الانسحاب إلى مدينة  
ريتي Rieti حيث قام بتتويج شارل الثاني في التاسع والعشرين من مايو ،  
ملكاً على صقلية وأبولي ، وأعلن شارل نفسه تابعاً للبابا رغم أن صقلية  
كانت تحت حكم جيمس الأراغوني .

وحاول الفونسو ملك أراغون أن يحل بلاده من قرار القطع الذي  
أصدره البابا مارتين في عام ١٢٨٣ م ، فدخل مع البابا نيقولا في  
مفاوضات تعهد بموجبها الفونسو ألا يساند دعوى أخيه جيمس في

الأحقيه بعرش صقلية ، ولكن الفونسو ما لبث أن مات بعد قليل ١٢٩١ دون أن يترك وريثاً يخلفه على العرش ، فتولى عرش اрагون جيمس ملك صقلية وترك صقلية لأخيه الأصغر فريدرريك . وطالب البابا جيمس بأن يقر الاتفاق الذي عقده الراحل الفونسو مع الباباوية وهو التخلّى عن عرش صقلية ، وهنا رفض جيمس عرض البابا ، فاشتعلت الحرب من جديد بين جيمس وبين شارل الثاني أمير نابلي .

واهتم البابا هونوريوس الرابع بقضية الحروب الصليبية ، واستعد أن يمول على نفقة الخاصة جيشاً من ألفين من المشاة وخمسمائة من الفرسان ، وأن يستأجر السفن من البناية لنقل هذه القوات إلى الأرض المقدسة والتحالف مع المغول ، ولكن الأخبار وصلت إليه بتداعي بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام ، وقد ملأت هذه الأخبار قلب البابا بالأسى وأحس بالعار الذي لحق به ، وكان لهذه الأحداث أكبر الأثر على أوروبا جميعاً ثم ما لبث أن مات البابا في أبريل عام ١٢٩٢ م .

#### كلستين الخامس ١٢٩٤ م

ظل كرسى البابا بوبية شاغراً لمدة أكثر من عام وذلك لاختلاف وجهات النظر حول انتخاب البابا الجديد الذي عرف باسم كلستين الخامس وهو من مدينة أبواليا ابن فلاح فقير له أحدى عشر طفلاً . وقد أصبح كلستين راهباً منذ حياته المبكرة على الطريقة ال Benedictine ، وأحب حياة العزلة وعاش في كهف بالقرب من مدينة سولمونا Sulmona . وعندما علم شارل الثاني ملك نابلي بأن البابا الذي يتم اختياره يرجع إلى مدينة أبواليا ، اعتبره من أتباعه أو من رجاله ، فأسرع إليه ومعه ابنه شارل مارتل ملك هنغاريا إلى كلستين واصطحباه إلى مدينة أبواليا ، وقد دخل كلستين المدينة راكباً حماراً دليلاً على تواضعه ، وقد أمسكا بليجام الحمار شارل الثاني

وابنه شارل مارتل وسارا أحدهما على يساره والآخر على يمينه ، وقد إصططف الآلاف من المواطنين لمشاهدة الموكب ، وتم تتوبيجه في مدينة أبواليا في أغسطس عام ١٢٩٤م، ثم تقدم كلستين بعد ذلك إلى مدينة نابلسي واتخذ من القصر الملكي مقراً له حيث أصبح أداء ضعيفه في أيدي الملك شارل الثاني ، وقد رفض كلسرين الذهاب إلى بروجيا أو إلى روما. وعند هذه المرحلة شعر الكرادله بالخطأ لاختيار هذه الشخصية ليصبح على رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وبدأوا في التخطيط للتخلص منه. ويقال أن بونيفاس الثامن الذي خلف البابا كلسرين لعب دوراً كبيراً ليجعله يتخلى عن منصبه ، ويقال أيضاً أن البابا نفسه كان مريضاً وأنه لا يريد شيئاً سوى أن يعود لعزلته كراهب .

وفي ديسمبر عام ١٢٩٤م جمع البابا الكرادله وأعلن اعتزاله ، وقد إصطحب بونيفاس كلسرين في الطريق إلى روما حيث نجح الأخير في الهروب وعاد إلى مدينة سولونا حيث يوجد بالقرب منها الكهف الذي عاش فيه . وقد استقبله الرهبان بكل ترحاب ، ولكن بونيفاس الذي خلفه على عرش الباباوية أرسل رجاله للقبض عليه. وعندما علم كلسرين بذلك استقل سفينه بهدف الهرب إلى ساحل دلماشيا ، ولكن عاصفة قوية أجبرته على العودة حيث تم القبض عليه حيث أودع في قلعة فومون بالقرب من مدينة أنياني حيث مات بها .

### بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣ م)

تم اختياره بابا في ديسمبر عام ١٢٩٤م ، ولم يعترض شارل ملك نابلسي على هذا الاختيار . ورغم جيمس ملك أراغون في العام التالي في عقد سلام مع الباباوية ، وتنازل عن دعواه في حكم صقلية ، ولكن شقيقه فريديريك الثالث رفض هذه الفكرة وتمسك بحقه في حكم الجزيرة ، وقد سانده أهل صقلية في دعواه وتوجوه ملكاً على صقلية في مدينة

بالرمو فى مارس ١٢٩٦ م . ورد البابا بونيفاس على ذلك بإصدار قرار  
الحرمان ضد الملك فريدرىك . ولما كان أخوه جيمس قد وعد بمساندة  
الباباوية فى حقوقها ، لذلك أصبح مضطراً لحمل السلاح فى وجه أخيه  
فريدرىك .

وفى عام ١٣٠٢ م قام شارل أوف فالوا الذى سبق أن منحه البابا ملكة  
أragون كاقطاعية باباوية له ، قام بحملة على صقلية ، ولكن فريدرىك  
هزمه ، ورغم هذا تحول عن موقفه وتصالح هو وأخوه جيمس مع البابا .  
وقد منح البابا جيمس جزيرتى سردينيا وكورسيكا كمكافأة له على  
مساندته .

وقد أقحم البابا نفسه فى العداء السائد بين عائلتى أورسينى orsini  
وكولونا ، وقد لعب كل منهما دوراً كبيراً فى التاريخ السياسى  
والبابوى ، وانحاز البابا الى عائلة أورسينى ، وكان هناك ثنان من  
الكرادلة من عائلة كولونا وكانا قد عارضا انتخاب البابا بونيفاس  
ولكنهما أيدا الانتخاب بعد ذلك .

وكانا لهما نفوذ كبير كمستشارين فى عهد البابا نيكولاوس الرابع ،  
وقد خافا على نفوذهما من البابا بونيفاس لأنهما يساندان أهل صقلية  
عداء الباباوية . وتطورت الاحداث واستعان البابا بقواته عائلة أورسينى  
لتدمير القلاع الخاصة بعائلة كولونا والاستيلاء على أراضيها . وأمام هذه  
الاحداث فرت عائلة كولونا إلى صقلية وفرنسا وساندت الملك فيليب  
الرابع فى صراعه مع البابا بونيفاس الذي طلب بدوره حماية ألمانيا .  
وخلال عهد البابا بونيفاس دار صراع فى مدينة فلورنسا وانقسم الاهالى  
إلى حزبين أحدهما يساند الجبليين والآخر يساند الجلفيين ، وقد أرسل  
البابا مندوياً إلى المدينة لاصلاح أوضاعها ولكنه فشل فى مهمته لذلك

وضع البابا المدينة تحت قرار القطع .

كما طالب أهالى أهل اسكتلندا من البابا حمايتهم من إدعاء ملك إنجلترا إدوارد الأول فى حكم أراضيهم ومارسة النظم الاقطاعيه عليهم ، وفى بدايه الامر ساند البابا إسكتلندا ، وكتب فى يونيه من عام ١٢٩٩م يبلغ الملك إدوارد أن اسكتلندا تحت حماية الباباوية ويطلب الملك بالافراج عن رجال الدين الذين سجنهم . ولكن البابا غير موقفه بعد ذلك عندما احتاج الى مساندة إدوارد ضد ملك فرنسا . أما الصراع بين فيليب الرابع والباباوية فقد ذكرنا جانباً طيباً عنه فى الحديث عن فرنسا فى عصر فيليب الرابع . أما موقف البابا من قضية التحالف مع المغول فسوف نتناوله فى صفحات تالية فى الفصل الرابع .



### الفصل الثالث

#### روسيا والغزو المغولي

##### مقدمة

#### الأمة الروسية قبل المغول

- ١ - روسيا الكيفية
- ٢ - نمو القوة في كيف
- ٣ - تحول روسيا إلى المسيحية
- ٤ - الحرب الأهلية
- ٥ - السنوات المجيدة
- ٦ - السنواتظلمة
- ٧ - نشأة مدينة موسكوفى

#### الغزو المغولي وأمراً روسيا

- ١ - طبيعة الحكم المغولي
- ٢ - ايفان الأول وخلفاؤه

#### تطور الأمة الروسية

- ١ - اقامة حكومة المملكة المستبدة
- ٢ - نشأة رقيق الأرض
- ٣ - الأزمة القيصرية
- ٤ - زمن القلاقل

#### روسيا تحت حكم رومانوف الأول

- ١ - استعادة الاستقرار والسلطة
- ٢ - ثورة فلاحى الفوججا
- ٣ - ضم أوكرانيا الشرقية
- ٤ - الانقسام الدينى
- ٥ - عوامل الضعف المهدد للعرش



## مقدمة :

مع بداية عصر المسيحية كان السلاف أجداد الروس يعيشون في المنطقة التي تعرف الآن باسم شرق بولندا وغرب أوكرانيا ، وغرب روسيا البيضاء ، وكانوا شعباً بدائياً قبلياً يتحدث اللغة السلافية ، وهي لغة من مجموعة اللغات الهندوأوروبية . وخلال الخمسة قرون الأولى للميلاد ، وهي الفترة التي تميزت بالهجرات إلى أوروبا وأسيا ، فإن السلاف أخذوا طريقهم في الهجرة وكانت هجرتهم بطئية ولكنها مستمرة ، وبذلك أصبح من الصعب تحديد تحركاتهم بتاريخ دقيق .

وعلى أيه حال فمن المعروف انه في القرن السادس الميلادي إنقسم السلاف إلى ثلاث مجموعات تحركت في ثلاثة إتجاهات مختلفة ، إلى الغرب ، والى الجنوب ، والى الشرق ، وهاجر السلاف الغربيون وهو أجداد البولنديين poleS والتسيك Czicks والسلوفاك Slovak إلى نهر الألب والأودر Oder ونهر الفستولا الأدنى Lower vistola ، وهؤلاء وقعوا تحت تأثير الثقافة الغربية واعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي وتعاملوا مع الأبجدية الاتينية .

أما السلاف الجنوبيون وهو أجداد الصرب والبلغار فقد هاجروا إلى جبال الكريات وإلى البلقان ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية واعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذوكسي وتعاملوا مع الأبجدية السيريلية Cyrillic . وهي أبجدية سلافية قديمة يقال أن مخترعها القديس سيريل Cyril الذي توفي في روما عام 869 م ، وترجم الإنجيل إلى هذه اللغة ولا تزال أشكالها الحديدة تستعمل في صربيا وبلغاريا والاتحاد السوفيتي .

أما السلاف الشرقيون وهو أسلاف الروس فقد إتخذوا طريقهم إلى بحيرة

ريبوس Reups وبحيرة إلمن Elmen ، إلى نهر الدنيبر ونهر أوكا Oka وأعلى نهر الفولجا ، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة البيزنطية ، وبالتالي تدرج إتخذت ثقافتهم نحوًا يحاكي ثقافة السلاف الجنوبيين ، ولكنهم كانوا مختلفين عن السلاف الغربيين وفي القرن السادس الميلادي كان السلاف الشرقيون بعيدون عن جيرانهم الذين يعيشون في منطقة الأستبس خاصة من هم تحت النفوذ البيزنطي والغربي ، وكانت حياتهم الاجتماعية والاقتصادية هي القبيلة ، وكانوا يعيشون جماعات في منازل بسيطة لا تعدو أن تكون أكشاك خشبية أو في تحجيف جذوع الشجر. وقامت حياتهم على الزراعة بمحاريث خشبية تجرها الخيول أو الثيران ، وعلى الصيد في الأنهر وعلى صيد الحيوانات . وكانت القبيلة تتحرك كلها للبحث عن أرض جديدة ، حيث تكون الطبيعة رحيمة بهم ، لذلك كانوا دائمًا عرضة لهجوم القبائل الأخرى .

لقد عكست الديانة التي اعتنقها هؤلاء السلاف المستوى الثقافي لهم ، وكان العالم بالنسبة لهم غامض ملآن بالشر ، وأن الأرواح الطيبة يمكن أن توجد في بعض الأماكن أو ربا في الصخر أو الجداول المائية أو الأشجار أو حتى في الحيوانات أو الإنسان ، وفوق كل هذه الأرواح تسيطر الآلهة على القوى الطبيعية مثل الإله برون Perun إله الرعد والبرق واستريلوج Stribog إله الرياح والإله سفاروج savarog إله السماء.

ومن أجل الحصول على رضاه هذه الآلهة كان على الإنسان أن يقدم الأضحيات والصلوات أمام الآلهة المصنوعة من الذهب أو الفضة ، ولم يكن هناك قساوسة للقيام بالخدمات الدينية ، بل كان هناك السحرة ، وهم الذين يقومون مثل هذا العمل ، كما انهم كانوا أيضًا يتنبئون بالمستقبل .

وانعكس المستوى الشعافي على تنظيمهم السياسي ، وهو ما يشبه التنظيم الاجتماعي والاقتصادي الذي يعتمد على القبيلة التي كانت تحت قيادة كبارهم وهو الحارس على القيم القانونية ، وهو مصدر التشريع ، وفوق ذلك فإن القبيلة لم يكن لها تنظيم آخر ، وأن الغرض من كل ذلك هو وحدة القبيلة عندما كان الأمر يحتاج إلى الدفاع أو الهجوم .

وكان ثقافة وسياسة السلاف الشرقيين تتقدم منذ ظهورهم في سهول روسيا في القرن السادس الميلادي حتى الوقت الذي بدأ فيه دولتهم في الظهور في القرن التاسع الميلادي ، وقد تأثر ذلك كلها بالطبيعة والبيئة المحيطة وهي الطبيعة التي تميزت الحياة فيها بالمخاطر والمكافأة ، لقد هددتهم قوة الأعداء بالانقراض ، بينما بشرتهم الطرق التجارية الغنية والأرض الخصبة والرصيد الهائل من الغابات وخيراتها والأنهار ، بمستقبل أفضل ، خاصة إذا ما عاشوا في جماعات . وحتى يصبحوا سادة هذه البيئة فقد وجدوا إزاماً عليهم أن يغيروا من نظام حياتهم ، لذلك بدأوا في إقامة منازل ثابتة ودائمة حتى يتمكنوا من تقوية وسائل الدفاع عنهم ، وحتى يخططوا لاقتصاد حقيقي ، ويوحدوا أو يضموا وحداتهم السياسية الصغيرة وهي القبيلة في نظام أكبر وأشمل .

وخلال القرنين الثامن والتاسع الميلادي فقدت القبيلة أهميتها ، وبدأت المدن في الظهور عندما استقر فيها هؤلاء السلاف ، وقد ساعد على نمو هذه المدن وجود الطرق التجارية بين شرق وغرب أوروبا ، ونتيجة لذلك امتدت التجارة بين أوروبا وأسيا ، وكان أهم هذه الطرق التجارية طريق نهر الرود Road الذي يمتد من البحر البلطي إلى البحر الأسود ، وطريق آخر يصل بين بحر قزوين ونهر دفينا Dvinia أو بحيرة لادوجا Ladoga ونهر الفولجا . وكانت أعظم المدن الروسية هي مدينة كييف Kiev ،

وتشرينجوف Chernigor ونوفجورود Novgorod التي فتحت على الطرق النهرية ، وقد ربحت هذه المدن وغيرها من نفوذ التجارة بتصدير الفراء ، والعسل ، والشمع والدقيق التي كانت ترسل إلى القسطنطينية وهي المركز الرئيسي للتجارة البيزنطية وإلى البلاد العربية . وكان يتم تبادل البضائع مثل الحرير ، والعطور ، والتوايل ، والرماح ، والسيوف، والمعادن الثمينة ، وهي التي يعاد بيعها في عودة الرحلة إلى البحر البلطي .

وكان لنمو المدن آثراً كبيراً على الحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية . وقد غير هذا كله من أحوال السلاف الشرقيين فقد ظهرت في كل مدينة نواة للسلطة وهي المجلس العام ، وهو يتكون من جميع الرجال البالغين . ومن وقت لآخر يعين هذا المجلس أميراً على المدينة ومعه بعض المحاربين الذين يتولون أمر حماية المدينة . ومع زيادة الأمان زادت المشروعات وظهرت طبقة من التجار المغامرين ، وبدأت الشروطات في الازدياد والظهور وقد تعاون ذو الشروة والمركز الاجتماعي تماماً مع أمير المدينة من أجل الحفاظ على مصالحهم .

وقد إستطاع العديد من هؤلاء الأمراء تقوية مدنهم بإخضاع المدن الضعيفة ، أو بإتحاد مدنهم الضعيفة مع مدن أقوى من أجل الحماية العامة ، وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة مثل كييف أو نوفجورود أو تشرينجوف ، وسمولنك Smolensk ويلوزيرو Beloozero وإزبورسك Izorsk أصبحت مركزاً لوحدات سياسية واسعة .

وكان نفوذ المدن هاماً جداً لتقدم هؤلاء السلاف ، ولم يتم ذلك في وقت قصير ، ولكنه غير من أنماط الحياة التقليدية . وفي القرن التاسع فإن قوة التجار الفارنجيين Varangians من أهل إسكندنافيا قد ظهرت على طول الطرق النهرية ، وقد قام الفارنجيون بأعمال النهب عندما لا يكون

لديهم تجارة ، وقاموا بأعمال التجارة إن لم يكن لديهم قدرة على النهب ، وكانو قادرين على أن يكسبوا الجانب الاقتصادي والسياسي في المدن السلافية وانهم إستخدموا هذه القوة في تقدم المدن في النشاط التجارى المدنى . وكانت سيطرتهم قد ساعدتهم على النمو السريع للتنظيم السياسي بعيداً عن النمو الروسي .

### تطور الأمة الروسية

مع أن شعوباً عديدة قد عاشت على سهول روسيا قبل قدوم السلاف الشرقيين ، الا أن أيها منها لم يوفق في خلق سياسة مستدامة أو في إستخدام ثقافة قومية ، وقد نجح سلاف الشرق في ذلك ولكن بعد التغلب على مصاعب جمة . فلقد عاقد تقدمهم عوامل كثيرة منها :

- ١ - تخلفهم الثقافي عند هجرتهم .
- ٢ - ضعفهم النسبي كأسبق المتنافسين على أفضل أقاليم السهل .
- ٣ - القتال المستمر والصمود للغارات التي كانت تشنها الجماعات البدوية العديدة .
- ٤ - الضرورة التي فرضت عليهم التسلیم لسيطرة الشعوب التي تفوقهم قوة . والتي تسعى وراء القوة والمكاسب في الأرض التي اختاروها .
- ٥ - الانشقاقات الداخلية التي نشبت بتطوير وتقدير نظامهم السياسي . وكأن الشمن الذي دفعوه للبقاء والتقدم في ظل هذه الظروف هو
  - ١ - الاستبداد المطلق للحكومة
  - ٢ - إستعباد الأغلبية للأقلية
  - ٣ - التخلف الثقافي المستمر

### روسيا الكييفية:

إقامة الدولة الروسية : - ليس من السهل الكتابة عن تسلسل

الأحداث أثناء الفترة التي قامت فيها علاقة وثيقة بين السلافيين والفارنجيين ، وهى الفترة التى شهدت بداية الدولة الروسية ، وذلك بسبب نقص المصادر الموثق بها . وعلى أى حال فإن " Chronicle of Contemporary years" الروسية التى تورد أحداث عن تلك الفترة تعتبر هامة وثقة كتراث للروس ، ولو أن أجزاء منها غير قابلة للتصديق ، ولكن ملخصاً بسيطاً لها يصلح على الأقل كمقدمة لسرد التاريخ الروسي .

وفقاً للحواليات ، بدأ الفارنجيون القادمون من إسكندنavia الـواشـقـون من تفوقهم في الحصول على ضرائب من السلاف في منتصف القرن التاسع ، وقد أدى هذا إلى إثارة السخط ، ودفع السلاف إلى الشورة ضدتهم وطردهم مرة أخرى إلى إسكندنavia . ولكن سرعان ما سادت الفوضى وعدم الأضطراب من محاولة السلافيين حكم أنفسهم إلى درجة انهم توسلوا للفارنجيين أن يعودوا ويحكموهم .

وقد لبى الدعوى ثلاثة إخوة فارنجيين وهم روريك Rurik وسينيوس Sineus وتروفور Truvor ، وأقبلوا مع أتباعهم المسلحين ، وقد نصب روريك نفسه أميراً في مدينة نوفgorod ، وسينيوس في بلوزيرو Beloozero وتروفور في إزبورسك Izborsk . وفي خلال عامين توفى سينيوس وتروفور تاركين روريك يسيطر على منطقتيهما ، وبينما كان روريك يهتم بشئون إمارته الواسعة فإن أتباعه من السلافيين والفارنجيين عبروا حدود الإمارة واستقروا في كييف وأقاموا علاقات تجارية واسعة ، وبعد وفاة روريك في 879م اعترف بإبنه إيجور Igor ، وكان طفلاً صغيراً وريثاً له في أرضه وسلطته ، ولكن لما كان إيجور طفلاً صغيراً فقد حكم بالنيابة عنه قريبه أولج Oleg حتى بلغ الطفل سن الرشد ، وقد أثبت أولج أنه

أوسع طموحاً من روريك في توسيع وقوية إمارته . فإذا استولى على مدينة كييف وأقام بها سلطة مركبة على كثير من المدن الأخرى التي أخضعتها لحكمه ، بما في ذلك المراكز التجارية الهامة مثل سمولنسك ونوفgorod ، وبعد هذا كسب أتباعه من سلافيين وفارنجيين ، وأطلق عليهم جميعاً إسم الروس من الكلمة الفارنجية (Rus) ، نتيجة حمايتهم وتنظيم مستوطناتهم وتأمينهم في ترويج تجارتهم مع بيزنطة . وهكذا وضع أولج آساس دولة روسيا الكييفية ، وهي دولة حكمها الأمراء المتعاقبون من سلاله روريك .

إن أجزاء من تلك الرواية ثبتت صحتها بالمصادر الموثوقة بها . فقد يكون من المؤكد أن الفارنجيين كانوا قد وطدوا في النصف الثاني من القرن التاسع سيطرتهم الحربية والسياسية على المستوطنات السلافية الشرقية ، وأنهم كانوا قد نجحوا في تكوين نواة دولة مركبها كييف ، وأنهم توّلوا سلطة الحكم في تلك الدولة وأنه خلال القرن العاشر كان اسم الروس يطلق على الدولة الوليدة وشعبها كما تدل الشواهد . على أن أحد الفارنجيين وإسمه روريك كذلك كان قد إكتسب وضعًا بارزاً بالنسبة لبعض المدن السلافية في الفترة التي تعنيها الحواليات . وأنه كان أول من أسس عائلة حاكمة روسية توفى آخر أفرادها وهو فيودور عام ١٥٩٨ م . وهناك نقط في الرواية لا زالت موضع جدل خصوصاً بالنسبة لكلمة Rus (روس) وردها إلى أصل فارنجي لأن الكثير يعتقد أن أصلها سلافي شرقي .

ومع أن السلافيين في تلك الفترة المبكرة قبلوا قيادة الفارنجيين في الشؤون السياسية والاقتصادية إلا أنهم لم يقبلوا ثقافتهم . وعلى العكس فإن الفارنجيين هم الذين تطبعوا بخصائص الثقافة السلافية ، واستمرت الدولة النامية سلافية في الأساس .

## ٢ - نو القوة في كيف :

في بداية القرن العاشر كان الروس قد وطدوا مركزهم في كيف إلى حد استخدامها كمعقل لحماية تجارتهم في نهر الدنبر الأسفلي ، لأن هذا النهر كان طريقاً خطراً إلى القسطنطينية - وخلال المائة سنة التالية كان أمراء كيف قادرين على تقوية ذلك المركز ، ويسلط سلطانهم على القبائل والمدن التي تقع على إمتداد الطريق النهري ، وضم مساحات جديدة إلى الدولة التي يسيطرون عليها ، ولكن تقدمهم لم يكن سريعاً أو سهلاً ، وكانوا يعهدون بإدارة الأراضي الخارجية (أى الإمارات) إلى الأقارب الذين لم يكن لهم اهتمام سوى عزل قريتهم في كيف من كرسى الإمارة وليس توسيع سلطانه . وظلت الدولة أقرب إلى كيان مفكك . فضلاً عن المضايقة المستمرة من الأعداء الخارجيين خاصة الخزر Khazars والبجناكية (البشناق) Bechenegs الذين كانوا يتنافسون معها على الطرق التجارية الجنوبيّة ، ومع ذلك استمر أمراء كيف في تعزيز إمتيازاتهم . فقد نجحوا أن يبقوا أعداءهم على مسافة آمنة لعدة أعوام وفي كبح مطامح الأمراء الصغار . وفي نفس الوقت حافظوا على العلاقات التجارية مع الإمبراطورية البيزنطية ، واستطاعوا بالتدريج أن يأمنوا شرها بتكرار إستعراض القوة العسكرية الكيفية ، والتي وصلت في بعض الأحيان إلى مهاجمة القسطنطينية مثلما حدث في عام ٨٦٠ م . والواقع أن الهجوم الروسي لم يستهدف الغزو بل كان من أجل السلب والنهب ، لذلك عادت القوة الروسية بعد أن حققت أهدافها ، وقد ساعد على ذلك أن الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث Micheal III (٨٤٢ - ٨٦٧ م) كان قد خرج بجيشة لمحاربة المسلمين وعذنا فوتينوس photius بطريق القسطنطينية بجانب من المادة التاريخية حول هذه الأحداث .

وهاجم الروس الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى عندما هاجموها بقيادة أميرهم أولج Oleg ووصلوا حتى أسوار العاصمة في عام ٩٠٧ م . وقد نجح الروس في إنزال بعض الخسائر ببعض الواقع البيزنطية ، وأضطر الإمبراطور ليو إلى التفاوض ، وانتهى الأمر بعد اتفاق بين الطرفين ، وجدد هذا الاتفاق مرة أخرى عام ٩١١ م ، ونصت بنوده على منح الروس تسهيلات وامتيازات بحرية في الأراضي البيزنطية - واستمر السلام بين الطرفين حوالي ثلاثين عاماً إنتعش خلالها التجارة بين الطرفين ، واستمر البيزنطيون في سياستهم التي ترمي إلى كسب الروس إلى جانبهم عن طريق الهدايا . وفي عام ٩٤١ م تعكر صفو السلام بين الطرفين ، فقد قام الأمير الروسي إيجور بحملة فجائحة على العاصمة البيزنطية ، ودخلت السفن الروسية مضيق البسفور ، ورست القوات الروسية على الشاطئ الآسيوي للبسفور في إقليم بشينا Bithynia ونهبوا وسلبوا . وفي ذلك الوقت كانت القوات البيزنطية تحارب في الشرق عند مدينة ملطية ، فإبتدارت القوات وعلى رأسها هنا كوركواس John Curcuas وتوجهت إلى ميدان القتال وهزمت الروس شر هزيمة في إقليم بشينا . وحاولت القوات الروسية الفرار عن طريق البحر ، ولكن القائد البحري ثيوفانيس Theophanes قاد حملة بحرية ضدهم - وهم يعدون العدة للإنسحاب ، مستخدماً النار الأغريقية ونجح في تدمير معظم سفنهم التي قدموا عليها .

وعاود الروس الإغارة على الأراضي البيزنطية في خريف عام ٩٤٤ م ، واستعدوا استعداداً ضخماً هذه المرة وتحالفوا من البحناكية لضرب الإمبراطورية ، وحددوا ميدان المعركة في هذه المرحلة لكي تكون على نهر الدانوب بدلاً من الشاطئ الآسيوي ، ليكونوا على مقرية من البحناكية

المتحالفين معهم ، والواضح أن الإمبراطورية لم تكن على استعداد لملاقاة الروس والبحاكية لإنشغالها بحروبها في الشرق خلال هذا العام ، وما تلى ذلك من الصراع على العرش بين ولدي رومانوس وقسطنطين السابع ، لذلك وجدت الدولة أن من الحكمة أن تريح نفسها من هذا الصراع في الوقت الذي تعلم فيه أن الأموال والهدايا لها مفعول أقوى من مفعول السيف مع مثل هذه الأقوام ، لذلك إنتهى الأمر بالصلح في العام نفسه ، وكلل هذا الصلح بمعاهدة تجارية تتلاقى في خطواتها الرئيسية مع صلح عام ٩١١ م ، ولكنها كانت لصالح الإمبراطورية البيزنطية أكثر منها لصالح روسيا .

Sad السلام بين بيزنطة والروس ، وتوطدت أركان الصداقة بينهما عندما زارت الأمبراطورة أولجا Olga - أرملة إيجور والوصية على العرش الروسي - القسطنطينية عام ٩٥٧ م حيث تم إستقبالها إستقبالاً حاراً وعمدها بوليكتوس polyeuctes بطريق القسطنطينية ( ٩٥٦ - ٩٧ ) ) وسميت باسم هيلينا ، وهو إسم زوجة الإمبراطور قسطنطين السابع ، وإن كان البعض يرى أنها اعتنقت المسيحية قبل ذلك بعده سنوات ، والمهم أن هذا الحدث فتح عصراً جديداً في العلاقات البيزنطية الروسية ، وفتحت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكية أرضاً صالحة للقيام بعملها التبشيري في روسيا .

وعندما أصبح سفياتوسلاف Svyatoslav أميراً لكييف عام ٩٦٤ م ، وجد أن المدينة على درجة من القوة سياسياً وإقتصادياً وعسكرياً تبرر محاولة توسيع المملكة في ظل سيطرتها . فإتجه أولاً إلى الشرق وغزا بلاد الخزر وإستولى على أراضيهم الواقعة عند نهر الفولجا السفلى والدون ، ثم استدار بقوته بناء على طلب الإمبراطور البيزنطي إلى الغرب ضد البلغار على الدانوب ، وهناك ضم إلى إمارة كييف مزيداً من

الأراضي - ولكن طموحه تجاوز الحد وشتت حملاته العسكرية القوة العسكرية لكييف .

وكان البجناكية والإمبراطورية البيزنطية على استعداد لإنهاز الفرصة ، واستطاع البجناكية أن يحرزوا إنتصارات كبيرة ضد الروس حتى أصبحوا يهددون مدينة كييف ذاتها ، كما أجبروا الإمبراطور البيزنطي على التخلّى عن الأرضي الواقع على الدانوب ، وحاول سفياتوسلاف أن يعزّز دفاعاته ، ولكن قبل أن يصلح مافقده كان قد قُتل في عام ٩٧٢ م في مواجهة مع البجناكية .

#### تحول روسيا إلى المسيحية :

من أهم الأحداث خلال حكم فلاديمير تحول الروس إلى ديانة كانت تشكل العنصر الرئيسي في الثقافة البيزنطية - أي الديانة المسيحية - التي تؤديها الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية - أو الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية . ولقد ولدت هذه الكنيسة نتيجة للإشقاقات والإنقسامات العديدة التي دمرت الوحدة الأهلية للكنيسة المسيحية . وبسبب الإنقسام نشأ مركزان دينيان رئيسيان وهما روما . والقسطنطينية . ومع أن الإنقسام النهائي بين هذين المركزين لم يحدث إلا عام ١٠٥٤ . فقد ظهر تنظيميان دينيان مستقلان في القرن التاسع وهما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ومركزها روما ، والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ومركزها القسطنطينية .

وخلال القرن العاشر كان عدد كبير من أفراد الطبقات العليا قد تأثروا بالثقافة والديانة البيزنطية الأكثر تقدماً ، وكان من الطبيعي أن يميل الأمراء والحكام نحو العقيدة البيزنطية ، وحوالي عام ٩٨٨ م استقبل فلاديمير في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بالقسطنطينية ، وبعد سنتين أعلن أن المسيحية هي عقيدة مملكته ، وأمر بعميد كل رعاياه . وكانت

هذه الأعمال سبباً في ضمه إلى القديسين فيما بعد . وأعقب ذلك إقامة أسقفية مركزها كيف لتكون فرعاً للكنيسة البيزنطية ، وكان مطرانها يعين بعرفة بطريك القسطنطينية . وحتى عام ١٢٧٣م كان المطرانة والقسس من الأغريق أو البلغار .

وكان انتشار المسيحية في الروسيا تدريجياً وقد بدأ بالطبقات العليا وانتشرت ببطء في الطبقات السفلية وعلى نحو أبطأ في سكان المناطق الريفية ، واستمرت عبادة الآلهة الوثنية سراً لعدة قرون حتى وجدت بعض العناصر الوثنية طريقها للعقيدة الجديدة تدريجياً . ومع بناء دور العبادة وإقامة الأديرة وتدريب رجال الدين المحليين بدأ الروس في النظر إلى الكنيسة كمركز روحي لهم حتى أصبح القطر الروسي يعرف باسم « روسيا المقدسة » .

كانت لغة الكنيسة في الروسيا هي السلافية وليس اليونانية ، لقد اعتادت الكنيسة الأرثوذكية الشرقية على استخدام اللغات المحلية في الصلاة في المناطق التي تدخلها المسيحية ، ولكن لما كانت الكنيسة السلافية قد نشأت وتطورت في بلغاريا والتي كانت قريبة الصلة باللغة المتداولة في الروسيا فقد استخدمت في الأخيرة كلغة دينية . ولقد تطورت أبجدية اللغة السلافية الكنيسة المبنية على الأبجدية الأغريقية أساساً على يد المبشر سيريل Cyril وذلك في الجزء الأخير من القرن التاسع ، حتى يمكن ترجمة الأدب الدينى إلى اللغة المحلية للسلاف الجنوبيين والغربيين ، وبذلك يمكن تحويلهم إلى المسيحية . وقام شقيق سيريل ويدعى مثوديوس Methodius بترجمة الكتاب المقدس (الإنجيل) للغة السلافية الكنيسة وأعقب ذلك ترجمة النصوص الدينية الأخرى . كانت هذه الترجمات أول عمل أدبي مكتوب متاح للروس وأصبحت نموذجاً لأدبهم الديني . كما أن أدبهم الديني قد استخدم السلافية الكنيسة حتى القرن الثامن عشر تقريباً .

#### ٤ - الحرب الأهلية ١٠٣٦ - ١٠١٥ م

تمزقت روسيا الكييفية نتيجة الصراع على العرش بين أبناء فلاديمير الخامسة لمدة عشرة أعوام بعد وفاته عام (١٠١٥ م) ، وقد بدأ أكبرهم سفياتوبولك Svyatopolk في تبوأ العرش بعد قتل إثنين من إخوته ، ولكنه وجد منافساً له وهو أخي آخر يدعى ياروسلاف yaroslav أمير نوفgorod وقد هزم ياروسلاف الأمير سفياتوبولك عام ١٠١٩ م واخضع كيف وسيطر عليها واعتبر نفسه الأمير الكبير ، وفي ذلك الوقت كان هذا هو اللقب المقبول للحكام الروس الكييفيين . ولكن أخاه الذي ظلل على قيد الحياة ويدعى مستيلاف Mstilav نازعه هذا اللقب ، فإضطر إلى أن يتقاسم معه الملكة حتى عام ١٠٣٦ وهو تاريخ وفاته ، وكان مستيلاف يحكم ذلك الجزء الواقع شرق الدnieper بينما كان ياروسلاف يحكم باقي القطر .

#### ٥ - السنوات المجيدة ١٠٣٦ - ١٠٥٤ م

وبعد عام ١٠٣٦ م إستطاع ياروسلاف المعروف باسم الحكيم باعتباره الأمير العظيم أن يصل بروسيا الكييفية إلى ذروة التقدم عن طريق الاستمرار في المشاريع والخطط التقدمية التي بدأها في سنواته الأولى . وهكذا أخذ يشجع ويحمي العلاقات الاقتصادية الروسية مع الأقطار الأوربية والآسيوية حتى أصبحت كييف ملتقى التجار البيزنطيين والعرب والهولنديين والبولنديين والمجريين والأسكندناويين . كما أصبحت كييف مركزاً للتقدم الثقافي الروسي . وتم تشييد كاتدرائية أيا صوفيا هناك بمساعدة بيزنطة ، كما أقيمت بها مدرس ومكتبات ، وحظي الدارسون والفنانون بالتشجيع واتجاه الشعب إلى الأنشطة السلمية . ورغم أن روسيا الكييفية كانت مرتبطة نحو أوثق بالامبراطورية البيزنطية اقتصادياً

وثقافياً إلا أنها بدأت تعقد صلات أسرية مع العائلات الحاكمة في أجزاء أخرى من العالم وكانت مثل هذه الروابط هامة في تلك الأيام . لقد ارتبط ياروسلاف نفسه بروابط المصاهرة مع ملوك إنجلترا وفرنسا والنرويج وبولندا . ويتوجيهات من ياروسلاف تم تجميع أول مجموعة للقوانين في الروسيا وهي القانون الروسي . ومن حيث الشكل كان هذا القانون على نمط القانون البيزنطي ، وفي المضمون كان عبارة عن ملخص لما يعتبره ياروسلاف الأفضل بين الحقوق والإجراءات التي استقرت بالعرف بين السلافيين والسكندافيين والألمان ، لقد اعترفت أحكامه بالرق كنظام وبالتجارة كنشاط أساسى ، كما اعترفت هذه الأحكام في صورة معدلة بالمارسة العرفية في السماح بتسوية المسائل الجنائية بين أطراف الخصومة ، لقد سمح بالانتقام الشخصي في ظل بعض الظروف ، وفي أحوال أخرى كانت تدفع أموال تدرج حسب المركز الاجتماعي للشخص المضار ، وكان تنفيذ القانون العرفي في ظل القانون الرسمي مشاركة بين الكنيسة والدولة .

#### ٦ - السنوات المظلمة : ١٠٥٤ - ١٢٢٣ م :

عندما توفي ياروسلاف ( ١٠٥٤ م ) إبتداء نور السنوات المشرقة في الأقوال . وعلى أمل تلافي الصراعات الداخلية في المستقبل والاحتفاظ بوحدة الملكة ترك ياروسلاف لكل واحد من ورثته المست إدراة جزء من الملكة ، وأوصى الخمسة الصغار من الورثة بطاعة أخيهم الأكبر الذي سيكون أميراً لكييف . وبعد ذلك إنقسم القطر إلى إمارات تختلف من حيث الأهمية وتتزايد من حيث العدد مع كل جيل من نسل الإمارة . فعند موت أمير كييف فإن أكبر الأمراء يقوم بإخلاء الإمارة التي كان يحكمها ويتولى حكم كييف حاملاً لقب أميرها ، بينما ينتقل الأمراء الأحداث سنّاً في السلم الهرمي للإمارات .

وكان فى هذه الطريقة للخلاقة بعض نقاط الضعف الرئيسية منها : أنها تفرض فى بعض الأحيانا على الريعايا فى الإمارة أميراً جديداً لا يوافقون عليه ، وتسبعد أميراً كانوا يفضلونه لقد سمحت للإمراء بتولى السيادة والملك بترتيب عمرى منتظم بصرف النظر عن قدرتهم ، وكان نجاح العملية يتطلب درجة عالية من الوحدة السياسية والتماسك الثقافى تفوق تلك التى كانت متاحة لروسيا الكيفية . وكانت قوة الأمير العظيم فى كييف العامل الرئيسي فى تماسک القطر ووحدته .

وعندما يتولى السلطة فى كييف أمير ضعيف كان الأفراد الصغار فى العائلة المالكة ، يميلون الى تأكيد طموحاتهم فى السلطة والاستقلال . مكونين تحالفات عسكرية ضد الأمير الكبير أو شانين الحرب ضد المنافسين الآخرين . وقد تطرف البعض إلى حد التحالف مع الأجانب ، كالبولنديين والمجريين وقبائل القفقاچ البدوية .

وأخيراً وفي عام 1113 م ، حكم كييف أمير كان من القوة بحيث إستطاع إيقاف هذا التمزق لوقت قصير - وهو الأمير فلاديمير مونماخ monomakh حفيد ياروسلاف . لقد بذل جهداً لعقد السلام بين الأمراء المتنافسين ، ونجح فى نشر السلام بينهما نسبياً لمدة اثنا عشر عاماً ، ولو أنه أخفق فى إرساء نظام فعال لهم . وفي هذه الأثناء أمكنه أن يوقف غارات القبائل البدوية على حدود الروسيا ، وأتاح لكيف الفرصة فى استعادة بعض رخائها السابق . ولكن لم ينجح فى تحويل قوى التحلل والتفكك إلى قوى بقاءه . وبعد وفاته أخذ الفساد ينخر فى بناء الدولة على نحو أسرع من ذى قبل ، وبدأت كييف تفقد القوة سواء كنقطة مركبة للسلطة السياسية أو كمدينة ، فالسلطة التى تركزت هناك أصبحت مقسمة بحيث أصبحت سيطرة كييف قاصرة على الجنوب فى

حين سيطرت نوفجورود على الشمال ، وغالسيا galicia على الغرب ، سو زدال Suzdal ، وفلاديمير Vladimir على الشمال الشرقي ،

## ٧ - نشأة موسكوفى Muscovy

من بين تلك المدن التي كانت تتنافس على الظهور ، لم تكن هناك مدينة أحسن موقعًا من موسكو ، وهي مدينة أنشئت - حسب المصادر القديمة - في عام ١١٤٧م ، فموقعها الجغرافي بالقرب من قلب الأرض الروسية بالإضافة إلى الأحداث التاريخية وشدة بأس حكامها الأمراء ، كل هذه العوامل وفرت لها مزايا غير عادية للنمو .

ويسبب موقعها على نهر موسكوفا (ويطلق على المدينة باللغة الروسية مدينة موسكوفا) في نقطة مرور طريق التجارة الذي يصل ما بين نهر أوكا Oka وفولغا العليا ، أمكن لأمرائها أن يطوروها كمركز تجاري متين في تحكمون منه على إماراة شاسعة تعرف باسم موسكوفى ، وفي الوقت المناسب استطاع أمراء موسكوفى أن يجعلوها مضفین عليها شعارات ورموزاً وطنية معينة وباستطاعتهم سلطتهم السياسية والعسكرية على المناطق المجاورة .

وبعد هذا التقسيم أخذت كيف تتدحر بسرعة ، وفي عام ١١٦٩م اجتاحت المدينة قوات متحالفه لمجموعة من الأمراء ، وفي خلال ثلاثة أيام كانت قد خربت أو نهبت الكثير . كما أخذت كيف تعانى على أيدي القبائل الرحل التي أخذت تهاجم شمال البحر الأسود مما أدى إلى تقليل حجم التجارة مع بيزنطة وهددت المدينة ذاتها - وبعد أن وقعت القسطنطينية في يد الصليبيين عام ١٢٠٤م وتدهورت بيزنطة نفسها اقتصادياً وسياسياً أصبحت الحياة الاقتصادية لكييف بلا سند أو نصیر . وبعد أن أصبحت روسيا فقيرة وضعيفة لثالث مرة خلال مائة عام صارت فريسة سهلة نسبياً للقوى الأجنبية النهاية ، وكان على حدودها

الكثير من تلك القوى .. وجاءت أولاً قبائل القفجاق البدوية التي أزعجت إمارات في منطقة الأستبس حتى القرن الثالث عشر . عندما ما يئست من النجاح بدأت تتحالف مع مختلف الأمراء الروس .

وفي خلال هذه الفترة جاء اللتز Letts والليتوانيون من منطقة البلطيق الذين طردتهم الفرسان التيوتون من ديارهم بهدف الإقامة في إمارات الروسية الشمالية ، كذلك السويديون الذين أرادوا السيطرة على مصب نهر نافا Neva وقطع تجارة نوفجورود ، ومن الجنوب الغربي جاء المجريون الذين كانوا يندفعون نحو الشرق فاتحين ، خصوصاً في جاء المجريون الذين كانوا يندفعون نحو الشرق فاتحين ، خصوصاً في إمارة غالسيا . وأخيراً جاء المغول من الجنوب الشرقي وهم محاربون متوجهون ومدربون على القتال فاكتسحوا الروسيا من منطقة القوقاز عام ١٢٢٣ م .

## الغزو والمغول وأمراء روسيا

### ١ - طبيعة الحكم المغولي :

نجح المغول في محاولاتهم الأولى عام ١٢٢٣ م في هزيمة الأمراء الروس الذي تحالفوا ضدهم وألحقوا بهم الهزيمة بالقرب من بحر أزوف . وعلى أي حال فاتهم لم يندفعوا في الغزو في ذلك الوقت ، وبدلأ من ذلك عادوا إلى آسيا . وبعد ثلاثة عشر عاماً أي في عام ١٢٣٦ م جددوا هجومهم ، وفي هذه المرة أتوا غزوهם للروسيا في غزوتين رئيسيتين . فقد هاجموا أولاً إمارات الوسطى والشمالية حيث إحتلوا بالقوة أو قبلوا خضوع مدن ريازان ، وكولومنا ، وموسكو ، وفلاديمير ، وسوزادال ، وتفر Tevr ، وفي شتاء عام ١٢٣٨ كانوا على بعد ستين ميلاً من نوفجورود ، ولكنهم عادوا إلى جنوب روسيا هريراً من قسوة الشتاء في الشمال ، ومن قاعدتهم في

الجنوب جددوا غزوهم التالي الذي بدأ عام ١٢٣٩م. الذي أسفرا عن سقوط كييف عام ١٢٤٠ م.

ومن كييف استمروا في الزحف غرباً إلى المجر وبولندا إلى أن اضطروا إلى إيقاف العمليات عام ١٢٤١ م بسبب حدوث تغيرات سياسية في إمبراطورية المغول . وخلال العام التالي أقاموا مراكز رئيسية لهم في ساراي sarai التي تقع على نهر الفولجا بالقرب من ستالنجراد الحالية ، ووطدوا حكمهم وأصبحت الإمارات الروسية التي غزواها ، وتلك التي وافقت على الخضوع ، تعترف بسيادة المغول كما اعترفت بها نوفجورود - ولو أنها لم تتعرض للغزو - وذلك لضعفها . ولكن المغول لم يستطعوا أن يحتفظوا بكل مكاسبهم . ففي النصف الأول من القرن الرابع عشر ضمت دوقية ليتوانيا الكبرى الصاعدة معظم غرب روسيا ( المعروفة الآن بروسيا البيضاء ) ، وفيما بعد ضمت جزء من روسيا الصغيرة ( المعروفة الآن بأوكرانيا ) بما فيها مدينة كييف .

لقد خضعت روسيا فيما عدا مدينة نوفجورود والبلاد الشمالية الغربية للسيطرة المغولية، وقد مات خلال المعارك التي وقعت بين المغول والروس العديد من الأبناء كما في الباقيون، أما العامة فقد ماتوا بالألاف خلال هذه الحروب، كما أن سيدات وأفراد الطبقات العليا قد أصابتهم المزلة ونزلوا إلى ميدان العمل بعد الحياة الرغدة التي عاشوها. وإذا بحثنا على الأسباب التي أدت إلى هزيمة الروس أمام المغول فنجد أنها كثيرة، ولعل أهمها النقاط التالية:

١ - أن المغول لم يكونوا أكثر تقدماً في الجانب العسكري عن الروس الذين تعلموا بعض فنون القتال من أوروبا في تلك المرحلة، ولكن المغول كان لديهم التفوق العددي في كل المعارك التي خاضوها ضد الروس.

٢ - كان تحرك القوات المغولية بمثابة تحرك رجل واحد أمام القوات الروسية المتفرقة، لذلك نجحت في هزيمة قوات أمراء المدن.

٣ - لقد كانت القوات الروسية منقسمة وموزعة داخل روسيا، وإذا ما حاولت القوات الروسية الاتحاد لمواجهة المغول، كانت القوات المغولية تفاجئها قبل الاتحاد بقوات المغولية السريعة الحركة.

٤ - كانت جميع القوات المغولية موحدة عسكرياً تحت قيادة الأمير باطرو وجميعها مسلحة، أما القوات الروسية فإن الأمراء ورجالهم هم الذين كانوا مسلحين فقط، وفيما يتعلق بالغالبية العظمى فقد كانت غير مسلحة، لذلك تعرضوا بسهولة للقتيل أو الأسر.

وبعد سيطرة القوات المغولية على روسيا، شيد باطرو مدينة أكتوبا Aktouboa التي أطلق عليها إسم ساراي Sarai أي القلعة، وهي التي أصبحت عاصمة لغول القبيلة الذهبية التي إمتدت ممتلكاتها من جبال الأورال بحر قزوين شرقاً حتى مصب نهر الدانوب على البحر الأسود غرباً. ومن الملاحظ هنا أن القبيلة الذهبية قد ضمت إليها عناصر أخرى غير مغولية مثل البجاكية والكومان وقبائل تركية أخرى، وبدأت تتعلم معنى الاستقرار وظلت دولة باطرو وخلفائه من بعده تحكم هذه المناطق حوالي قرنين من الزمان. ولقد بدأ إستقلال القبيلة الذهبية في عام ١٢٦٠ أي في العام الذي وقعت فيه معركة عين جالوت وهو العام الذي توفي فيه الخان الأعظم مونوكو. وسوف تمر القبيلة الذهبية بمرحلة من الانقسام الداخلي حتى وحدتها مرة أخرى الخان أوزيكي في عام ١٣١٢م، وهو الذي أعاد إليها هيبتها ومجدها مرة أخرى.

لقد كان الأمير جورج الثاني يتولى أمر قيادة قوات مدينة سوزدال ولكن فشل في مقاومة القوات المغولية ولقي مصرعه في إحدى المعارك،

ثم تولى أحد أبنائه قيادة قوات الإمارة ولكن فشل في مقاومة الغزو المغولي وهزم في معركة أوكا Oka، كما أن الأمير ياروسلاف Yaroslaf أخ الأمير جورج الثاني قد هزم في معركة ليبوتسك Lipotsk، وتوجه بعد ذلك إلى مدينة سوزدال. والحقيقة أن الأمير ياروسلاف (١٢٣٨ - ١٢٤٦م) قد وجد إمارة أخيه في حالة سيئة للغاية، فقد وجد جثث الموتى قملأ المدن والقرى، أما الأحياء فقد فروا إلى الغابات، كما كانت الحرائق التي أشعلتها الحروب قد أتت على الأخضر واليابس. وكان على ياروسلاف إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فبدأ في تجميع فلول قوات الإمارة لإعادة بناء القوات المسلحة.

وكان على ياروسلاف أيضاً إن أراد البقاء في إمارته أن يذهب إلى الأمير باطوف عاصمته سراي ليقدم له فروض الولاء والطاعة، وقد استقبل ياروسلاف في العاصمة بكل ترحاب، وأنعم عليه باطوف بلقب أمير الأمراء، وطلب منه التوجه إلى العاصمة قراقورم ليقدم فروض الولاء للخان الأعظم أوكينتاي، وقد ذهب ياروسلاف إلى قراقورم وقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم، ويراً نفسه من الإتهامات التي وجهت إليه، ولكن ياروسلاف مات أثناء عودته إلى بلاده، وقد حمل رفاته جسده إلى مدينة فلاديمير. وكان لياروسلاف ولدين هما أندرو الذي كان يحكم إمارة سوزدال (١٢٤٦ - ١٢٥٢) والكسندر الذي كان يحكم إمارة نوفgorod.

وكان الكسندر هذا قائداً شجاعاً وذكياً ولقب ببطل الشمال، لأنه نجح في شبابه في صد جميع محاولات الغزو المهاجمي خاصه العناصر الفلنديه، وكافة العناصر الاسكندنافية والقوات التي حرکها البابا في شكل حرب صليبية لنشر المسيحية على المذهب الكاثوليكي داخل

روسيا. وقد أدرك الكسندر الذي عرف باسم الكسندر نيفسكي Nevski أن مقاومة القوات المغولية يعتبر ضرراً من الجنون وأن ذلك يعني خراب كل روسيا، وكان عليه أن يتصرف بكل حكمة لمواجهة الموقف. كما أدرك أيضاً أن القوات المغولية بسعها أن تقدم حتى إمارته نوفجورود وإلى أبعد منها إذا لزم الأمر.

وقد بدأ خضوع الكسندر إلى المغول عندما أرسل إليه الخان باطرو رسالة يقول فيها، إن الله قد أخضع لي الكثير من الشعوب، وإن كنت تريد أن تحافظ على إمارتك فعليك الحضور إلينا لترى عظمة ومجد المغول: ولم يكن أمام الكسندر إلا تنفيذ أوامر باطرو، فاتجه إلى العاصمة سراي ومعه أخيه أندرو، ومنها إلى العاصمة قراقورم في عام ١٢٥٧ م ليقدمما فروض الولاء والطاعة مثلما فعل ياروسلاف من قبل. وفي العاصمة المغولية أنبع الخان الأعظم كيسوك على الكسندر بولاية نوفجورود بالإضافة إلى روسيا الجنوبية حتى مدينة كييف، وأنعم على أخيه أندرو بولاية فلاديمير.

وفي عام ١٢٦٠ م تغيرت الأوضاع الداخلية لدولة المغول وأصبح بركه بن جوجي خان القبيلة الذهبية مستقلاً عن بقية الدولة المغولية في منغوليا وفي فارس وفي تركستان الشرقية. وكان على الخان بركه أن يعيد تنظيم دولته. ومن ضمن هذه التنظيمات إجراء إحصاء في ولاية نوفجورود يتم بموجبه تحديد قيمة الضرائب المطلوبة. وعند هذه المرحلة اعترض البعض ورأى الآخرون أنه يجب الخضوع للمغول ودفع الضرائب باعتبار العناصر المغولية دولة قوية. وكان بازيل بن الكسندر من المعارضين على دفع الضرائب، وبدأ التمرد داخل الولاية. ومن أحداثه إعادة السفراء المغول، ولم يكن أمام المغول سوى الاستعداد لمعركة عسكرية ضد الكسندر. وعند هذه المرحلة أحس الكسندر أو عليه أن يواجه التمرد أو المغول، فواجه التمرد وقبض على

ابنه بازيل وأعدمه وأعدم من ساندوه. ورغم هذا كله فقد كانت الثورة كامنة في شعب ولاية نوفجورود، فقد تجمع الأهالي في ميدان كنيسة سانت صوفيا وأعلنوا أنهم يفضلون الموت لهم أحراز عن الحياة وهم عبيد. وعند هذه المرحلة أعلن الكسندر أنه سوف يغادر المدينة ومعه قواته، ويتركها لصیرها في مواجهة المغول. وبذلك تخلى شعب نوفجورود عن الثورة إلى حين.

بعد هذه الأحداث استطاع عمال المغول من جامعي الضرائب أن يدخلوا المدينة آمنين يعاونهم أنصار الكسندر في التنقل من منزل إلى آخر لحصر السكان وتدوين ذلك في سجلاتهم، وتكرر ذلك المنظر في المدن الأخرى التابعة لولاية نوفجورود، ورغم الهدوء الذي ساد المدن الروسية، إلا أنه كان هدوء نسبياً لم يلبث أن انفجر في الوقت المناسب.

ففي عام ١٢٦٢م ثار سكان مدن فلاديمير، وسوزادال وروستوف-Ros-tov، ضد جامعي الضرائب من المغول، وتمادت مدينة ياروسلاف Yaroslav وقامت بذبح أحد جامعي الضرائب من المغول، وكان راهباً مسيحياً اعتقد بالإسلام. وبذلك حل عقاب المغول على المدينة، ولكن الكسندر أنقذ الموقف عندما خاطر بحياته وأسرع إلى مدينة سراي العاصمة المغولية محلاً بالهدايا، وقدم شديد اعتذاره إلى القيادة المغولية عن الحادث وفسر حدوثه إلى التعصب الديني، وليس إلى التمرد على السلطات المغولية. وقد استقبل بركه خان القبيلة الذهبية الأمير الكسندر وتقبل العذر الذي قدمه وأعفاه من دفع الغرامات المطلوبة، وبذلك نجح الكسندر في إنقاذ ولايته من انتقام المغول، واستعد للعودة إلى بلاده.

وأثناء وجود الكسندر في رحلة الوفاق هذه، هاجمت العناصر الشمالية أراضي الإماراة، فاتحدت قوات نوفجورود مع قوات سرزادال تحت قيادة ديمتري ابن الكسندر في صد القوات الغيرة، ومع عودة الكسندر إلى

عاصمته فلاديمير تدهورت صحته ومات في هذا الوقت العصيб الذي تتعرض فيه ولايته للسيطرة المغولية وأخطار العناصر الشمالية، فنعته الكنيسة وأنصاره ومحبيه واعتبر البعض أن الشمس التي كانت تضئ روسيا قد غرت.

والحقيقة أن الكسندر إستطاع بسياسته السليمة مع المغول أن يعيد الهدء إلى بلاده، وأن يمنع العناصر الشمالية من إجتياح أراضيه بقواته العسكرية، وبهذه السياسة المزنة نجح الكسندر في الحفاظ على مجد وهيبة ولاية نوفgorod في هذا الوقت العصيبي الذي لم يتعرض له من قبل.

بعد أن سيطر المغول على روسيا لم يقوموا بأي تغيير في الأوضاع الداخلية للبلاد بصورة مباشرة، فلم يغيروا الدساتير أو القوانين أو الأعراف التي سادت المناطق الروسية، كما أنهم لم يغيروا حكام الولايات طالما قدموا للمغول فروض الولاء والطاعة. يضاف إلى ذلك أن أصحاب الأرضي ظلوا يتلذونها لأن المغول كشعب بدوي فضلوا التمركز في السهول الشرقية والجنوبية الواسعة. ولعل ذلك يفسر لنا بقاء العناصر المغولية متماسكة لفترة طويلة قبل أن تذوب مع العناصر الروسية. أما عن العلاقة بين المتصر وهم المغول والمغلوب وهم الروس فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

**أولاً** : كان على الأمراء الروس الذهاب إلى العاصمة سراي لتقديم فروض الولاء والطاعة أو يتم استدعاء هؤلاء الأمراء لتلقى الأوامر، يضاف إلى ذلك أنه كان على الأمراء الروس الذهاب إلى الخان الأعظم في قراقورم إذا ما طلب منهم خان القبيلة الذهبية التي تحكم روسيا ذلك، وليس ذلك فحسب بل كان عليهم أن يقدموا الهدايا المناسبة متحملين مخاطر الطريق ذهاباً وإياباً، كما كان على هؤلاء الأمراء إتباع الطقوس التي يقوم بها

المغول مثل السجود أمام خيمة الخان قبل دخولها. وكان الأمير لا يتولى أمر إمارته إلا بعد صدور قرار من الخان بذلك.

ثانياً: كان على الروس تقديم ما يسمى بضريبة الرؤوس، وهي ضريبة يدفعها كل فرد، وكانت تمثل عبئاً على الفقراء والأغنياء أيضاً. وكانت الضريبة تسد نقداً أو عيناً مثل الفراء، ومن يعجز عن سدادها ينضم إلى طائفة العبيد. وكان لتعسف جامعي هذه الضريبة دوراً هاماً في قيام العديد من الثورات مثلما حدث عام ١٢٦٢ م كما أوضحتنا وكما حدث عام ١٢٨٤ م في مدينة كورسك Koursk وفي عام ١٣١٨ في مدينة كولومنا، عام ١٣٢٧ في مدينة نفر، وفي الحادثة الأخيرة ذبح الأهالي أحد جامعي الضرائب فتعرضوا للانتقام الشديد.

ثالثاً: وكان هناك أيضاً ضريبة تعرف باسم ضريبة الدم وهي الخدمة العسكرية مع القوات المغولية، وكان على الأمراء الروس تقديم جماعات من الجنود الأشداء وتكون مهمتهم السير أمام الجيش المغولي لتلقي الصدمة الأولى، ومن ذلك أنه في عام ١٢٧٦ م قدم الأمراء الروس قوات كبيرة إلى خان القبيلة الذهبية منكوتسيور (١٢٦٧ - ١٢٨٠ م) لمحاربة شعوب القوقاز، وكان من عادة المغول تسليم هؤلاء الأمراء نصيبهم من الغنائم مثل ما حدث في مدينة ديدياكوف Dediakof.

رابعاً: كان الأمراء الروس مكلفين بالقبض على الثائرين والخارجين على القانون إلى السلطات المغولية، ومن ذلك ما حدث مع المغامر لاخاناس Lachanas، وهو راعي للخنازير قام بالثورة عند منطقة الدانوب.

خامساً: إتباع المغول سياسة فرق تسد. ومن ذلك أنه في عام ١٢٨١ م تنازع أندرو بن السكدر مع أخيه ديميري، وساند المغول أندرو وساعدوه على نهب مدينة فلاديمير، وسوزادال، وموسكو وغيرهما، ولم يفرق هذا

العمل بين المنازل أو الكنائس أو الأديرة. وفي عام ١٢٣٧ م قام أمراء موسكو وسوزدال بحملة عسكرية ضد مدينة نفر بناء على تعليمات صادرة من خان القبيلة الذهبية. وعندما تصارع أولج مع سفياستوسلاف على حكم مدينة كورسك ساند الخان الأمير أولج ودفعه لقتل غريمه، ولعل هناك بعض الصواب من الوجهة السياسية لأن سيفاتوسلاف قد أثار غضب الخان بسبب تصرفاته غير الحكيمة.

سادساً : لم يكن من حق الأمراء الروس إعلان الحرب على بعضهم أو خارج روسيا إلا بعد موافقة الخان، ومن ذلك إن أمير نوفgorod حصل على موافقة الخان لإعلان الحرب على Revel. وعندما اختلف بعض الأمراء في عام ١٣٠٣ م، وصل مرسوم من الخان يطالبهم بوضع حد لخلافاتهم وأن يكتفي كل منهم بالأقطاعية المخصصة له.

سابعاً : عندما كان الأمراء الروس يستقبلون سفراء الخان كان عليهم السجود أمامهم، وأن يفرشوا لهم السجاد الفاخرة، وأن يقدموا لهم الكؤوس المملوءة بقطع الذهب، وعليهم الاستماع بكل اهتمام إلى أوامر الخان وتنفيذها بكل دقة.

ثامناً : لقد قدر المغول الروس خاصة الشجعان منهم، ولذلك نرى قيام مصاهرات بين المغول والأمراء الروس، ومن ذلك ما حدث عام ١٢٧٢ م عندما تزوج الأمير الروسي جليب Glebe أمير Bielozersk من إحدى الأميرات المغوليات، وعندما تزوج فيودور Feodor أمير Riazan من عائلة القائد المغولي نوجاي، وقد خصص للأمير قيودور قصراً في مدينة سرای. كما تزوج في عام ١٣١٨ م كبير الأمراء جورج من أخت خان القبيلة الذهبية أوزبك ١٣١٢ - ١٣٤١ م، وكان عليها أن تعتنق المسيحية وأصبح أسمها أجات Agathe، ولعل ذلك يوضح لنا موقف المغول من الديانات الأخرى.

وتفاوتت درجة التأثير والتاثير بين المغول والروس، فواقع الحال أنه مع نهاية القرن الرابع عشر لم يعد المغول هم الرعاه الأشداء، فقد تأثر المغول بسكان المدن الأكثر تحضراً منهم، ولذلك شيد المغول بعض المدن مثل العاصمة سراي، وقازان، واسترخان. ومع إقامة هذه المدن عرف المغول حياة الدعة والرفاهية، وأقاموا الحفلات للشعراء الذين كانوا يمدحونهم ويفاخرون بفروسيتهم وشهامتهم. ولم يكن الدين حائلاً في وجه المغول فقد تعاملوا مع جميع الأديان بسماحة متوازنة.

وقد اختلف المؤرخون حول درجة تأثير المغول على الروس، فيرى البعض أن الروس اكتسبوا بعض العادات من المغول ظل أثراها حتى أيامنا هذه. بينما يرى آخرون أن الروس تأثروا بعناصر البجناكية أكثر من تأثيرهم بالعناصر المغولية. وفي إتجاه آخر يرى البعض أن المغول الروس كانوا قوة عسكرية واحدة إختلفت عن التي كانت سائدة في غرب أوروبا. وقد أصبح هذا النظام نموذجاً حتى عدة قرون. كما يلاحظ أن الزي العسكري للأمراء الروس في القرن الخامس عشر كان يتمثل في المعطف الطويل والقلنسوات العالية، مع وضع السيوف أو الخنجر في أحزمتهم.

ويرى بعض المؤرخين أن بعض العادات التي يعتقد أنها من أثر الحكم المغولي لروسيا ربما تكون من أصل سلافي أو بيزنطي، ويتجلى ذلك في النزعة الاستبدادية التي ترجع إلى النمو الطبيعي للأفكار الاستبدادية القادمة من الإمبراطورية البيزنطية، فقد كان الإمبراطور البيزنطي هو النموذج للحكم المطلق.

وقد يستخدم الروس عقوبة الموت أو التعذيب الجسدي، ويرى البعض إن ذلك يرجع إلى التأثر بالقوانين البيزنطية التي تسللت تدريجياً إلى

روسيا، ومن هذه القوانين الإعدام ويتر أحد أعضاء الجسم والجلد والحرق. أما عادة السجود أمام الحاكم فهي عادات شرقية ترجع إلى أصول بيزنطية.

وإذا كان الروس قد ظلوا لفترة طويلة بالملابس الطويلة والطرز الشرقية فعلينا أن نتذكر أن الفرنسيين والإيطاليين ظلوا حتى القرن الخامس عشر يرتدون الأزياء نفسها، ولكن التغيير الذي حدث في أوروبا لم يحدث في روسيا وظللت على حالها بسبب عزلتها عن أوروبا.

وعن إمتزاج الدماء المغولية بالدماء الروسية فيرى البعض أنه كان ضعيفاً، وأن التقارب لم يحدث إلا بين الطبقة الارستقراطية في كلا الجانبيين، وإن كلا الشعرين قد ظل غريباً عن الآخر. ولعل هذا الرأي يكون مقبولاً في أوائل الحكم المغولي لروسيا، أما مع مرور الزمن فقد إنصرف الجميع في بوقتة واحدة وضمت الأمة الروسية جميع العناصر التي عاشت على أرضها بغض النظر عن الأديان التي اعتنتها تلك العناصر، فقد نما الإسلام خاصة في المناطق الجنوبية كما نمت المسيحية على المذهب الأرثوذكسي في الشمال وهو مذهب الامبراطورية البيزنطية، ومنح الخانات الامتيازات العديدة للكنائس والأديرة والمساجد على السواء.

### إيفان الأول وخلفاؤه :

إن الأمير إيفان الأول Ivan (المعروف بكاليتا أو صندوق الأموال Money page) الذي حكم موسكو (1325 إلى 1341م) زاد من نفوذه بإتخاذ خطوتين هامتين : الأولى أنه أغري المطران بنقل مقر الكنيسة إلى موسكو ، وبذلك كسب لمدينته هيبة ونفوذاً باعتبارها المركز الروحي لروسيا ، والثانية أنه برشوة زعماء المغول ، واستخدام القوة ضد جيرانه حصل

على تأييد بمنحه لقب الأمير الكبير لإمارة فلاديمير وكل الروسيا ، واحتفظ الأميران اللذان خلفاه وهما سيمون Simeon وإيفان الثاني (الأحمر) بمكاسبة . وجاء الأمير الأعظم ديمتري Dmitri بعدهم وعزز مركز موسكو أكثر عندما هزم المغول في منطقة نهر الدون الأعلى عام ١٣٨٠ م ، ومع ان المغول فاقوا من الهزيمة ، فإن جهده ونجاحه الأول كانا سبباً في إيقاظ المشاعر القومية للروس حول حكام موسكو كرموز لتحدي المع狄ن الأجانب . وانهمك خلفاؤه بأسيل الأول وباسيل الثاني في المحافظة على ممتلكاتهما ضد تدخل الليتوانيين والمغول ومحاولات المتنافسين على العرش ، ومع ذلك استطاع بأسيل الأول أن يضم أراضي قليلة إلى إمارة موسكو ، كما عزز بأسيل الثاني استقلال مطرانية موسكو بمعارضة الترتيبات التي اتخذت بمجلس فلورنسا عام ١٤٣٨ م لتوحيد الكنيسة الشرقية والغربية . وفي منتصف القرن الرابع عشر قطع أمراء موسكو شوطاً بعيداً في إرساء زعامتهم بين الروس وأخذت قوتهم تكتسب مزيداً من الاحترام والتقدير .

### تطور الامبراطورية الروسية (١٤٦٢ - ١٦٨٢)

خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بلغت إمارة موسكوفى القوية مرتبة الامبراطورية عن طريق التقدم المتسم بالتوسيع الجغرافي السريع ، وإقامة حكومة أوتوقراطية الشكل واستعباد السكان الزراعيين . تلك التطورات المرتبطة ببعضها يمكن أن يرجع الفضل فيها إلى ثلاثة حكام أقوياء من أسرة روريك Rurik ، هم إيفان الثالث (العظيم) وباسيل الثالث وإيفان الرابع (إيفان الرهيب) .

في بداية حكم إيفان الثالث (١٤٦٢ - ١٥٠٥ م) ، كانت البلاد الروسية مقسمة إلى أجزاء عديدة ، بعضها تحت الحكم الوطني والبعض الآخر تحت الحكم الأجنبي . وكانت موسكو تسيطر على الجزء الذي أصبح فيما بعد قلب روسيا الكبرى . وحولها كانت تقع الإمارات الأخرى تحت

حكم أمراء يتمتعون بالاستقلال على نحو ما . أما المناطق الأخرى التي كان يسكنها الروس - روسيا الغربية وروسيا الصغرى - فقد كانت خاضعة للبولنديين والليتوانيين . ولكن إيفان الثالث كان ينظر إلى نفسه ليس كأمير موسكو وإنما كوريث لروسيا ، لأن إمارته أصبحت علامة في ذلك الوقت الرموز القومية لروسيا . وفي عام ١٤٨٠ رفض الحكم المغولي وامتنع عن دفع الجزية ، وأطلق على نفسه لقب ملك كل روسيا ، وأكد طموحه بتوحيد كل الأراضي التي كانت تخضع لروسيا الكبيرة في ذروة قوتها ، وذلك بوضعها تحت السيطرة المосковية . وقد عرف هذا المشروع باسم « تجميع الأرض الروسية معاً » ولتحقيق ذلك الطموح إشترك هو وخلفاؤه من الأمراء الروس في حروب طويلة مع بولندا التي كانت تضم ليتوانيا وتخضعان لحاكم واحد في معظم الوقت منذ عام ١٣٨٦ م ، وقد أعلن إيفان الثالث أنه لن تكون هناك بين إمارته وبولندا أى سلام طالما ظلت أجزاء من ممتلكاته تحت سيطرة البولنديين ، وقد حافظ خلفاؤه على هذا المبدأ واتخذوا نفس السياسة المتشددة إزاء ليتوانيا ، وكان نتيجة ذلك أن ظلت موسكو في حرب مع ذلك القطر طوال أربعين عام متقطعة في الفترة الواقعة ما بين ١٤٩٢ - ١٥٨٢ م . والقول بأن تلك الجهود لتجميع الأرض الروسية كانت إنعكاساً لروح قومية بالمعنى المفهوم في وقتنا الحالي ينطوي على أخطاء ، فقد كانت إنعكاساً للطموحات الشخصية لإيفان الثالث وخلفائه الذين كانوا ينظرون إلى الدولة الروسية كضيعة خاصة بهم ، واغتلقوا أن لهم الحق في محاولة إخضاعها لإرادتهم وتوجهاتهم ، ولم يتم إنجاز التجميع بالفعل إلا عام ١٦٤٧ م ، ولكن إيفان والحاكمين اللذين أعقباه وهما باسيل الثالث ( ١٥٠٥ - ١٥٣٣ ) وإيفان الرابع ( ١٥٣٣ - ١٥٨٤ ) استطاعا أن يستعيدا الكثير لتوسيع إمارتهم وجعلها امبراطورية . وكان أحد أهداف الحملة العسكرية لإيفان الثالث إمتلاك مدينة

نوفجورود التي كانت تعتبر حين ذاك أقوى مركز تجاري في الأراضي الروسية ، إذا كانت تسيطر على المناطق التي تحيط بها مباشرة في نصف قطر يبلغ مائة وخمسين ميلاً من المراكز ، وكذلك على طرق واسعة في شمال روسيا تتدفقاً في جبال الأورال - ومع أن نوفجورود كانت تفوق موسكو اقتصادياً إلا أنها كانت دون موسكو من حيث القوة العسكرية ، وبذلك وجد إيفان الثالث مبرراً للهجوم على نوفجورود ، واستطاع أن يحولها عام ١٤٧١ م إلى إمارة تدفع له الجزية . وبعد سبع سنوات جعلها تستسلم ، وضم أراضيها إليه ورحل المشتبه فيهم من الطبقات العليا إلى داخل مملكته . وكان هذا كسباً كبيراً للإمارة . ورغم هذا لم يكن إيفان في مرحلة تطمئنه على مستقبله السياسي لوجود نفوذ أجنبي على ممتلكاته الجديدة ، وفي حماسة قام بطرد معظم التجار الأجانب من نوفجورود ، مما عطل وأعاق التجارة الأجنبية عن المدينة فاحتكرت موسكو تجاراتها . كما تغلب إيفان على الأمير ميخائيل أمير نفر ، وضم إمارته في عام ١٤٨٥ م ، وبعد أن ضم نوفجورود ونفر إلى مملكته بالإضافة إلى إمارات أخرى أقل أهمية استطاع ضمها بدون جهد يذكر ، بدأ حرباً من أجل استعادة الأراضي الروسية التي كانت تخضع لدولة بولندا - ليتوانيا . لقد استمر في هذه الحرب بصفة متقطعة منذ عام ١٤٩٢ وحتى عام ١٥٠٣ ، حين أصبح يسيطر على بعض الأراضي الحدودية في غرب روسيا وفي روسيا الصغرى . وقد واصل باسيل الثالث ابن إيفان عمل أبيه ولكن في نطاق أضيق . وكانت المكاسب الرئيسية لإمارة موسكوفى في النصف الأول من حكمه عندما أنهى استقلال مدينة بسكوف Bskov ، وضم أرضها في عام ١٥١٠ م . وفي عام ١٥١٤ م على أثر حرب استمرت عامين ضد بولندا استولى على مدينة سмолنسك التي كانت تسيطر على المداخل الغربية لموسكو ، وفي عام ١٥١٧ ضم مدينة وإقليم ريازان .

والحاكم الثالث في الأسرة وهو إيفان الرابع الذي نجح في بسط سيطرة حكومة موسكو على ما وراء الحدود الروسية ، وكان أول من حقق مكاسب أرضية ضد المغول . فلقد انهارت امبراطورية القبيلة الذهبية في النصف الأول من القرن السادس عشر وقسمت إلى خانيات Khanates وهي وحدات سياسية صغيرة ، وصارت بعضها ، وهي خانيات إسطراخان ، وقازان ، والقرم ، وغرب سiberia ، تشكل تهديداً مباشراً لموسكو .

ولقد استمرت هذه الخانيات في حروب حدودية وأخذت تشن الغارات وتقوم بعمليات النهب والخطف ، وعلى سبيل المثال كانت خانية قازان تحفظ بها يزيد عن ستين ألف أسير روسي في عام ١٥٥١ . وعجزت الدبلوماسية الروسية أو القوة العسكرية لروسيا عن كبح جماح هذه الإمارات المغولية - ولكن إيفان الرابع أخذ يحاربهم حتى استطاع أن يستولي على قازان ١٥٥٢م ، وأسطرخان عام ١٥٥٦م وبذلك أخضع حوض نهر الفولجا كله لسيطرة موسكو وفتح باب السيطرة الروسية لهذه المنطقة . كما أن سقوط قازان فتح الطريق أمام التوسع الروسي في سiberia . وفي سنة ١٥٥٥م اضطر خانها إلى قبول سيادة موسكو حفاظاً على سلطته وثروته . وكان إخضاع اسطرخان في العام التالي سبباً في مد السلطة الروسية إلى بحر الخزر وفتح الطريق لإقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مع فارس ودول وسط آسيا .

إنضم موسكو لمنطقة الفولجا السفلية أدى إلى مشاكل حدودية جديدة ، فقد كان يقع على شرقها إحدى بقايا القبيلة الذهبية ، وهي دولة نوجاي Nogay والتي كان مقاتلوها المشاغبون يشكلون تهديداً مستمراً لموسكو ، وفي غربها كان قوزاق الدون Don Cossacks والذين استمدوا إسمهم من إسم نهر الدون الذي كان يجري في بلادهم . وهؤلاء الآخرين كانوا يشكلون تنظيماً ديمقراطياً مستقلاً عن أهالي الحدود الروس ، ولهم قوه

مقاتلته تضم عشرة آلاف مقاتل ، سرعان ما وافقوا على إنهاء المقاومة وأن يصبحوا خلفاء لموسكو ضد مغول القرم لقاء مساعدات من السلاح والدقيق . وكانت مساعدتهم مطلوبة في ذلك المكان لأن خان مغول القرم ، الذي كان يعد منذ عام ١٤٧٥ من ولاة الامبراطورية العثمانية كان لا يهيمن على شعب جزيرة القرم فقط وإنما على كل ساحل بحر آزوف Azov ، وكان يعتدى باستمرار على الأراضي المجاورة . ولكن إيفان الرابع تحول عن هجومه المخطط ضد مغول القرم إلى ما يعتبره أكبر وأهم ، وهو التقدم إلى البلطيق . لقد كان الحصول على موطن قدم على بحر البلطيق كفيل بإتخاذ منفذ إلى سوق أوريا الغربية ، حيث تستطيع موسكو أن تشتري ما تحتاج إليه من أسلحة ومستلزمات . وفي ذلك الوقت كانت الطرق على البلطيق مسدودة بقوى معادية - بولندا ولithuania ولـ Lithuania - Livo nia ، ولم يستطع الروس أن يصلوا إلى أسواقهم السابقة في أوريا إلا بالطريق البحري الدائري من أرشانجل Arshangel . ذلك الطريق الذي رسمه الإنجليز عام ١٥٥٣ م ، كان بالغ الطول ولم يكن صالحًا للملاحة سوى في أشهر الصيف ، ومع ذلك كانت هناك موانئ على ساحل البلطيق وخليج فنلندا ، ومن أهمها ميناء ريجا Riga عند مصب نهر دفينا Dvina الغربي ، والذي قال إيفان الرابع عن ضفافه أنها تستحق وزنها فضله وأن مياهه تستحق وزنها ذهبًا . ولم يكن ميناء ريجا يبعد سوى مائة وخمسة وعشرين ميلاً من حدود أراضي موسكو . ولكن كانت تقع بينهما الطائفة الليفونية للفرسان الجerman وهي منظمة رهبانية عسكرية تسقط على كورلاند Courland ولـ Estonia واستونيا .

وفي عام ١٥٥٨ م بدأ إيفان الرابع هجومه على تلك الطائفة الليفونية

بادئاً بذلك صراعاً استمر متقطعاً لمدة أربعة وعشرين عاماً وسجل في التاريخ باسم الحرب الليفونية - وقد قاتلت الطائفة بحل نفسها وأصبح رئيسها والياً لبولندا بإسم دوق كورلاند ، وأصبح تابعاً لبولندا ، واتحدت ليتونيا مع بولندا وليتوانيا وإستونيا ووضعت نفسها تحت حماية السويد وتولت بولندا وليتوانيا الدفاع ضد إيفان وإنضمت إليها فيما بعد السويد واستمرت الحرب بنجاح متباهي عام 1571 ، قد إنתרهز مغول القرم فرصة انشغال إيفان وأغاروا على موسكو ، فإشتدار إيفان للدفاع عن المدينة وطرد المغول إلى مسافة اعتبرها مأمونه مؤقتاً ، ثم عاد وركز إهتمامه على الحرب الليفونية والتي استمرت عشرة سنوات أخرى . وأخيراً إتفقا الطرفان اللذان أرهقهما الحرب دون تحقيق إنتصاراً حاسماً - إتفقا في عام 1582 م على وقف الأعمال العدائية بشروط كفلت إبقاء ساحل البلطيق في أيدي ليتوانيا وبولندا والسويد . ومع أن قوة موسكو قد أثبتت قصوراً في تحقيق كل أحالم إيفان في توسيع حدوده ، إلا أن مكاسبه كانت كفيلاً بتكوين إمبراطورية .

## ١- إقامة الحكومة الملكية المستبدة

وبالاتحاد روسيا وتوسعها ، أخذت مكانة حكامها تتحول إلى مكانه ملك أو توقراطى شأن كل حكام الأقطار الأوربية الأخرى التي خضعت لعملية التوحيد في ذلك العصر ، وبدأ التحول في نفس الوقت التي اتسعت فيه سيطرة موسكو على الإمارات المجاورة ، وقد سمح للأمراء والنبلاء ( الذين عرفوا باسم البويات Boyars ) الذين كانوا يحكمون الإمارات التي ضمت إليهم بالاحتفاظ بضياعهم على شرط أن يقوموا بالخدمة العسكرية والإدارية ، ويزودوا موسكو بالجند ، ولكن هذا النظام ثبت أنه غير فعال ، لأن معظم الأمراء الذين تم إخضاعهم لم تطاواعهم

أنفسهم على الاعتراف بسيادة أمراء موسكو عليهم . كما أن معظم البويات ما كانوا ليتخلوا طواعية عن الحق السياسي الذي إكتسبوه في السنوات السابقة ، أى الحق في إسداء المشورة لإمرائهم . وفي كثير من الإمارات كان البويات ممثلين في تنظيم المجلس الخاص ( دوما النبلاء Boyars Duma ) الذي كان يقدم المشورة للأمراء ، وفي بعض الأحيان يصدر الأوامر لهؤلاء الأمراء ، وعندما خضع أمراء ونبلاء الإمارات الخارجية لسيطرة موسكو ، أدمجوا في المجلس الخاص لموسكو ، وكانوا يأملون أن يستطيعوا بذلك أن يتمكنوا من المشاركة في سلطة موسكو ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن فرص تحقيق أملهم أصبحت ضعيفة ، ومن ثم لجأوا إلى المكائد والتآمر حيث أخذوا يتآمرون فيما بينهم أو مع أعداء موسكو لإضعاف سلطة الأمير الحاكم أو التخلص منها . ولكن الأمراء الذين حكموا موسكو لم يستهينوا بتلك الأعمال الهدامة ، ففي أثناء حكم إيفان الثالث وباسيل الثالث وإيفان الرابع ضعفت سلطة النبلاء والأمراء بدرجة ملموسة ، عن طريق مباشر بتقليص حقوقهم ومصادر ممتلكاتهم في بعض الأحيان ، وبطريق غير مباشر بخلق طبقة إدارية عسكرية جديدة تعرف باسم نبلاء الخدمة . وقد بدأ هذه الإجراءات إيفان الثالث وطورها باسيل الثالث الذي قام بابعاد عدد كبير من البويات والامراء الذين أدينوا بالتآمر ، ولكن إيفان الرابع هو الذي حقق مكاسب حاسمة على حساب النبلاء القدامى .

لقد كان إيفان الرابع يخاف ويرتاب في الأسر الأرستقراطية نتيجة مالمسه في طفولته من مؤمرات البويات ، وكانت الطريقة التي اتبعها معهم تتسم بالوحشية مما جعله أهلاً للقب الذي عرف به وهو " إيفان الرهيب " . ولم يهدأ ولم يسترح حتى تخلص من التهديد الذي تشكله

قوتهم ، فقد كون طبقة جديدة من النبلاء من الموظفين ، وهذه الطبقة كانت تختلف عن القديمة من حيث الأصل والمكانه والحقوق . وبينما كانت البويات والأمراء يتمتعون بحق وراثى فى أراضيهم ومكانة متميزة وإمتيازاتهم ، فإن النبلاء الجدد كانوا يستمدون مكانتهم وإمتيازاتهم واستخدام الأرض كشرط للخدمة ، وكانوا يحتفظون بها بشرط القيام بواجباتهم على خير وجه ، وكان عدد قليل من هؤلاء الجدد مختارين من زمرة قدامى النبلاء ، ولكن معظمهم كانوا يرقون من المراتب الصغرى أو يختارون من العسكريين الأجانب ، وقد قام إيفان باضعاف النفوذ السياسي لباقي الأمراء والبويات إلى حد كبير بإنشاء جهاز إستشاري ثان وهو جمعية الأرض (Zemsky suber) موازنة تأثير المجلس الخاص . وقد دعا إلى الجمعية الجديدة مثلى الأمراء والبويات وكبار موظفى الحكومة ورجال الدين والتجار ، ولكنه لم يعط لهؤلاء آية سلطة جماعية . وكانت جمعية الأرض تجمع مرة واحدة وقتما يريد هو ولمناقشة ما كان يريد هو أن يناقش . وكان من اختصاصها إن تسدى المشورة والنصيحة ، إذا كانت فى عبارات مهذبة ولا تتسم بالهجوم ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تقرر شيئاً . وقد أدى هذا إلى تقليل أهمية المجلس الخاص وتزويد الحاكم بمسانده شعبية وهيبة حكمه ، ونتيجة لأعماله المباشرة ومناوراته المحسوبة إسقاط إيفان الرابع إن يورث خلفائه عرشاً قوياً مدعوماً بطبقة من النبلاء ضعيفة سياسياً ، وليس عرشاً ضعيفاً كعرش بولندا يعتمد على أرستقراطية قوية من نبلاء الأرض .

وبينما كان أمراء موسكو الطموحين يسعون سلطانهم إلا أنهم فى ذات الوقت يضيقون على أنفسهم خصائص إمبراطورية معينة ، كانت فى ذلك الوقت من السمات الخاصة لأباطرة بيزنطة . ولقد سهل من ذلك الأحداث الدينية والسياسية التى وقعت فى الإمبراطورية البيزنطية ،

عندما لجأت الامبراطورية تحت وطأة هجمات الاتراك الى أوربا الغربية تطلب العون ، ولتنقية طلبها وافقت في عام ١٤٣٩ م على توحيد الكنيستين الشرقية الأرثوذكسيّة الكاثوليكية ، ومن هذا الضعف والوهن إستفاد الحكام الروس . ومع أن فكرة التوحيد بين الكنيستين لم يترتب عليها تلقى أي مساعدة هامة بالنسبة للقسطنطينية أو وحدة الكنيسة ، الا أنه أقنع رئاسة الكنيسة الارثوذكسيّة في الروسيا أن القسطنطينية قد سقطت أدبياً . ولم يتطلب جهداً يذكر إثبات أن الروسيا كانت القلعة الوحيدة الصامدة للأرثوذكسيّة وأن حكام روسيا يجب أن يرثوا أباطرة القسطنطينية حماة العقيدة الأرثوذكسيّة . وعلى حد يعتبر أحد رجال الدين في أول القرن السادس عشر ، إن موسكو هي ورثة أعظم عواصم العالم . روما القديمة وروما الثانية والقسطنطينية . أن موسكو هي روما الثالثة ولن توجد روما رابعة . كان سقوط القسطنطينية في أيدي الاتراك عام ١٤٥٣ م علامات على نهاية الامبراطورية البيزنطية ، وأعطى فرصة جديدة لأيفان الثالث بادر بياتهازها ، فعندما تزوج ابنه شقيق آخر أباطرة بيزنطة عام ١٤٧٢ م ، أعلن حقه في كثير من صفات ورموز الامبراطورية . وفي الحال أطلق على نفسه لقب Tsar - Autocrat أي القيصر السيد المختار من رب « وملك كل الروسيا » كما اتخذ لنفسه شعار الصقر ذي الرأسين الذي كان يستخدم في اختام بيزنطة ، وبعد هذا أصبح امراء موسكو الكبار يعترف بهم قباصرة ، ولو أن إيفان الرابع أول من توج رسمياً بهذا اللقب عام ١٥٤٧ م .

وكإضافة نهائية لأسس النظرية القيصرية حاول إيفان الرابع جعل الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسية تقوم ببطريكيّة مستقلة مقرها موسكو ، ولم يتم هذا أثناء حكمه ، وإنما في عام ١٥٥٩ وذلك بناء على قرار من بطريك القسطنطينية - وافق عليه فيما بعد كل البطاركة .

عندما إكتملت الصورة الروسية للبابوية القيصرية ، لقى القياصرة بعد ذلك مساندة رسمية للإقتراضات التي كانوا يتصرفون على أساسها سنوات طويلة ، وانهم سياسياً ظل الله في أرضه فيتولون السلطة بشيئه الرب ويعملون حراساً للعقيدة الحقة .

## ٢ - نشأة رقيق الأرض

إن قيام حكم استبدادي في روسيا لم يؤثر فقط على الطبقات العليا وإنما أيضاً على الطبقات الدنيا ، وهم الفلاحون ، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة الغالبة ، وكان عملهم ركيزة إقتصاد البلاد ، وكان يقوم في ذلك الحين على صورة بسيطة من الزراعة . وفي بداية القرن الخامس عشر ، كان معظمهم أحراراً يفلحون قطعاً من الأرض يخصصها لهم الملك ، سواء الكنيسة أو الأمراء أو البويارات لفترات محددة تبلغ حوالي ثلاث إلى خمس سنوات ، وأحياناً كان الملك يقبلون العمل مقابل إستخدام الأرض أو البذور أو الأدوات التي تعار لل耕耘ين ، ولكن المقابل بصفة عامة كان في صورة مقابل عيني يصل إلى خمس المحصولات . وحتى منتصف القرن السادس عشر كان الفلاحون أحراراً في الانتقال من ضيعة إلى أخرى بعد موسم المحصول مالم يكونوا مدینين . وبعد هذا أخذت التزاماتهم المتعاقبة المحدودة تتحول بالتدريج إلى التزامات لا يمكن الفكاك منها تربطهم وترتبط إطفالهم بالأرض كرقيق للأرض Sefdom . وكانت أسباب التغيير متعددة ، ومعظمها ترتبط بحقيقة أن طبقة ملاك الأرض تغيرت وأن معظم الأمراء والبويارات قد حل محلهم طبقة نبلاء الخدمة والموظفين .

وفي معظم الأحوال كانت الضياع التي يخصصها القياصرة لنبلاء الخدمة بالوظيفة شاسعة جداً في زراعة مكثفة وكافية لتلبية حاجاتهم. ولما كان هناك نقص في الأيدي العاملة المحلية لهجرة الفلاحين واستقرارهم في أراضي جديدة ، بدأ المالك في التنافس المحموم على العمال غالباً ما كانوا يغرونهم بترك الأراضي التي يعملون فيها بصرف النظر عن التزاماتهم للغير واعتماداً على الخدمات العسكرية والإدارية للنبلاء . ورغبة في أن يصبحوا مكتفين ذاتياً على الأراضي التي منحت لهم ، بدأ إيفان الرابع في اتخاذ إجراءات تصحيح الموقف ، لذلك فرض حظراً قانونياً على حركة الفلاحين أثناء بعض السنوات الخرجه من الموجهة الاقتصادية ، وأعطى أصحاب وملوك الأراضي الحق في البحث عن الفلاحين الذين يغادرون الأرض دون الوفاء بالتزاماتهم وعادتهم مرة أخرى .

ويختلف مساعدة النبلاء كان لدية سبباً آخر لإتخاذ تلك الإجراءات، لقد كان يفرض الضرائب على الفلاحين لمواجهة الإحتياجات المالية للدولة ، ووضع الفلاحين في أماكن محددة لا يبرحونها حتى يضمن الحصول على الضرائب . وقد أضاف خلفاء إيفان قيوداً أخرى ، وفي النهاية حددوا أماكن معظم الفلاحين بصفة دائمة في مناطق محددة ، والقليلون منهم ظلوا أحراراً ومعهم الذين اختاروا أن يعيشوا في المناطق الفقيرة والقليلة السكان من الإمبراطورية . وهكذا ، في الوقت الذي كان نظام رقيق الأرض يتراجع في غرب أوروبا ، كان هذا النظام يتوطد ويرسخ في الروسيا ، وأصبح جزء من التقدم الكاسح للحكم الأتوقراطي . وفي الوقت نفسه كانت الطبقات العليا المستقلة نسبياً ، قد أخذت تضعف وأخذت طبقة جديدة خادمة للدولة في الظهور . وأخيراً ارتبطت الطبقة الدنيا بالأرض ، التي أصبحت الدولة ممتلكاً معظمها .

### ٣ - أزمة القيصرية

كان الحكام الذين جاءوا مباشرةً بعد إيفان الرابع عاجزين عن أن يحتفظوا بإرثهم سليماً لأنهم لم يكونوا على درجة كافية من القوة لتوطيد الأمن في إمبراطورية متراقبة بفعل القوة . فبعد وفاة إيفان انتقل التاج إلى ابنه فيودور الأول Fendor I ( ١٥٨٤ - ١٥٩٨ ) وهو رجل ضعيف سمح عن طواعية لصهرة وشقيق زوجته بوريس جودونوف Boris godunov بأن يصرف شئون الدولة بدلاً منه ، وكان جودونوف رجلاً قديراً ولكنه عجز عن تهدئة القلق الذي كان يزداد داخل البلاد نتيجة لإقامة الحكم القيصري وإرهاب البويارات ، واستعباد واسترقاق الفلاحين ، وفرض أعباء اقتصادية للاتفاق على الحروب التي تدخلها الإمبراطورية الموسعة . ولم يمضى وقت طويل حتى أصبح هو نفسه موضع المؤامرات والمحايدات التي قادها البويارات المتضررون . وعندما توفى ديمتري الشقيق الوحيد البالغ فيودور عام ١٥٩١ م انتشرت شائعة ردها البعض وصدقها الكثيرون بأن جودونوف قد أمر بقتله حتى لا يخلفه فيودور على العرش ، وسارت الملكة دون أيه متابع خطيرة حتى وفاة فيودور في يناير عام ١٥٩٨ م ، فتطورت الأمور بعد ذلك إلى أزمة . خاصة أن فيودور لم يعقب أى ذكر فانتهت أسرة بوريك، وثارت مسألة الخلافة على العرش . وكان بوريس جودونوف لا يزال الحاكم الفعلى والواقعي ولكنه لم يبادر بتتويج نفسه، وبدلأ من ذلك أعاد جمعية الأرض ( التي أهملت منذ أيام إيفان الرابع ) وحرص على اختيار أعضائها من أنصاره، وأعلن إنه سيقبل التاج فقط إذا قدم اليه من تلك الجمعية . وفي فبراير طلبت منه الجمعية أن يصبح قيصراً لروسيا ، وعلى الرغم من اختياره وأن البويارات كانوا لا يزالون يتآمرون ضده علانية ، فقد بدأ القيصر بوريس حكمه بسنوات ثلاثة خالية نسبياً من أيه متابع ، ولكن في سنة ١٦٠١ مع بدء ثلاث سنوات من المجازفة ، بدأت القلاقل العامة تظهر من جديد .

#### ٤ - زمن القلاقل

وفي عام ١٦٠٤ بعد ثلاث سنوات من الماجاعة والكوارث المتزايدة أصبح البويارات المتضررون ، وال فلاحون اليائسون في حالة نفسية خطيرة ، وبدأ البويارات موسكو العمل ضد القيسير بوريس بمناصرة مطالب بالعرش هو أحد البويارات المغموري الذي يدعى بأن ديمتري ابن إيفان لم يمت في عام ١٥٩١ م ، وأنه هو نفسه ديمتري الوريث الشرعي للعرش ، ويادر ملك بولندا الذي تاقت نفسه إلى الصيد في مياه روسيا العكرة بالاعتراف بديمتري الزائف . وساعد في إعداد جيش من البولنديين والروس الساخطين لمساعدة المدعى للحصول على العرش . وعندما سار هذا الجيش إلى الروسيا دخل في سلسلة من الحروب الأهلية استمرت زهاء تسعة سنوات ، وهذه الفترة تسمى بحق فترة القلاقل .

وكانت قوات القيسير أقوى بكثير من ذلك المدعى وقضت على الهجمات الأولى . ولكن موت بوريس سنة ١٦٠٥ م قلب الوضع داخل روسيا ، فقد أعلن ابنه فيودور المعروف بالثانى قيصرًا على روسيا ولكنها لم يحصل على تأييد كل الجماعات الساخطة . فقام بالتأمر ضد مجموعة من البويارات الذين لم يعجبهم إنحيازه للبولنديين ، وفي عام ١٦٠٦ قتلوا وولوا مكانه أحدهم وهو باسيل شويسكي (Basil Shuisry ١٦٠٧ - ١٦١٠م) خلال حكمه الذي استمر أربع سنوات بذل البويارات جهداً بائساً لإسترداد الوضع الاقتصادي والسياسي الذي فقدوه في القرن والنصف المنصرم ، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم أمام حقيقة أن الجماعات الأخرى تريد تعديلات أيضاً . ففي جنوب روسيا هب الفلاحون القوازق وبعض ملوك الأرضي الأفقر ضد الطبقة الحاكمة مطالبين بتحسين أحوالهم ، ومع أن الثورة انتشرت بسرعة إلا أنه لم يكن لها أي برنامج

منسق أو أى زعماً كبار ، وما إن حلت نهاية عام ١٦٠٧ م حتى كانت المراكز الرئيسية للتمرد قد هدأت .

واجه القيصر بأسيل المتاعب من اتجاه آخر فقد ظهر ديمترى آخر زائف ينتمى هذه المرة الى الطبقات الدنيا مطالبًا بالعرش ، وتقىدم ديمترى الثاني، كما أصبح يطلق على نفسه داخل الروسيا على رأس قوة جهزتها بولندا وتساندها قوات من القوزاق . ولمواجهة هذا المدعى إستدار القيصر إلى السويد طالباً المساندة العسكرية ، وقد حصل عليها مقابل التنازل عن كاريليا Karelia والتخلى عن المطالب الروسية فى ليفونيا ، وكان الصراع الذى أعقبت ذلك متسمًا بالخداع من كلا الطرفين . ولقد تبادل البويات والقادة الروس الواقع فى كلا الجانبيين متنقلين من طريق إلى آخر حتى أطلق على الكثيرين منهم ( الطيور المتنقلة أو العابرة birds of Passage ) ، وهجرت القوات السويدية بأسيل وأسقط البولنديون ديمترى الثاني الزائف وبدأوا حملة مستقلة ، وأخيراً وفي عام ١٦١٠ خلع بأسيل من العرش على يد أنصاره ومؤيديه وتقىدم البولنديون نحو موسكو.

وهنا تفجرت المشاعر القومية على غير انتظار . وقد استعرت بناءً من البطريك هرموجن Hermogen ، الذى إستطاع رغم وجوده فى السجن الذى وضعه فيه البولنديون أن يرسل نداءاته داعيًا الشعب الى طرد الأجانب وتشكل جيش شعبي ، ولكنها أخفق فى محاولاته الأولى لتحرير موسكو .. ثم ظهر قائدان قدiran إستطاعا أن يعطيا الجيش توجيهًا ملهمًا وفعلاً أحدهما كوزما منين Kuzma Minin وهو تاجر ، الذى عزز بخطبة وأحاديثه المشجعة وقدرته الإدارية المهارة العسكرية للقائد الشانى النبيل ديمترى بوزهارسكي Dmitri Pozharsky ، وتحت قيادة هذين القائدين تحرك الجيش الشعبي الى

موسكو . وفي أكتوبر عام ١٦١٢ إستطاع أن يحطم مقاومة القوات البولندية وأن يستعيد الروس المدينة .

## روسيا تحت حكم أسرة رومانوف الأولى

وفي عام ١٦١٣ م قامت جمعية مؤلفة من مثلثي رجال الدين والبويارات وبناء الخدمة ، وبعض مثلثي القرى والمدن بإنتخاب ميخائيل رومانوف Michael Romanov ( ١٦٤٥ - ١٦١٣ م ) قيصلاً للروس . وكان ينتمي إلى البويارات الروس وعث بصلة القرابة للزوجة الأولى لایفان الرابع ، ويتوليه العرش تبدأ أسرة حاكمة جديدة وهي أسرة رومانوف التي قدر لها أن تحكم روسيا من ١٦١٣ حتى ١٩١٧ .

### ١- إستعادة الاستقرار والسلطة

وخلال حكم الأباطرة الثلاثة الأوائل من أسرة رومانوف إستعادت روسيا قدرأً من الاستقرار السياسي الداخلي والاقتصادي ، فقد أخذ النظام يستتب بالتدريج في الحكومة ، وعادت موسكو تسيطر على المناطق الخارجية . وحدث بعث واحياء للتجارة الداخلية والخارجية . وكان الأمل ألا يحكم قياصرة رومانوف بالسلطة المطلقة التي كان يمارسها أسلافهم . وقد إضطر القيصر ميخائيل لأن يشرك جمعية الأرض ، التي قامت بإنتخابه في السلطة لبعض الوقت ، ولم يكن على درجة كافية من القوة في البداية ليحكم دون معاونة من تلك الجمعية ، كما أنه لم يكن ليستطيع بدون موافقة الجزء الأكبر من المحكومين على الأقل أن يفرض الضرائب اللازمة لإعادة بناء الحكومة وإستمرار الجهد من أجل طرد السويديين والبولنديين الذين لم يكفوا عن التدخل بعد إنقضاء عهد القلائل . وفي الفترة من ١٦١٣ حتى عام ١٦٢٢ جعل الجمعية في حالة إنعقاد دائم ، وخلال هذه الفترة خفف أعباء بتوقيع معاهدة صلح مع

السويد في عام ١٦١٣م ، وبعد هذا لم يكن يطلب عقد المجلس إلا نادراً لأنه أصبح قادراً على الاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة ، والاحتفاظ بسلطاته بأقل قدر من المساعدة والعون . وفي عام ١٦٣٤ أبرم معااهدة مع بولندا متنازلاً عن المدينة الحصينة سмолنسك Smolensk مقابل عدم التدخل في الشؤون الداخلية . وعند وفاته في عام ١٦٤٥م كانت سلطة القيصر قد توطدت تماماً إلى درجة أن ابنه ألكسيس Alexis (١٦٤٥ - ١٦٧٦م) يستطيع أن يتولى العرش كأمر مفروغ منه بدون تصديق جمعية الأرض . ولم تكن في نية آل رومانوف أن تصبح الملكية الروسية إنتخابية ، ولذلك حذا القيصر الكسيس حذو والده في عدم الأكترات بالجمعية . وكان أهم انجاز للجمعية خلال حكمه هو التصديق على مجموعة القوانين المنقحة التي صدرت عام ١٦٤٩م . وكان آخر إجتماع كامل لها خلال تلك الفترة في عام ١٦٥٣م . ولم يقاد المجلس الخاص مصير جمعية الأرض ، فقد استمر في الاجتماع دون أن تكون له سلطة منفصلة عن القيصر ، والخلاصة أنه بعد فترة وجيزة من التكيف استعاد الرومانوفيون كامل السلطة الاستبدادية للعرش .

## ٢ - ثورة فلاحي الفولجا

كما أن أباطرة أسرة رومانوف الأوائل قد خيبوا ظن الكثيرين الذين كانوا يتوقعون تخفيف الأتوقراطية ، كذلك خيبوا أمل الفلاحين الذين كانوا يتوقعون تحسين أحوالهم . ومع أن القياصرة لم يشركوا النبلاء في سلطتهم السياسية إلا إنهم إنحازوا إلى مصالح النبلاء الاقتصادية على حساب الفلاحين ، وبهذا أحكموا أغلال رق الأرض . وخلال القرن السابع عشر أصبحت قلائل الفلاحين أمراضاً متواطنة في مناطق كثيرة خصوصاً على طول نهر الفولجا .

ولما كانت هذه المنطقة لاتزال منطقة حدودية في طابعها ، فقد هرب إليها عدد كبير من الفلاحين الساخطين فراراً من الظروف السيئة في الأراضي الزراعية في أجزاء أخرى من البلاد . وهاجر إليها عدد هائل من القوزاق من جراء السخط على التقسيمات الطبقية المتزايدة في بلادهم ومواطنهم الأصلية . وهؤلاء القوزاق الذين تمعوا بـ تقاليد إستقلالية ليست لدى الفلاحين ، كثيراً ما تولوا الزعامة في ثورات الفلاحين في ذلك الأقليم . وقد نجحت أحدي هذه الثورات في عام ١٦٧٦ م تحت قيادة وزعامة ستينكا رازين Stenka Razin القوزاقي إلى درجة أنه خلال ثلاث سنوات استطاع الفلاحون والقوزاق أن يسيطرؤ على كل منطقة فوجا السفلی . ولكن القيسار ألكسیس إستطاع في النهاية قمع الشورة وإعدام رازين ، ومع هذا فالثورة لم تنس بسرعة لأنها دلت على الغضب والقوة اللذين يمكن توقيعها من فلاحين متهددين تحت قيادة سليمة وقادرة . وترتب على هذه الهزيمة يأس الفلاحين من الاصلاح ، فلم تحدث ثورات واسعة النطاق لما يقرب من أربعين عاماً . وخلال هذه الفترة خضع الفلاحون للسلطة أكثر من ذى قبل .

### ٣ - ضم أوكرانيا الشرقية

وبينما كانت ثورة الفلاحين والقوزاق في أقليم الفوجا تعتبر في نظر القيسار ألكسیس عامل تهديد ، فإن ثورة الفلاحين والقوزاق في أوكرانيا تعد في نظره خير وبركة . لقد كانت معظم أوكرانيا قد سقطت في أيدي الليتوانيين والبولنديين خلال القرن الثالث عشر والرابع والخامس عشر ، وعندما خضعت ليتوانيا لبولندا عام ١٥٦٩ م عندما اتحد البلدان تحت تشريع واحد ، انتقلت الأقاليم الأوكرانية من ليتوانيا إلى بولندا . وفي تلك الأقاليم كان معظم النبلاء ملاك الأرض بولنديين كاثوليك مع

أقلية من الأوكرانيين الأرثوذكس ، وكانت الطبقة الوسطى تتألف من اليهود. أما الفلاحون فكانوا من الأوكرانيين أتباع المذهب الأرثوذكسي . لقد كان هذا التجمع مؤهلاً للقلق حيث إن عبر المواطنون الأوكرانيون كل من البولنديين اليهود أغرباً دخاء ، وكان الفلاحون يكرهون المالك البولنديين وخدمهم وكلايتهم وموظفيهم اليهود ، ومما زاد من اشتعال نار العداوة الأخلاقات الدينية . وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتقل عدد كبير من المواطنين الأوكرانيين إلى إقليم الدنيبر السفلى الواقع على الحدود ، وهذه الأرض المتنازع عليها طالب بها وسعى إلى ضمها كل من بولندا والأتراك وحلفائهم المغول في شبه جزيرة القرم . ولم تعترض الحكومة البولندية على تحرك الأوكرانيين ، وفي الحقيقة فإنها سمحت لهم وقدمت لهم حصانات كثيرة مقابل قيامهم بصد الأتراك والمغول ، ولهذا أصبحوا يشكلون الوحدات الحارسة للحدود والتاجة إسمياً لبولندا ، ولكن هؤلاء الأوكرانيين أخذوا بالفعل يقاتلون سادتهم البولنديين كما كانوا يخدمونهم .

وفي تلك الأثناء أخذ الدين يشكل موضوعاً بارزاً للشقاق بين شعوب أوكرانيا المتمرة . ففي النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وفي ذروة الحركة المضادة للإصلاح الديني حاول الجزوiet البولنديون الذين كانوا على رأس حركة قوية لسحق البروتستانتية ، تحويل الأوكرانيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسيّة الشرقية إلى الكاثوليكية . وفي عام ١٥٩٦ م نجحوا في أغراء بعض كبار رجال الدين الأرثوذكس في المنطقة وبعض كبار ملوك الأرض الأوكرانية وقليل من الفلاحين الأوكرانيين بالاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بشرط خاص ، وهو تكوين وحدة دينية تستخد طقوس الأرثوذكسيّة الشرقية ، ولكنها تعترف

برئاسة البابا . غير أن معظم الأوكرانيين رفضوا اعتناق هذا الشكل التوفيقى ، واستمرت الخلافات الدينية .

وأخيراً مالبث أن تفجر السخط المترانكم في سلسلة من الثورات التي قام بها الفلاحون الأوكرانيون وتزعمها القوزاق بحوض الدnieper السفلى ، وكانت أهم هذه الثورات هي الثورة التي نشبت في عام ١٦٤٨م بزعامة القوزاقى الأوكرانى بوجдан Bogdan وهو من كبار ملاك الأرض . وزهاء ست سنوات أمسك المتمردون بزمام الأمور بلا منازع وأخذوا يذبحون البولنديين واليهود المقيمين في المنطقة . وعندما وجد الثوار أنفسهم تحت ضغط القوات البولندية المنظمة على نحو أفضل منهم لجئوا إلى القيصر الكسيس ملتمسين المساعدة والعون . واستجاب لهم وبعث بالقوات الروسية لمحاربة البولنديين في عام ١٦٥٤م والتزمت بولندا الدفاع حتى عام ١٦٧٦م رغم أنها كانت حينذاك في حرب مع السويد لبعض الوقت ، وعندما انتهت الحرب وقعت بولندا معااهدة Androssovo متنازلة للروسيا عن سيمولنسك وكيف والجزء الواقع شرق الدnieper ، وقدحقق الأستيلاء على أوكرانيا الشرقية نتائج بعيدة المدى بالنسبة للروسيا ، إذ كان الخطوة الناجحة الأولى نحو الأستيلاء على كل أوكرانيا ووضع الروسيا على حدود الإمبراطورية العثمانية التي كانت تهيمن بطريقة غير مباشرة على معظم سواحل البحر الأسود . ولكن ذلك خلق مشكلة إدارية صعبة لأن المتمردين الأوكرانيين الذين حاربوا بولندا للحصول على الحرية لم يكونوا راغبين في قبول سيد جديد مقره موسكو ، وحاولت روسيا حل هذه المشكلة بشكل توافقى يسمح للبلاد التي ضمت حديثاً بإستقلال ذاتى تحت حكم طبقة حاكمة محلية ولكن هذا الحل أثار المقاوم فيما بعد .

#### ٤ - الانقسام الديني

في الوقت الذي كانت تهتم فيه روسيا إهتماماً سياسياً بأوكرانيا ، بدأ بعض رجال الدين الأوكرانيين الأرثوذكس الذين استقر كثير منهم في موسكو أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر ، يحققون نتائج إهتمامهم بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية .

لقد بقىت الكنيسة الأرثوذكسية في أوكرانيا البولندية تابعة لبطريرك القسطنطينية ، وظلت أقرب إلى روح وحماسة الكنيسة الرئيسية بالمقارنة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وكان رجالها بصفة عامة أفضل وأكثر تعليماً من رجال الكنيسة الإرثوذكسية الروسية وقد اكتسب رجال الدين الأوكرانيين الذين قدموا إلى موسكو ، نفوذاً واسعاً في الدوائر الكنسية ، وكثيراً ما كانوا يوضحون الأخطاء في النصوص والطقوس الدينية التي تطلب التصويب والتصحيح .

وكان نيكون Nikon الذي إستقر على كرسى البطريركية بموسكو في عام ١٦٥٢ يعتبر إنتقادات هؤلاء الأوكرانيين لها ما يبررها . وسرعان ما يستبعد من الكنيسة الروسية المستحدثات والبدع التي تسربت إلى الطقوس على مر القرون . وعرض رجال الدين الأوكرانيين المساعدة في إجراء التصويبات المطلوبة، قد وقبلها منهم نيكون . وربما كان الدافع على اقدامه على ذلك سياسياً ودينياً في ذات الوقت ، إذ كانت موسكو تأمل في ضم أوكرانيا ، وإذا أمكن إزالة الاختلاف بين الكنيستين الأوكرانية والروسية فإن فرصة إخضاع الكنيسة الأوكرانية للروسية ستكون أفضل .  
ويبدأ إصلاح الطقوس والشعائر في عام ١٦٥٣م وعلى مدى ثلاث قرون قد بدأ التغيرات التي حدثت تافهة ، ولكن بالنسبة للكثيرين من الأرثوذكس الروس كان أتفه وأدنى تغيير في الممارسات الدينية التي تعلموا أن يعتبرونها مقدسة وغير قابلة للتعديل يعتبر من عمل الشيطان . وسرعان ما قاطعوا الإصلاح بإعتباره من وحي الأجانب الذين يحاولون

إفساد « روسيا المقدسة ». وإزدادت معارضة الإصلاح بين أفراد رجال الكنيسة والمدنيين على حد سواء ، وفي عام ١٦٦٧ ندد البطريرك بالمعارضة وأدان كل الذين ساندوها وحكم بإحراق القادة والزعماء المعارضين . ولم يقبل الكثير هذه التعديلات ، وانتحرآلاف من رجال الدين والمدنيين الأتقياء مفضلين الموت على الحياة في ظل ما أسموه بال المسيح الدجال الذي توقعوا ظهوره قريباً ، كما ابتعد الآلاف عن الكنيسة التي تعرضت للإصلاح فأطلق عليهم إسم المنشقين ، وقد عاقبتهم الحكومة بضراوة . وبعد الإصلاح أقامت الكنيسة الأرثوذكسية علاقات وثيقة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، ولكنها رفضت أن تكون تابعة لبطريرك موسكو حتى عام ١٦٨٧ م.

#### ٥ - عوامل الضعف المهددة للعرش

عندما توفي الكسيس في عام ١٦٧٦ م تولى ابنه فيودور الثالث Feodor III ( ١٦٧٦ - ١٦٨٢ م ) البالغ من العمر أربعة عشر عاماً ، وكان فتى معتل الصحة غير كفء عاجزاً عن إدارة شئون المملكة ، ونتيجة لهذا بدأت أحزاب وشيع مختلفة في البلاط تتقاول من أجل السلطة التي عجز عن ممارستها القيس ، وأخيراً تقدمت اسرة ميلوسلافسكي Miloslavskys لحماية العرش ، واستطاعت بمساعدة نبلاء آخرين ذوي خبرة وتجربة تعزيز مكانه فيودور . وكان أهم إجراء داخلي مثير إتخاذ في عهده هو إجراء تعديلات بالجيش ، وهو الغاء النظام القديم القائم على إسناد القيادة العسكرية للنبلاء على أساس مكانه العائلات التي ينتسبون إليها ، وليس على أساس المقدرة والبراعة . أما النشاط السياسي الخارجي فقد كان يتركز أساساً على الصراع مع قوى الإمبراطورية العثمانية للسيطرة على أوكرانيا الغربية وهذا الصراع وهو الأول في سلسة المعارك ضد الاتراك إنتهى بلا حسم عام ١٦٨١ م ، وكان على خليفة فيودور إستئناف الصراع .

**الفصل الرابع**  
**السفارات بين المغول وأوروبا**  
**قبل عين جالوت**

- مقدمة
- المغول وأسطورة الكاهن يوحنا
- سفارة البابا أنطونيوس الرابع ١٢٤٥ م
  - أ - سفارة أسكلين
  - ب - سفارة أندرو
  - ج - سفارة يوحنا أوف بیان دل کارین
- لويس التاسع والمغول
- الأرمن والمغول
- القبيلة الذهبية وبيزنطة



## الفصل الرابع السفارات بين المغول وأوروبا قبل عين جالوت

### مقدمة:

لعبت القوة العسكرية المغولية دوراً كبيراً في تاريخ آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي ، وكان لهذه القوة أثراً كبيراً على الصراع الذي دار بين المسلمين والصليبيين في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي. وفي تلك الفترة لم يكن هناك على وجه الأرض من قوة سواء في الشرق أو الغرب تستطيع مواجهة الهجمات المغولية ، ويمكن القول إنه كان بالامكان مقاومة جزء مستقل من المغول لاتساند القوى المغولية الكبرى، وكان الخان المغولي الكبير في منغوليا قوبلاي Kubulai ( ١٢٦٠-١٢٩٣ م ) يدرك ذلك تماماً . وكان معروفاً أن جزءاً من الجيش المغولي بإمكانه غزو الصين وأن يتقدم إلى الجنوب حيث أندونيسيا حالياً ، وأن بإمكانه أيضاً أن يتقدم إلى بلاد الشرق الأدنى الإسلامي وينتصر على الدوليات القائمة به ، كما كان بإمكانه كذلك الإنتصار على الإمبراطورية البيزنطية .

أما فيما يتعلق بالغرب الأوروبي فيجب علينا أن نضع في الاعتبار إنه منذ بداية التوسيع العسكري المغولي لم يكن للغرب الأوروبي اعتباراً كبيراً في نظر القادة المغول ، ولعل ذلك كان حقيقةً في بداية العمليات العسكرية ضد الدولة العباسية ثم بعد ذلك ضد دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. وعندما كان القائد المغولي ، جيب Jebe وزميله سوبوتاي Subotei يطاردان فلول القوات الخوارزمية، فإنهم لم يتوجهوا إلى الدولة العباسية في بغداد بعد وفاة محمد خوارزم شاه في عام ١٢٢٠ م ، ولكنهما اتجها بقواتها إلى إقليم جورجيا Georgia وضد إقليم القفقاق.

وقد إنزعج الخليفة العباسى أبو العباسى أحمد الناصر لدين الله ( ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م ) من أخطار تقدم المغول بهذه الصورة من جانب ، وإلى الوجود الصليبي فى بلاد الشام من جانب آخر ، خاصة أن الحملة الصليبية الخامسة كانت تهاجم مصر فى تلك المرحلة ، وقد طلب الخليفة العباسى المساعدة من البيت الأيوبى فى مصر والشام ولكن إنتصارات الحملة الخامسة فى مصر حالت دون إرسال هذه النجدة . ومن حسن حظ العالم الاسلامى أن القوات المغولية قد اتجهت الى الشمال بدلاً من بغداد فى تلك المرحلة ، لأن سقوط بغداد فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ قد ينزل أفحى الخسائر بالعالم الاسلامى ، ويضع العالم الاسلامى بين القوات المغولية فى الشرق والصلبيين فى مصر والشام من الغرب .

لقد كان نجاح المغول الساحق على جنوب روسيا وانتصاراتهم فى معركة كالكا Kalka فى عام ١٢٢٣ م أمراً خطيراً ، وإن هذه القوات التى تكنت من الحصول على هذه الإنجازات فى مثل هذه البلاد البعيدة يوضح إلى حد كبير قدرة هذه القوات على اجتياح بغداد والسيطرة على الدولة العباسية . وإذا كان المغول قد تأخروا في إجتياح أراضي العالم الاسلامى فى تلك المرحلة ، فإن ذلك يرجع إلى سياسة المغول لا إلى قصر نظر حكام المغول أو ضعف قواتهم ، فقد أولى حكام المغول إهتمامهم إلى غزو بلاد الصين فى تلك المرحلة ، أما الشرق الاسلامى فقد وضع أمره فى المرتبة التالية .

لقد اعتقاد المغول أنه ليس بوسع القوات الاسلامية أو الصليبية أن تقف فى طريق تقدمهم إلى الشرق ، وأن ذلك سوف يأتي فى الوقت المناسب ، لذلك أعد المغول حملة لاجتياح هنغاريا ، وقد قاد هذه الحملة القائد المغولي باطو Batu ، وهو الرجل الشانى صاحب السلطة الكبيرة فى الامبراطورية ، وقد نجح باطو فى مهمته فيما بين عامى ١٢٤١ -

١٢٤٢م ، كما نجحت قوة مغولية أخرى في تولي أمر العمليات في بلاد سلاجقة الروم حيث وقعت معركة كوس داغ Kosedagh عام ١٢٤٣م . وكان لهذه الحملة الأخيرة أثراً على انهيار سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى . وهناك مظاهر هام لظهور المغول على الساحة الآسيوية ، وهو علاقه المغول بالصلبيين فقد تزامن ظهور المغول كقوة عسكرية خلال فترة الصراع بين المسلمين والصلبيين . وعندما تقدم المغول إلى بلاد الأناضول كان لكل من المسلمين والصلبيين ميزة تجعل إحدى القوتين تتتفوق على الأخرى ، وإن امكانية التحالف مع القوى الخارجية هو الأمل الكبير في تفوق إحدى القوى على الأخرى ، وإذا كانت الدبلوماسية تعنى في الحصول على الممكن لا على المستحيل ، فإن النفاق والخيانة وعدم الوفاء يكونون في بعض الأوقات طريقاً للحصول على ذلك الممكن . وكان ذلك كله من خصال الصليبيين . وأحداث معركة عين جالوت التي وقعت في الثالث من سبتمبر ١٢٦٠م ، الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ، توضح أن الصليبيين في عكا قد سمحوا للقوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز أن تمر عبر الأراضي الصليبية ومهاجمة القوات المغولية من الخلف ، عندما كان القائد المغولي كتبغا يتولى أمر قيادة القوات المغولية .

وهنا يتضح مدى خيانة الصليبيين للمسيحية التي تستروا فيها لمحاربة المسلمين . وهنا يجب القول أنه كان من الممكن أن يتحالف الصليبيين مع المغول في تلك المرحلة بالذات ويغيروا وجه المعركة ، وهناك تفسير عملي لتصرف الصليبيين على هذا النحو ، لقد ظلل العداء بين المسلمين والصلبيين في بلاد الشام ما يزيد عن مائة وخمسين عاماً ، وأنهم قد اعتادوا الحياة على نحو من القسوة ، بما فيها من القتال ، وكانت هناك الحرب التقليدية بين الطرفين ، أما تدخل المغول في المنطقة ومعرفتهم من أساليب الحرب والدمار فهو أمر غير مرغوب فيه من الطرفين .

ويكن القول أن تصرف الصليبيين على هذا النحو يرجع إلى فكرة لعلها تكون مقبولة من الناحية العسكرية ، وخلاصة هذه الفكرة أن يترك الصليبيون القوات المغولية لتقاتل القوات الإسلامية ، وفي نهاية الأمر سيكون هناك غالب ومغلوب ، ومن المعروف أن المنتصر يخرج من المعركة ضعيفاً ، وبذلك تكون هناك فرصة للصليبيين وهي إما مواجهة المغول إذا أحسوا بقدرتهم على ذلك ، أو التقرب منهم بصورة أو بأخرى إذا أدركوا أن القوة لاتفيق في المواجهة ، ويجب أن يكون من المعروف أن فكرة محالفاة الصليبيين مع المغول لاتعود إلى أمراء الصليبيين في الإمارات الصليبية بل إلى أمراء وملوك الغرب الأوروبي مثل ملوك فرنسا وإنجلترا وكذلك الباباوية .

### **المغول وأطورة الكاهن يوحنا Prester John**

منذ منتصف القرن الثاني عشر ساد الإعتقاد في أوروبا أنه في الشرق المسيحي البعيد أمير خرافي غنى وقوى بإمكانه مساعدة الصليبيين ومهاجمة المسلمين من الخلف ، وقد انتشرت هذه الخرافية بمعرفة رجل الدين المؤرخ أوتو أوف فرايزنجه Otto of Freising الذي جعل من نفسه متحدثاً باسم هيوج Hugh أسقف جبله . وذلك في غمرة من اليأس الذي ساد الصليبيين من عدم تقديم المساعدات الأوروبية لهم في بلاد الشام ، وطبقاً لمارواه أوتو ، فقد ذكر هيوج أن شخصاً يدعى يوحنا ملك وقسيس يقطن في بلاد معاوراء أرمينيا وبلاد الفرس في الشرق البعيد مع المسيحيين النساطرة ، وقد حارب يوحنا هذا إخوته ملوك الفرس وميديا واجتاز بلادهم . وعندما تقابل يوحنا مع إخوته الملوك بجيشه المكون من الفرس والميديين والسيان في معركة استمرت لمدة ثلاثة أيام ، حرص كل فريق على القتال حتى الموت ، وكان يوحنا .. على قول الأسطورة ، يطالب رجاله بإجبار الفرس على الفرار وإحراز النصر ، وتستطرد الأسطورة القول أنه بعد إنتصار يوحنا تحرك بجيشه ليقدم المساعدة إلى

كنيسة القيامة في القدس ، ولكن يوحنا وقواته عجزوا عن عبور نهر دجلة ، لذلك إتجهوا إلى الشمال . وقد علم يوحنا أن النهر يتحول إلى ثلج مع فصل الشتاء ، ورغم هذا حاول يوحنا العبور لعدة سنوات ولكنه فقد العديد من رجاله بسبب الطقس غير العادي بالنسبة لهم ، لذلك عاد يوحنا ورجاله إلى بلادهم .

ويقال أن أصل يوحنا يرجع إلى المجروس الذين ورد إشارة عنهم في إنجيل متى الأصحاح الثاني الآية الأولى وما بعدها فقد ورد « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذ مجوس من الشرق قد جاء إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لننسجد له » . وسواء كان انتصار بعض قبائل المغول على السلاجقة في سنجار في عام ١٢٤١ م كان قوة دافعة تاريخية لإحياء أسطورة الكاهن يوحنا أم لا ، فإن ماحدث قد حرك مشاعر البابا اسكندر الثالث ليكتب إلى الكاهن يوحنا والبحث عنه .

ولم تتحقق مساعدة الكاهن يوحنا في منتصف القرن الثاني عشر، ولكن بوادر هذه المساعدة بدأت تظهر بعد حوالي ثمانين عاماً عندما ظهرت الأسطورة من جديد بعد سقوط دمياط في أيدي الصليبيين في نوفمبر عام ١٢١٩ م ، فقد ذكر المؤرخ جاك أوف فترى James of Vitry أن الملك داود ملك دولة الهند ، سوف يسارع لمساعدة المسيحيين وسوف يأتي ومعه قوات كثيرة ، وسوف ينقضون كالوحش على المسلمين ، وقد اعتمدت كتابات جاك أوف فترى على تقرير كتب باللغة العربية ثم ترجم لللاتينية في المرحلة من ١٢١٨ - ١٢٢١ م ، وفيه خلط بين إسم جنكيرز خان واسم داود الذي يسمى الكاهن يوحنا .

لقد عرفت إنتصارات المغول على مدى واسع في أوروبا عن طريق ماكتبه جاك أوف فترى والمندوب البابوي للحملة الصليبية الخامسة وكان

يدعى بلاجيوس Pelagius ، وبذلك لاح الأمل فى مساعدة الصليبيين . ولذلك أرسل البابا هونوريوس الثالث خطابات يعلن فيها إلى رؤساء أساقفة فرنسا وإنجلترا فى نيرة حارة ، أن الملك داود هو الكاهن يوحنا وأنه إنتصر على شاه بلاد فارس ، وإستولى على بلاده ، وأنه أصبح على بعد مسيرة عشرة أيام من بغداد . وقد انتشرت هذه الشائعة على نطاق واسع منذ عام ١٢١٩ م وكان لهذه الشائعة أكبر الأثر على القوات الصليبية فى دمياط حتى أن المندوب البابوى بلاجيوس قد رفض العرض السخى الذى قدمه الكامل ملك مصر إلى الصليبيين ، والذى يقضى بتنازل الملك الكامل وأخوه الملك معظم ملك دمشق عن جميع الأراضى التى فتحها صلاح الدين ، عدا قلعتى الكرك والشوبك مقابل الجلاء عن دمياط .

وفي عام ١٢٢١ م ساد الاعتقاد بأن هناك تطابقاً بين الملك داود وبين الكاهن يوحنا وبين رجاله وبين المغول ، والحقيقة أنه خلال عام ١٢٢٠ - ١٢٢١ م إجتاح المغول إقليم جورجيا وهذا مالم يكن يعرفه المندوب بلاجيوس فى دمياط ، ذلك أرسل إلى ملك جورجيا لاشين الرابع Lashen IV يطلب منه إرسال النجادات إلى الصليبيين فى دمياط .

#### سفراء البابا انوسنت الرابع ١٢٤٥ م

والحقيقة أن تهديدات المغول بدأت تظهر فى شرق أوروبا فى عام ١٢٣٦ م ، عندما بدأت بعض القوات المغولية تغير على الجزء الأوروبي من بلاد روسيا ، وفي خريف عام ١٢٣٧ م إجتاح المغول دولة بلغار ، إلى جانب بعض المدن الروسية ورغم بُعد هذه الأماكن عن أوروبا الغربية إلا أن ماحدث من تدمير وتخريب على يد المغول قد وصل إلى مسامع أوروبا الغربية فتغيرت الصورة المشرقة للمغول عند الأوروبيين .

وتؤكد هذا الحال عندما إجتاحت المغول هنغاريا في عامي ١٢٤١ - ١٢٤٢ وأنزلوا بها الدمار ، وأن انهيار القوة الهنغارية أمام المغول قد أذله حكام غرب أوروبا ، وقد لام فريدريك الثاني إمبراطور المانيا الهنغاريين على مالحق بهم من هزيمة ، وعرض أن يقدم لهم المساعدات على نفقة الخاصة ، واستغل فرصة ظهور الخطر المغولي وحث حكام أوروبا على الاتحاد تحت قيادته .

لقد انزعج البابا جريجوري التاسع لهذه الأخبار وعجز عن تقديم المساعدة للملك الهنگاري بيلا الرابع Bela IV ( ١٢٣٥ - ١٢٧٠ م ) ، وكان إنسحاب المغول المفاجئ من هنغاريا في ربيع عام ١٢٤٢ م ، مثار دهشة وفرحة في الأوساط الأوروبية ، واعتقدت أن الخطر قد زال عن أوروبا ولو إلى حين ، ولكن المهم في تلك المرحلة أن احتمال قيام تحالف أوربي مغولي ضد المسلمين قد زال تماماً ، وإن ما كان يشغل بال أوروبا في تلك المرحلة هو تجدد الخطر المغولي على هنغاريا مرة أخرى وأن يصبح قريباً من أوروبا الغربية . وبعد أسبوعين قليلة من إعتلاء البابا أنونسنت الرابع عرش البابوية في روما دعا البابا بطييرك مدينة أكيوليا Aquileia عاصمة هنغاريا ليجند الرجال وأن يعلن عن حملة صليبية ضد المغول .

كما دعا البابا أيضاً إلى مجلس ديني في مدينة ليون Lyons للنظر في أمر الخطر المغولي وأمور أخرى ، على أن يبدأ المجلس أعماله في الثامن والعشرين من يونيو عام ١٢٤٥ م. ولكن البابا لم ينتظر اجتماع المجلس فيما يتعلق بأمر المغول ، فقد أعد البابا ثلاثة سفارات لارسالها إلى المغول .

### سفارة لورانس البرتغالي :

وكان على رأس السفارة الأولى البرتغالي Lawrence of Portugal ، وهو من الرهبان الفرنسيسكان. وقد حمل لورانس خطاباً من البابا مؤرخاً في الخامس من مارس ١٢٤٥ م، وفي هذا الخطاب دعا البابا خان المغول

إلى اعتناق الديانة المسيحية. وقد إتّخذ لورانس طريقه إلى الشرق عبر أرمنيا الصغرى ولكنّه لم يتقدّم أبعد من ذلك حيث انتهت رحلته عند مدينة أياس (Ayas) Lajazzo. وقد عاد لورانس من حيث أتى ثم قام في العام التالي بزيارة بعض مناطق شرق البحر المتوسط ومنها بلاد اليونان.

ويبدو أنه كان في صحبة لورانس البرتغالي أحد الرهبان الفرنسيسكان ويدعى دومنيك أف أرجوان Dominic of Argon، وقد عهد لورانس إليه للقيام بزيارة بعض المدن الإسلامية، وقد زار دومنيك منطقة أرمينية وربما بعض المدن الإسلامية في الشام ومصر ومكث فترة طويلة في القسطنطينية قبل عودته إلى روما في صيف عام ١٢٤٧ م. والحقيقة الواضحة أن السفارة الأولى التي أرسلها البابا إنوسنت الرابع لم تصل إلى بلاد المغول، وبالتالي لم تسلّم رسالته إلى أي حاكم من حكام المغول. وعلى ذلك يمكن القول أن هذه البعثة لم تتحقق أهدافها السياسية.

ويرى البعض أن لورانس البرتغالي قد نجح في نشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي في بلاد المغول. والحقيقة أن في هذا الرأي مغالاة كبيرة، فالمقدمات لا تتفق مع النتائج، كما أن لورانس نفسه لم يترك لنا وصفاً أو نصاً عن رحلته حتى يمكن مناقشته وأن ما سجل هذا الرأي هم رجال الدين الكاثوليكي الذين كتبوا في أواخر القرن الماضي عن بعثات جماعة الفرنسيسكان إلى المغول.

## ٢ - سفارة يوحنا أف بيان دل كارين :

وتولى أمر السفارة الثانية أحد الرهبان الفرنسيسكان أيضاً ويدعى يوحنا أف بيان دل كارين John of Pian del Carpene، وقد حمل هذا السفير الخطاب الثاني الموجه من البابا الذي يرجع تاريخه إلى الثالث عشر من مارس في العام نفسه (١٢٤٥ م) أي بعد حوالي أسبوع من تاريخ خطاب الأول الذي حمله السفير لورانس البرتغالي، ويستوضح من ذلك أن

البابا إنوسنت الرابع كان يت亟جل إرسال السفراء إلى المغول دون إنتظار وصول نتائج البعثة الأولى.

ومعلوماتنا عن يوحنا أكثر من لورانس، فقد ولد يوحنا في بيروز-Perouse بالقرب من مدينة أسيس Assise الواقعة على الساحل الإيطالي الشرقي المواجه للبحر الأدربياتيكي، ولعل ذلك جعله من رفاق القديس فرانسيس أوف أسيس مؤسس طائفة الفرنسيسكان (١٢١٥م)، وقد لعب يوحنا دوراً كبيراً في نشر أفكار هذه الطائفة في ألمانيا، وبوهيميا، وال مجر، والنرويج، والدانمرك، واللورين وأسبانيا. ولعل في هذا الرصيد الهائل من الرهبانية والتبشير بالمذهب الكاثوليكي ما جعل البابا يختاره ليكون سفيراً له وللمسيحية بأكملها لدى خانات المغول في تلك المرحلة من التاريخ الوسيط.

والحقيقة أن بعثة يوحنا اختلفت عن بعثة سلفه لورانس التي كانت مهمتها التبشير بال المسيحية داخل قبائل المغول، فقد كانت مهمة يوحنا هي محاولة كبح جماح المغول وإيقاف توسعاتهم، وربطهم بفكرة السلام التي كانت تسعى إليها الباباوية للتفرغ لمحاربة المسلمين، ويتبين ذلك من بعض نصوص خطاب البابا إلى خان المغول. فقد ورد به أن البابا يرسل إليكم ابنه العزيز يوحنا ورفاقه لتتوقعوا مع أوربا معااهدة سلام، ومن خلال هذه المعااهدة يكن التعرف على نواياكم والتخطيط معكم للغزوat المقبلة.

وعلى أية حال فقد رحل يوحنا ورفاقه بينهم الراهب بنوا دي بولوني-be noit de Pologne كمترجم لهم، وبدأت رحلة السفارة من مدينة ليون في فرنسا إلى مقاطعة بوهيميا، ومنها اتجهت إلى بولندا. وعندما دخلت البعثة الأرضي الروسية استضافها أحد الحكام الروس ويدعى بازيل حيث قضوا بعض الوقت حاولت فيه البعثة الدعوة للمسيحية على المذهب الكاثوليكي، ولكنها لم توفق في مهمتها.

أخذت البعثة طريقها إلى مدينة كييف، وقد تعرضت البعثة لسوء الأحوال الجوية بالإضافة إلى أخطار غارات اللتوانيين على المناطق الروسية، وفي النهاية وصلت البعثة إلى كييف في الثالث من فبراير عام ١٢٤٦م، ومنها خططت لاتخاذ طريقها إلى العاصمة المغولية قراقوز، فوصلت في البداية إلى معسكر المغولي في سيرا - أوردا - Sira - Orda الذي يبعد عن العاصمة المغولية بمسيرة نصف اليوم في الثاني والعشرين من يونيو.

وعندما وصلت البعثة كان الخان الأعظم أوكيتاي قد مات، وكان يتولى الوصاية توراكينا خاتون، وطبقاً لقوانين المغول كان لابد من الانتظار حتى يتم انتخاب الخان الجديد. ولذلك ظلت البعثة حوالي ستة أسابيع حتى تم انتخاب كيوك، ولكن الاحتفال بالتنويع تأخر لبعض الوقت بسبب سوء الأحوال الجوية. وفي الرابع والعشرين من أغسطس ١٢٤٦م تم تنويع الخان الجديد حيث ركع الجميع أمامه.

كان يحيط بالخان كيوك مجموعة من المسيحيين النساطرة، فاعتقدت البعثة أنه سيعتنق المسيحية بعد وقت قريب، ولعل ما شجع رجال البعثة على هذا الاعتقاد ما تردد حول قيام الخان الجديد بينما كنيسة صغيرة من ماله الخاص تقام فيها الشعائر المسيحية.

وفي نهاية الأمر استدعى الخان كيوك السفارية الباباوية وعلى رأسها يوحنا دي بيان كاردين، وقد سأله الخان رئيس البعثة عن أسباب قدومه، فأبلغه بها، وكان من ردود الخان أن الله أمر المغول بمعاقبة الأمم العاقبة التي لا تدخل في طاعته، وعلى البابا إذا أراد أن يعرف ديانة المغول فعليه الحضور إليهم بنفسه، وأضاف أن المغول يرفعون سيفهم في وجه كل الشعوب التي لم تخضع لهم بعد، وأن سبيلهم في ذلك استخدام الحديد والنار.

وبعد طول بقاء البعثة طلب الخان كيوك منها أن تكتب له اقتراحاتها، ولكن البعثة أحسست بعدم جدوئ ذلك. كما أنها كانت غير مفوضة بمثل هذه الأمور، وكل ما يهمها هو تقديم رسائل البابا التي وجدت فيها الكفاية، أو أنها خشيت الدخول في تفاصيل الحديث عن المسيحية الكاثوليكية، في حين يعلم المغول الكثير عن المسيحية النسطورية الارثوذكسيّة، فيعلم المغول الكثير عن الشقاق الديني الذي يسود الطوائف المسيحية، وبذلك يظهر ضعف الدول المسيحية أمام المغول.

أحس يوحنا أنه أدى واجبه المكلف به، وأنه لا جدوئ من بقائه واستأنفت البعثة في الرحيل، فعادت من نفس الطريق التي أتت منه، وفي حوالي شهر مايو من عام ١٢٤٧م كانت قد وصلت إلى معسكر الخان ياطو على نهر الفولجا ومنه إلى مدينة كييف ومنها إلى المقر البابوي في روما حيث استقبلها البابا انوس٣ الرابع بحفاوة بالغة، وبعد أن ظل يوحنا إلى جوار البابا حوالي شهر عينه رئيساً لاساقفة مدينة أنتفاري Antivari الواقعه على ساحل دلماشيا. والحقيقة أن يوحنا قد فشل في رحلته تماماً وأنه لم يقم بعمل شئ سوى أنه سلم خطابات البابا إلى خان المغول، ولكنه على الجانب الآخر ترك لنا وصفاً طيباً عن الأماكن التي مر بها وما لحق بها من خراب، وكثيراً من التفاصيل عن عادات المغول وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية المتعلقة بالزواج والوفاة وطعامهم وشرابهم وحياتهم الأخرى بعد الموت. وهي أمور يطول شرحها ولا داعي لذكرها في هذا المقام. والخلاصة أن المغول لم يسلموا برغبات البابا، كما أن الخان كيوك لم يشر في رده إلى أي ارتباط مع الباباوية بروابط الصداقة، وأن الرد الذي قدمه خان المغول لا يعدو أن يكون بعض عبارات المجاملة إلى البابا.

### ٣ - بعثة أسكلين Ascelin

وهو أحد رجال الدين الدومينيكان، وكان من ضمن حاشيته رجل يدعى سيمون أوف سانت كونتين Simon of saint Quentin صاحب كتاب تاريخ التتار الذي فقد والذى قدم لنا بعض المعلومات التى بقىت لنا فى بعض المصادر. وعلى أى حال فقد سار أسكلين فى الطريق الجنوبي الى المغول عبر قبرص وبلاد الإسلام ثم الى مدينة تفليس Tiflis فى الشمال حيث لحق بالبعثة راهب دومينيكانى آخر يدعى جيوسكارد أوف كريمونا Guiscard of Cremona ، ومن تفليس بدأت الرحلة التى إستمرت حوالي ستة أسابيع حتى وصلوا الى معسكر المغول الذى كان يتولى أمره القائد بياجو Baigo فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٢٤٧ م وكان اللقاء بين بياجو وإسكلين بعيداً عن الصداقة ، فقد كان كلاهما عنيداً ، وقد سجل لنا سيمون أحد رجال البعثة مادار من اقتراحات قدمت من رجال حاشية بياجو وفيها : قتل إثنين من رجال البعثة ، واقتصر آخر يقضى باعادة أسكلين إلى البابا وعلى جسده أثر الضرب بالسياط .

لم يكن بياجو راغباً في نقل رسالة البابا إلى خان المغول ، بل طلب من رجال البعثة أن يواصلوا مسيرتهم إلى منغوليا ، وقد رفض أسكلين بشدة ، ولكن حب الاستطلاع دفعه إلى السير إلى منغوليا بمساعدة بعض البيزنطيين والأتراك من الرهبان ، تم ترجمة الرسالة من اللاتينية إلى الفارسية ثم إلى اللغة المغولية . وقد أرسل بياجو أصل الرسالة ومعه الترجمة المغولية إلى عاصمة المغول قراقرم Karakorum حيث أعدت رسالة مغولية ردًا على رسالة البابا . وقد تضمنت الرسالة ردًا عنيفاً يقضي بإخضاع البابا وشعبه للمغول . وبهذه الرسالة الحزينة عاد أسكلين ورفاقه إلى البابا في صيف عام ١٢٤٨ م ، وعاد مع البعثة أيضًا

مبعوثان مغوليان هما ايبيك Aybeg وسرجيس أو سركيس Sargis ، لعل الأول مسلم تركى والثانى مسيحى ، وكان قدومها يعنى أول إتصال سلمى بين المغول وبين أحد حكام أوريا .

#### ٤ - بعثة أندرو

أما البعثة الثانية التى تستحق الذكر فقد تولى أمرها الراهب الدومينيكانى أندرو أف لونجومو Andrew of longjumeau ، وأثناء ذهابه فى رحلته الى المغول زار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ثم المنصور صاحب حمص ، وكان كلاهما على علاقات طيبة فى تلك المرحلة مع الصليبيين . وفي خطاب مؤرخ فى الشلايين من ديسمبر عام ١٢٤٥ م موجه الى البابا ورد به على لسان المنصو إنه ومن أجل الأسباب العديدة الذى قدمتها فاننى قد نصحت الراهب أندرو ورفاقه ألا يكملوا رحلتهم الى المغول ، ويتبين من الخطاب أنه أثناء جدال المنصور مع أندرو انه لم يشر الى الأسباب التى من أجلها يرى عدم إكمال الرحلة . وأنه كان يرى أن التحالف بين المغول والصلبيين سوف يؤثر كثيراً على المنصور وسوف يضعه فى موقف حرج .

ورغم عدم تشجيع المنصور للراهب أندرو فإن الأخير واصل رحلته الى المغول ، وفي ضواحي مدينة تبريز تقابل مع جيش مغولى . كما تقابل مع الراهب النسطورى سيمون الذى يعرف باسم ريان عطا . وكان ريان هذا معروفاً عند الخان العظيم أوكيتاي . وقد ذهب ريان عطا إلى الارمن فى إقليم قيليقية عدة مرات بين سنتى ١٢٣٥ - ١٢٤٠ م ، ولعب دوراً هاماً فى رعاية شئون المسيحيين الذين يعيشون فى ظل الحكم المغولى . وقد تجادل أندروا وريان عطا لمدة عشرين يوماً ، وعندما حان وقت الرحيل فإن الراهب النسطورى ريان عطا ودع الآخر وحمله بعض الهدايا منها عصا من الخشب الأبنوس ليقدمها للبابا ، وحمل أندرو أيضاً خطاباً من ريان

عطى يبحث فيه البابا على أن يعقد سلاماً مع الامبراطور فريد يدرك الثاني حتى يعم السلام أوربا وتوحد لمواجهة المغول ، ويبدون هذه الوحدة الأوربية لا يمكن مواجهة القوات الإسلامية ، والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن أندرو وريان عطا قد إستطاعا إقامة جسر ديني قوى بين المسيحيين في الغرب الأوروبي والمسيحيين في أقصى الشرق ، هذا الجسر الذي قام فوق القوات المغولية والقوات الإسلامية . وعاد أندرو إلى أوربا في النصف الأول من عام ١٢٤٧ ومعه كل هذه التقارير . وكان أندروا أول الذين أرسلهم البابا وعادوا إلى أوربا ، وتعتبر التقارير التي أحضرها معه والنتائج التي توصل إليها أفضل من النتائج التي توصل إليها المبعوثان الآخرين وهما أسكلين ويوحنا أف بيان دل كارين ، المعروف أن الأخير قد قابل كيوك خان منغوليا العظيم ، وعاد ومعه أخبار مزعجة تفيد أن هذا الخان الذي يفترض فيه من أنصار المسيحية قد رفع راية العصيان ضد كنيسة الله ، ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة ضد كل المالك المسيحية ودول الغرب الأوروبي .

لقد أيد ماورد في الخطاب الذي حمله يوحنا للبابا من قبل المغول ماورد في تقارير الراهب أندرو ، فقد كان ماورد في هذين الخطابين قاسياً على البابا وأوربا بأسرها ، فقد كان على البابا أن يقدم يمين الولاء والطاعة للخان الأعظم ، وكان في ذلك إهانة للباباوية وضياع هيبتها في العالم المسيحي ، والأهم من ذلك كله أن هذه المعلومات قد أصبحت معروفة للجميع . والخلاصة أن هذه البعثات البابوية قد وضعت البابا أمام حقيقة هامة جداً ، وهو أن الخطر المغولي أصبح العدو الأول للباباوية وأوربا ، وكانت إجابة البابا إلى الخان بياجو في خطاب أرخ في الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٢٤٨ م ، وقد حمل رسالة البابا المبعوثان المغوليان اللذان قدما مع السفارة وهما أبيك وسركيس ، وفي هذه الرسالة شرح البابا للمغول العقيدة المسيحية ، وطالبهم بوقف تهديدهم . لقد

فقد البابا الثقه فى المغول وفى إقامة تحالف معهم أو الإرتباط معهم برباط الصداقة على الأقل ، وقد تبني هذه الفكرة لويس التاسع ملك فرنسا . ورغم الصورة القاتمة التى قدمها المبعوث البابوى يوحنا أوف بيان دل كاربن إلى البابا ، فقد قام الأخير بالاتصال بالملك لويس بصفة خاصة ينصحه بالاتصال بالمغول ، وقد قرر الملك资料 法兰西的 Louis IX أن يواصل المساعى التى بدأها البابا إنوسنت الرابع ، ولقد سعى لويس فى هذا الجانب ولكنه لم يوفق فى مسعاه . ولعل ذلك مرجعه إلى أن لويس كان يسعى من جانب المغامرات السياسية ، وإنه كان يسعى لإقامة الصداقة مع القوى المغولية باعتبارها تقع إلى الشرق من العالم الإسلامي ، وكان من المهم فى البداية تحويل المغول من الوثنية إلى الديانة المسيحية .

#### ٥ - سفارات لويس التاسع إلى المغول

وفي غمرة هذه الأحداث تحرك الملك لويس التاسع بحملته المعروفة فى التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة لهاجمة مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر ، وقد رسا بسفنه على جزيرة قبرص وهو فى الطريق إلى مصر، وإذا كان البابا إنوسنت الرابع هو الذى بدأ برسالة حكام المغول ، فان العكس هو الذى حدث مع الملك لويس، ففى أثناء وجود الملك فى جزيرة قبرص وقبل أن يرحل إلى مصر، وصل إليه مبعوثان مغوليان هما مرقص ودادود من قبل القائد المغولي الجيهدى الذى كان يشغل منصب نائب الخان الأعظم فى الموصل ، ومن الواضح أن هذين المبعوثين كانوا من المسيحيين النساطره .

وقد قدما هذان المبعوثان رسالة مكتوبة إلى الملك لويس التاسع بالإضافة إلى رسالة شفوية وكان فى كلاهما ما يشير للدهشة ، فقد كان ماورد فيها أن كيوك وبعض رجال المغول البارزين و منهم الجيهدى نفسه قد اعتنقوا الديانة المسيحية ، وأن الخان الأعظم قد أرسل الجيهدى إلى الغرب لعله يستطيع أن يساعد الصليبيين لاستعادة الأرضى المقدسة ،

وأن المغول متৎمسين إلى الدخول في حلف مع ملك فرنسا ، كما كان من خطط المغول أن يتوجهوا إلى بغداد في الوقت الذي يهاجم فيه لويس سلطان مصر حتى لاتساعد القوات الأيوبية الخليفة العباسى ، وبذلك يصبح الحلم القديم حقيقة وهو الحلم الذي ساد اعتقاد الغرب بظهور الكاهن يوحنا ملك المسيحيين في الشرق ويضرب المسلمين من الخلف .

كان في كل هذا تحول كبير لموقف المغول الذي أبلغ للبابا أنوشت الرابع ، ولكن الأحداث سوف تسفر عن غير ذلك ، وأن الحديث والاتفاق شيء الواقع شيء آخر لأن كل مadar بين داود ومرقص والملك لويس التاسع لم يكن سوى هراء بعد أن تصور الطرفان أن بالأمكان تنفيذ ماتم الاتفاق عليه .

لقد كانت السفارة التي أرسلها المغول إلى الملك لويس عملاً كبيراً من الوجهة الرسمية ، كما إنعتبرت السفارة عملاً دبلوماسياً قام به المغول واستجواب له الملك لويس ، وقد حاول كلاً من الجانبين المغولي والفرنسي إستغلال الآخر لصلحته . ومن ذلك يتضح انه حدث تطابق مرحلي لأهداف كل منهما ، وهذا الهدف هو القضاء على القوة الأيوبية في مصر . وبالنسبة للملك لويس فهو أمر يسهل عليه تحقيق هدفه الرئيسي وهو استعادة الأرض المقدسة ، أما بالنسبة للمغول فان القضاء على القوات الأيوبية في مصر يسهل عليهم القضاء على الخلافة العباسية في بغداد اعتقاداً منهم أن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي اذا ما تعرضت الخلافة العباسية للخطر . وربما يكون في السفارة المغولية إلى قبرص نوع من التجسس على نوايا وتحركات الغرب الأوروبي ممثلة في تصرفات الملك الفرنسي لويس .

وعلى أية حال لم يكن أمام الملك لويس سوى الترحيب بالسفارة المغولية التي يرى فيها نية تحالف المغول مع الغرب الأوروبي ضد المسلمين

بعامة وفي مصر والشام وبغداد وخاصة ، ومن جانب آخر كان الملك الفرنسي يعلق آمالاً كبيرة على دخول العناصر المغولية في الديانة المسيحية خاصة بعدما صور إليه البعض ميول الخان العظيم كيوك إلى بعض المسيحيين النساطرة ، وتعيين عدد منهم في بعض الوظائف القيادية الهامة في دولة المغول، وتخيل الملك الفرنسي أن الوحدة الدينية بين المغول وأوروبا ستكون المدخل الطبيعي إلى التحالف العسكري بين أوروبا والمغول للقضاء على المسلمين في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي خاصة الدولة الأيوبية .

والحقيقة أن الملك لويس قد أكرم وفادة السفارة المغولية وأبدى استعداده تماماً للتحالف مع المغول ، لأنه لم يكن بوسعي أن يفعل غير ذلك . وإلى جانب ذلك أعد الملك سفارة من لدنـه لمرافقـه البعثـة المـغولـية عند عـودـتها إـلـى الـقـيـادـة المـغـولـية . وكانت الـبعثـة الفـرنـسـية مـكـوـنـة من ثـلـاثـة رـهـبـانـ من جـمـاعـة الدـوـمـيـكـانـ وـهـمـ أـنـدـرـوـ أـفـ لـونـجـومـوـ Andrew of Longjumeau وأـخـوـهـ جـىـGuy ويـوحـنـاـ كـارـكـاسـونـ Catrasonne ، وقد تـولـىـ أـنـدـرـوـ رـئـاسـةـ هـذـهـ السـفـارـةـ نـظـرـ لـخـبرـتـهـ بـأـمـورـ الشـرـقـ .ـ وـسـوـفـ يـطـولـ غـيـابـ هـذـهـ السـفـارـةـ حـوـالـيـ عـامـيـنـ .

والمهم هنا أن الملك لويس أرسل مع سفارته خيمة من قماش بلون قرمزي في شكل كنيسة صغيرة وذلك بقصد جذب أنظار المغول إلى الديانة المسيحية، بالإضافة إلى بعض التماثيل التي صنعت من الحجراء ، ومن هذه التماثيل تمثال للملك جبريل وهو يحمل البشارـة للـسـيـدـةـ مـرـيمـ العـذـراءـ ،ـ وـبعـضـ الصـورـ الأـخـرىـ المـتـعـلـقـةـ بـالـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ .ـ وـيـلاحظـ أـنـ عـضـوـيـنـ مـنـ سـفـارـةـ الـمـلـكـ لـوـيـسـ كـانـاـ يـعـرـفـانـ لـلـلـغـةـ الـمـغـولـيـةـ ،ـ وـكـانـ بـوـسـعـهـمـاـ أـنـ يـعـلـمـ المـغـولـ القـوـاعـدـ الـاـسـاسـيـةـ لـلـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ وـأـنـ يـقـنـعـهـمـ بـقـيـوـلـهـاـ .

غادرت السفارة الفرنسية والمغولية جزيرة قبرص واتجهت إلى مدينة أنطاكية الصليبية كما ذكر المؤرخ جوانفـيلـ .ـ وـمـنـ أـنـطاـكـيـةـ اـتـجـهـتـ إـلـىـ الموـصـلـ حيثـ مـعـسـكـرـ الجـهـيدـاـيـ .ـ وـعـنـدـ هـذـهـ المـرـحـلـةـ كانـ المـوقـفـ السـيـاسـيـ

المغولى قد تغير تماماً ، فقد مات الخان الأعظم كيوك ، لذلك وجد الجهيدى أن من الحكمة ألا يتصرف من نفسه مع السفاراة الفرنسية ، ورأى أنه من الأفضل أن يوجه السفاراة إلى الوصية على العرش المغولى فى العاصمة قراقوز وهى أغول قاميش - أرمله الخان كيوك - لأن الصراع على السلطة لاختيار خليقة للخان الأعظم كان على أشده . وكان على السفاراة الفرنسية أن تواصل الرحلة من الموصل إلى العاصمة المغولية .

ظللت أغول قاميش وصية فى الفترة ١٢٤٩ - ١٢٥١م ، ورغم وضعها المشكوك فيه ، الا أنها فعلت ما فى وسعها لإرضاء السفاراة الفرنسية . وفي نهاية الأمر غادرت السفاراة الفرنسية ومعها سفاراة من قبل المغول من العاصمة قراقوز فى طريقها إلى بلاد الشام حيث كان الملك لويس موجوداً فى مدينة قيسارية . وكانت حملة لويس التاسع قد هزمت فى مصر كما أسر الملك لويس فى المنصورة ، وبعد فشل الحملة وفك أسر لويس غادر مدينة دمياط إلى بلاد الشام حتى وصل إلى مدينة قيسارية .

والمهم هنا أن السفاراة المغولية المصاحبة للسفارة الفرنسية قد تقابلت مع الملك لويس فى ابريل عام ١٢٥١م ، وقد قدمت السفاراة المغولية ، وقد قدمت السفاراة المغولية رسالة إلى الملك لويس ، وقد ورد في هذه الرسالة أن الوصية على العرش المغول أغول قاميش قد اعتبرت الهدايا التى أرسلها الملك لويس بثابة جزية من الملك كتابع لأسياده المغول ، وأن المشاكل التى تمر بها دولة المغول بسبب وفاة الخان العظيم تمنعها من إرسال حملة عسكرية إلى البلاد الإسلامية فى تلك المرحلة . وقد ذكر المؤرخ جوانفيل أن ما ورد برسالة المغول لا يعدو أن يكون إنذاراً من المغول إلى الملك لويس الذى اعتبره المغول تابعاً لهم ، وان الهدايا التى أرسلها الملك إلى الخان المغول

تعتبر جزية، وعلى الملك أن يتبع إرسال هذه الجزية سنويا لحكومة المغول حتى لا يتعرض الملك والشعب الفرنسي للغزو كما تعرضت له شعوبا أخرى من قبل .

لقد خاب أمل الملك لويس في السفارة التي أرسلها للمغول، خاصة أنه كان يتمنى أن تعود السفارة بساندة ايجابية للملك يعوض بها خسارته وهزيمته في حملته على مصر، خاصة أنها لم تكن هزيمة عادية ، بل هزيمة مهينة أعقبها وقوع الملك أسيرا في أيدي المسلمين . والواقع أن الملك لويس لم يكن قد تفهم حتى هذه المرحلة سياسية المغول الخاضوع إما سلما أم حرباً لدولة المغول .

ورغم هذا كله فان الملك لويس لم ييأس ، والواقع أن الملك لويس كان يسعى من جانبه إلى أمرين أولهما محاولة جذب المغول إلى الديانة المسيحية ويعتبر ذلك إن تم نصرا للملك لويس المعروف باسم القديس لويس ، ومن جانب آخر فهو يريد تحالفًا عسكريًا مع المغول لضرب الدولة الأيوية التي تسيطر على مصر والشام وأنزلت به هزيمة قاسية على ضفاف النيل . ولعل ما شجع الملك لويس على معاودة إرسال سفارة أخرى للمغول هو ما شاع في تلك المرحلة عن تحول الأمير المغولي سارتاقي بن باطو إلى الديانة المسيحية.

ولما كان سارتاقي من أمراء القبيلة الذهبية التي تحكم بلاد القفقاج الواقعه إلى الشمال من البحر الأسود ، إنصب تفكير الملك لويس على إرسال بعثة ثانية إلى القفقاج . وقد تكونت البعثة من راهب فرنسيسي كانى هو وليم أف روبرك William of Robruck وأخر دومنيكانى هو بارثليمييو أف كريونا Bartholomew of Cremona فى محاولة من الملك لمساعدة المغول للصلبيين فى بلاد الشام . وقد رحلت السفارة الفرنسية من مدينة قيسارية

مقر إقامة الملك لويس في بداية ربيع عام ١٢٥٢م واتخذت طريقها إلى القسطنطينية . وقد استقرت البعثة هناك لبعض الوقت لتقصى أخبار مغول القفجاق ، ومنها إبحرت البعثة في البحر الأسود حتى شبه جزيرة القرم Crima ، وهى مركز تجارى عام ، ولعل أفراد البعثة قد استفادوا الكثير من المعلومات التى تلقوها من التجار عن المغول، وقد لاحظت البعثة تعدد الديانات الى يعتنقها أهل هذه المناطق ومنها الديانة الإسلامية .

لقد قاست البعثة الكثير من السير بالعربيات بعد مغادرتها شبه جزيرة القرم لأن البعثة كانت تسير فى أراضى خالية من المدن أو القرى وكانوا ينامون تحت عرباتهم حتى وصلوا إلى مقر إقامة سارتاق الواقع على نهر الفولجا .

تم اللقاء بين البعثة الفرنسية وبين الأمير المغولى سارتاق بعد إقام المراسم الواجب على البعثة القيام بها ، وقد قدم روبروك خطاب الملك لويس إلى سارتاق، وبعد أن علم بضمون رسالة الملك ومنها بقاء البعثة فى الاراضى التى يسيطر عليها المغول للتبريشير بالديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكى والتحالف مع الملك لويس لمحاربة المسلمين ، أحسن سارتاق أنه لا يملك الموافقة على أمور خطيرة كهذه ، لذلك طلب سارتاق من البعثة التوجه إلى والده الخان باطونق فى مدينة سراى للموافقة على ذلك ، وكان فى هذا التصرف رداً كافياً من الأمير سارتاق بأنه لم يعتنق المسيحية.

واصلت البعثة السير مع مرشددين إلى مقر إقامة باطون ، ويتبين من النصوص أن الخان باطون قد أحاط علمًا بأمر هذه البعثة، فأعد اللازم لاستقبالها فى خيمة كبيرة أعدت لهذا الغرض . وعندما التقى روبروك بالخان باطون، بدأ روبروك بالحديث عن الهدف من قدومه وأبلغه أن الملك لويس قد أرسله إلى الأمير سارتاق عندما علم بأنه اعتنق الديانة المسيحية، كما أبلغه أيضاً أن الملك لويس قد أعد العدة لمحاربة المسلمين وأنه يأمل فى

التحالف مع المغول لتنفيذ ذلك والاستيلاء على الأراضي المقدسة. ولم يكن بوسع الخان باطوا الموافقة على طلب البعثة أو على جزء منها، فطلب من البعثة التوجه إلى العاصمة قراقورم مقابلة الخان الأعظم مونكو لعرض الأمر عليه، لأنه الوحيد الذي يملك هذه السلطة ، وقد وافق روبروك على ذلك.

وقد زود الخان باطوا البعثة الفرنسية بالأدلة اللازمين حتى تصل إلى مقر الخان عند قراقورم ، وقد بدأت البعثة رحلتها حوالي منتصف سبتمبر ١٢٥٣م حتى وصلت في أواخر ديسمبر من العام نفسه ، أي أن الرحلة استغرقت حوالي ثلاثة أشهر ونصف . وفي نهاية الأمر تقابل روبروك وزميله مع الخان مونكو، ولكن هذه المقابلة لم تسفر عن موافقة صريحة من الخان الأعظم لطلب الملك لويس . والخلاصة أن فكرة البعثة قد بدأت بشائعة أن الأمير سارتاقي قد اعتنق المسيحية وانتهت إلى لا شيء بعد رحلة طويلة بدأت من قيسارية إلى القدسية ثم إلى شبه جزيرة القرم فإلى مدينة سراي على نهر الفولجا ثم إلى قراقورم . والحقيقة أن المغول كانوا يتعاملون بسياسة التسامح مع كل الأديان ، كما أن المغول قد وثقوا في بعض المسيحيين النساطرة وانهم أستروا إليهم بعض المناصب الهامة ، كما أن حكام المغول كانوا يحضرون بعض الاحتفالات الدينية للنساطرة وللمسلمين أيضا . ولعل البعض قد توهם في ذلك ، تحول بعض المغول إلى المسيحية وأشاعوا ذلك ، وتحولت الشائعة إلى حقيقة صدقها بباوات وحكام أوروبا في تلك المرحلة .

## الأرنون والمغول

وفي عام ١٢٥٣م قام الملك هيشوم Hetoum بنفسه لزيارة الخان الأعظم مونكو في العاصمة قراقورم ، وكان أول ملك يصل إلى البلاط المغولي من تلقاء نفسه ، وقد تم إستقباله بكل ترحاب ، ولقد وعد المغول بعدم فرض ضرائب على الكنائس والأديرة الأرمنية التي تقع في الأراضي المغولية ،

ولم تكن زيارة هيثوم قاصرة على حماية المسيحية الذين يعيشون على أرض المغول ، ولكنه كان يريد الحصول على مساعدة المغول للسيطرة على الأرضي المقدسة وإنزعاعها من أيدي المسلمين .

وقد عاد هيثوم في عام ١٢٥٦ م متسلحاً بالوعود التي بذلها المغول محملاً بالهدايا ، وكان هيثوم قد سار في رحلته إلى المغول عبر أرمينيا الكبرى ومر بها عند عودته أيضاً ، وفي هذه المرة الأخيرة ظل فترة طويلة يستقبل خلالها العديد من الأمراء المحليين والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكان الملك الأرمن ليوالثاني Leo II ( ١١٨٧ - ١٢١٩ م ) يعتبر نفسه ملكاً على كل الأرمن ، وقد سجل ذلك على بعض عملاته ، ولكن زيارة الملك هيثوم تعتبر أول زيارة يقوم حاكم قيليقية بإتصال مباشر مع السكان في أرمينيا الكبرى .

وحاول هيثوم أن يكسب الأمراء الصليبيين إلى جانه ليعيدوا فكرة التحالف مع المغول ، ولكنه لم يوفق إلا مع أمير أنطاكيه بوهمند السادس Bohemond VI ( ١٢٥١ - ١٢٦٨ م ) ، وقد ظل هيثوم متفهماً ومخلصاً لهذه الفكرة ، وقام من جانبه بزيارات متعددة إلى بلاط المغول ، وقد مساعداته العسكرية للمغول عندما طلب منه ذلك. وقد حاريت الفرق الأرمنية إلى جانب القوات المغولية في آسيا الصغرى وبلاد الشام . وقد أدت هذه المساعدات إلى تقدم هيثوم وإستعادة بعض القلاع التي كان سلاجقة الروم قد إستولوا عليها ، وهي القلاع التي كانت تابعة للأمير الأرمني كوخ باسيل Kogh Vasil ،

لقد كان في عودة هذه القلاع إلى أرمينيا بداية المنافع التي حصل عليها الأرمن من جراء تحالفهم مع المغول ، وقد نجح هيثوم أيضاً في حروبه مع سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى قلوج أرسلان الرابع ( ١٢٥٧ - ١٢٦٧ م ) وانتصر عليه ، وعلى التركمان الذين إستقروا على حدود قيليقية

فى عام ١٢٥٩ م . ولقد أخترق صفوفهم وجراحتهم قرمان Karaman برجحاً ميتاً ، ودافع عن منطقة سليوقية Seleucia ضد هجماتهم فى عام ١٢٦٣ م . وكان على الأرمن أن يتحملوا نتيجة تحالفهم مع المغول خاصة بعد هزيمه كتبغا فى معركة عين جالوت ، وبعد إسترداد المسلمين لمدينة دمشق وحلب وضعف التفوذ المغولي فى بلاد الشام ، ولقد دفعت أرمينيا ثمن تحالفها مع المغول عندما وقفت قواتها ضد المسلمين أعداء الصليبيين والمغول .

وحاول هيثوم ملك أرمينيا التفاوض مع بيبرس ، وتم تبادل السفراء بينهما ، لكن طلبات السلطان كان مبالغ فيها ، وأحس هيثوم أن الحرب مع الماليك واقعة لامحالة ، فذهب إلى تبريز يطلب معونة المغول ، وفي تلك المرحلة عاجل السلطان بيبرس بدفع أمرائه وقواته مع قوات المنصور الثانى صاحب حماه لغزو قيليقية . وقد مرت هذه القوات عبر مرات الأمانوس Amanus بدلأ من المرور عبر مرات سوريا وذلك فى عام ١٢٦٦ م . وقد حاولت القوات الأرمنية بقيادة الكندستبل سمباد والأميران الصفيران ثوروس وليون Toros and leon مقاومة القوات الإسلامية بكل مالديها من قوة . ولكن القوات الأرمنية هُزمت فى هذه المعركة ، وقد قتل ثوروس كما أسر كل من ليون وسمباد ، وقد دام اجتياح القوات الإسلامية البلاد الأرمنية مدة عشرين يوماً دون أن تبدى القوات الأرمنية أيه مقاومة ، وقد إجتاحت مدن المصيصه وأدرنه وأياس وطرسوس وبعض البلاد الأخرى . وفي مدينة سيس أضرمت القوات الإسلامية النار فى كاتدرائيتها وأخذت كنوزها وكل ما تجمع من مجواهرات بداخلها ، كما ذبحت القوات الإسلامية الآلاف من السكان وحملت العديد منهم أسرى إلى مصر ، وعندما عاد هيثوم من رحلته إلى المغول فى تبريز وجد بلاده خراباً ، وقد أثر ذلك عليه كثيراً ، وظل ينتظر عودة ابنه ليون Leon من الأسر حتى يتخلى عن العرش والتماس السلوى فى أحد الأديرة .

ويعد هزيمة القوات الأرمنية فرض بيبرس على مملكة أرمينيا شروطاً قاسية ، فقد طلب تسليم كل القلاع الموجودة في منطقة الأمانوس وكل القلاع المقاومة على الحدود مع بلاد الشام باستثناء مدينة بهنسى . كما تم إطلاق سراح الأمير ليون بعد إتصالات عديدة مقابل إطلاق سراح الأمير سنقر الأشقر - المقرب إلى بيبرس وهو الذي أسره المغول في حلب .

لقد أستسلمت قيليقية للقوات الإسلامية ، وتخلى فرسان الدواية عن قلعة بغراس والقلاع المجاورة لها ، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام القوات المملوكية ، ولم يعد هناك سوى المغول الذي أصبح بإمكانهم تقديم المساعدة للأرمن ضد القوات المملوكية . ورغم هذا كله فإن وضع الأرمن أصبح ضعيفاً مما كان عليه في عهد هولاكو ، وعندما أطلق سراح ليون إصطحبه والده هيشوم إلى أبيغا ليصبح ليون تحت حمايته ، وأن يصبح أبيغا وريثاً لملكته من بعده ، وبعد أن اعتزل هيشوم في عام ١٢٦٩م عاد ليون من بلاط المغول ليصبح ملكاً على أرمينية . واعتقد ليون المعروف بالثالث ( ١٢٧٠ - ١٢٨٩م ) في التحالف مع المغول وهو الأمل الذي رآه ليون لإنقاذ الأراضي المقدسة .

وقد إلتمس ليون المساعدة من الغرب الأوروبي أيضاً ، كما أن القائد المغولي أبيغا قد أرسل السفراء بدوره إلى البابا في روما وإلى إدوارد الأول إنجلترا من أجل التحالف ضد الماليك ، ولكن ذلك لم يسفر عن عمل ملموس ، لقد أصبح من المؤكد أن مثل هذا التحالف ، أصبح غير ممكن ولن يصاحبه أي نجاح . وفي غياب أي عمل عسكري أوربي أو مغولي نجح الماليك في إستكمال إنتصاراتهم العسكرية وقكنوا خلال سنوات قليلة أن يستولوا على الممتلكات الصليبية في بلاد الشام وأن يحطموا في الجزء الأول من القرن الرابع عشر مملكة أرمينية ،

لقد أعطت أعمال بيبرس العسكرية ضد الصليبيين الفرصة للملك

الأرمني ليون في بداية عهده أن يصلح مادرته القوات الإسلامية في أرمينية ، فبادر بإعطاء إمتيازات أجنبيّة للبنادقة في بلاده عام ١٢٧١م ، وقد تم إعادة بناء مدينة اياس وأصبحت مركزاً تجاريّاً كبيراً. ولقد ذكر الرحالة ماركوبولو الذي زار المدينة عام ١٢٧١م بقوله « وهي مكان تدور فيه تجارة ضخمة ، ويكثر التجار من التردد على مينائها قادمين من البنديقية وجنه و من أماكن أخرى كثيرة ، وهم يتاجرون في التوابيل والعقاقير والبضائع المختلفة كالمنسوجات والحرير والصوف وغير ذلك من السلع الثمينة ، ومن المتبع أن من يريدون السفر إلى البلاد الداخلية في الشرق أن يقصدون هذا الشغر » وعندهما استعاد المسلمون المدن الساحلية الصليبية ، تحولت التجارة إلى مدينة اياس وأصبحت مينا هام وزاد نوها ، وأصبحت المينا الرئيسي في حوض البحر المتوسط للبضائع التي تأتي من أواسط آسيا ، ولكن أهميتها وثرواتها قد جعلها هدفاً رئيسياً لغارات القوات المملوكية .

لقد بدأت الغارات المملوكية على الأرمن في عام ١٢٧٥م ، وكانت سريعة ومخرية وتقدمت حتى حصن كريкос Carycus . وفي الوقت نفسه تقدمت عناصر التركمان ودخلت قيليقية من الغرب . ورغم مقاومتها فإنها تقدمت داخل الأراضي الأرمنية سنة بعد أخرى . وقد زاد قيام بعض الشورات داخل البلاد من صعوبة التعامل مع القوات المملوكية خاصة أنه في تلك المرحلة لم يكن هناك مساعدات مغولية للمملكة أرمنية ، ولكن تقدم القوات المغولية إلى سوريا في عام ١٢٨١م كانت عاملاً خطيراً في موازين القوى في تلك النواحي منذ موت هولاكو ، لقد حارب الأرمن إلى جانب المغول . ولكن السلطان قلاوون نجح في هزيمة القوات المغولية والأرمنية بعد أن نجح في إيقاف الصليبيين موقف الحياد .

ووُقعت أرمينية فريسة للسلب والنهب من قبل القوات المغولية

والمصرية والتركمانية فضلاً عن الأكراد ، واستعجلت النار في مدينة أياس ، وسلبت المنازل وهجرها سكانها الكثيرون الذين هربوا إلى القلابع التي بنوها حديثاً بعيداً عن البحر ، ولم يكن أمام الملك ليون سوى إرسال السفراء إلى مصر لطلب السلام ، ولكن هؤلاء السفراء ظلوا سجناء حتى تدخل مقدم جماعة الداوية في هذا الأمر . وهناك عامل آخر ظهر في تلك المرحلة هو أن الخان المغولي أرغون كان متعاطفاً مع الصليبيين ، لذلك ذهب الملك الأرمني ليون إلى بلاط المغول ليقدم فروض الولاء والطاعة ، وقد خشي قلاوون من تدخل المغول ، لذلك عقد هذه مدتتها عشر سنوات مع الصليبيين بدأت من شهر بونيه في ١٢٨٥م ، وذلك مقابل جزية سنوية قيمتها مليون دينار مع منح مزايا كثيرة للمصريين . ولكن هذا السلام الذي عاد على المصريين بالفوائد المادية الكثيرة لم يستمر طويلاً .

وبعد سقوط عكا وطرابلس وتولى هيشوم الشانى حكم أرمينيا ( ١٢٨٩ - ١٢٩٣م ) كانت القوات المملوكية في حمص ، وحاول هيشوم ابعاد خطر القوات المملوكية عن بلاده ، فقدم إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ١٢٩٠ - ١٢٩٣م مبلغاً كبيراً من المال ، وقد قبله السلطان حتى يستكمل غزو الأراضي التي كانت في حوزة الصليبيين . وفي ربيع عام ١٢٩٢م سارت القوات المملوكية حتى وصلت إلى مدينة هرمجلا ( قلعة الروم ) Hromgla ، وقد قاومت القلعة لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً ، وفي النهاية تم إجتياحها بقوة السلاح

في الحادى عشر من مايو من العام نفسه ، وقد وقعت مذبحة رهيبة قتل فيها العديد ، كما أخذ الكثير أسرى ومنهم الجاثليق ستيفن الرابع Stephen IV نفسه ، وقد نهبت القوات المملوكية الكنائس ومقر إقامة الجاثليق وخربت وسلبت المخلفات المقدسة وكنوز الكنيسة ، واعتبر سقوط هرمجلا نصراً كبيراً ، وقد استقبل السلطان في دمشق إستقبلاً مشرفاً . وطلت الطبول تدق طوال الليل على أنوار الشموع .

ولم تدخل القوات المملوکية بلاد الأرمن على الفور ، وفي عام ١٢٩٣ تلقت القوات المملوکية الموجودة في دمشق الأوامر للتقدم إلى مدينة سيس sis . وعلى أثر ذلك تحرك الملك الأرمني وأرسل السفراء ، وفي النهاية أجبر الأرمن على التخلص من ماتبقى من قلاع على الحدود وهى بھسنى وتل حمدون وأن يضاعفوا الضريبة التي كان يدفعها الأرمن من قبل . مات الأشرف في أواخر عام ١٢٩٣ م ، واغتصب العرش السلطان كتبغا ، كما إجتاحت المجاعة والطاعون مصر والشام .

وقد أدى هذا كله إلى راحة الأرمن من الخطر المملوکي ، وإن الملك هيثوم الذي كان قد تنازل عن العرش لأخيه ثوروس الثالث في عام ١٢٩٢ م قد عاد إلى العرش مرة أخرى ولمدة عامين ، وقد وطد الروابط مع مملكة قبرص وهي المملكة الوحيدة المسيحية التي ظلت باقية بعد سقوط الأمارات الصليبية في بلاد الشام ، وقد زوج أخته إيزابيلا إلى عموري أخ الملك هنري الثاني ملك قبرص ، وحاول هيثوم أيضاً إحياء التحالف مع المغول ، وذهب لزيارة حفيده هولاكو الخان بایدو Baidn في فارس ( ١٢٩٥ م ) ، وبينما كان هيثوم موجوداً في مراغة إستطاع أن ينقذ من التخريب الكنيسة السريانية التي شيدها ريان سوما Rabban Mar yabba hala Souma وأن يحمي الطريق النسطوري ماريا ياهبالاها Mar Palalogus chaél IX ( ١٢٩٤ - ١٣٠٢ م ) ابن وشيريك اندرونيقي الشانى باليولوج Andronicus II Palalologus في العرش .

وعندما إستولى غازان على السلطة من بایدو ذهب هيثوم إلى غازان وتلقى منه وعداً بحماية الكنائس المسيحية ، ويحتمل أنه تلقى منه وعداً بتحالف عسكري ، وعند عودة هيثوم إلى مدينة سيس Mi في عام ١٢٩٥ م رب زواج أخته رستا Rita وميخائيل التاسع-

ومن أجل إقامة تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية ، إنجى الملك هيشوم بنفسه إلى العاصمة البيزنطية وإصطحب معه ابنه ثوروس ، وخلال غيابه عن أرمينية قام أخيه سمباد واستولى على السلطة عام ١٢٩٦ م ، وسانده في ذلك الجائليق جريجورى السابع والبابا بونيفاس الثامن في روما .

تأثرت قيليقية كثيراً بالصراع الداخلي ، ولما عاد هيشوم إلى بلاد سعى للحصول على تأييد المغول ، ولكنه لقي مقاومة من أخيه سمباد عند مدینته قبصريه وتم القبض عليه وسجنه مع أخيه ثوروس ، ثم شنقه بعد ذلك ، أما أخيه هيشوم فقد أصيب بضرر كبير في بصره ، ولكن الاخ الأصغر قسطنطين نجح في طرد سمباد من المملكة وأطلق سراح أخيه هيشوم ، ثم استولى قسطنطين على السلطة عام ١٢٩٨ م ، وبعد عام شفى هيشوم واستعاد السلطة للمرة الثالثة ونفي أخوه سمباد وقسطنطين إلى القسطنطينية حيث عاش هناك .

كان ماحدث عاملاً مشجعاً للمماليك على غزو مملكة أرمينيا ، وساعد على ذلك ما أصاب الجانب المغولي من إنشغال بالأمور الداخلية . وفي عام ١٢٩٨ إجتاح المماليك مدينة أدنه والمصيصة واستولوا على احدى عشر قلعة من بينهم مرعش وتل حمدون ، وهي المدن التي سبق أن تخلى عنها الأرمن من قبل ثم استعادوها . ورغم هذا كله كان هيشوم لا يزال يطمع في مساعدة المغول ، وقد بدا لبعض الوقت أنه يمكن إقامة هذا التحالف وهزيمة المماليك ، فلقد قاد الحان المغولي غازان حملة على الشام إشترك فيها هيشوم بحوالى خمسة آلاف من رجاله ، وكان اللقاء عن مدينة حمص في ديسمبر عام ١٢٩٩ م ، ولكن غازان مالبث أن عاد بسرعة بعد أن دخلت القوات المملوكية بلاد الشام ، وكانت الحملة الثانية عام ١٣٠١ م وكان للأحوال المناخية عاملاً كبيراً في فشل هذه الحملة ، أما الحملة الثالثة فقد كانت في عام ١٣٠٢ م وقد انتهت

بكارثة ، فقد غرق الكثير من القوات المغولية في فيضان نهر الفرات فانسحب هيشوم مع القوات المغولية وذهب إلى بلاط الخان غازان قبل أن يعود إلى بلاده .

أصبح الطريق مفتوحاً إلى أرمينية مرة أمام القوات المملوكية ، وفي عام ١٣٠٢ م قام أمير حلب بحملة سريعة فأحرق المحاصيل وإستولى على الكثير من الأسلاب ، وفي عام ١٣٠٤ م إستولى المماليك على مدينة تل حمدون التي إستعادها هيشوم بعد إنتصار المغول عام ١٢٩٩ . وعادت القوات المملوكية في عام ١٣٠٥ ، رغم مساعدة بعض القوات المغولية التي كانت تقوم بجمع الجزية السنوية للقوات الأرمنية فقد تكبّد الأرمن خسائر فادحة ، وقد وقعت الهزيمة بعد وصول بعض القوات من مصر . وقد عبر الرحالة مارينو سانودو Marino Sanudo عن الحالة السيئة التي وصلت إليها بلاد الأرمن في تلك الرحلة ، وكتب يقول لقد وقعت بلاد الأرمن بين أنیاب أربع وحوش وهم الأسد أو المغول الذين دفع لهم الأرمن جزية كبيرة ، والنمر أو السلطان المملوكي الذي قام بعمليات غزو يومية للبلاد ، والذئب أو الترك الذي قضى على قوة الأرمن ، والرابع وهو الحية أو القراءنة الذين نخرّوا في عظام المسيحية في أرمينيا ، وزادت هذه المشاكل عندما تحول المغول إلى الإسلام وبذلك فقد الأرمن الأمل في أي مساعدات مغولية .

وتنازل هيشوم عن العرش لابن عمّه ليون الرابع ( ١٣٠١ - ١٣٠٧ م ) وسلك الرهبانية وقيّز عهد ليون لاضطراب الداخلى . وكان لسياسة هيشوم السابقة مع الباباوية دوراً كبيراً في ذلك ، وكانت النهاية غير متوقعة ووّقعت في ١١/١٧/١٣٠٧ م . فقد قام الأمير المغولي بـlarghu بقتل هيشوم والملك ليون ومعهم أربعين من الأرمن الذين كانوا معهم في مذبحه أعتبرت خيانة للأمن .

## القبيلة الذهبية وبيزنطة

تعتبر القبيلة الذهبية Golden horde الجزء الغربي من إمبراطورية المغول ، وقد تعمت منذ قيامها بطبع إستقلالي أكثر من أي جزء آخر بين أقسام امبراطورية المغول . ويرجع ذلك الى الوضع الاستثنائي الذي تقع به الزعيم باطو . وكان للحاكم الأول وهو باطو والحاكم الثاني وهو سارتاقي وضع خاص في امبراطورية المغول . ويتبين ذلك مما ذكره وليم روبيروك سفير الملك الفرنسي لويس التاسع إلى المغول ، فقد وضع وليم روبيروك كلا من الخان مونكو وهو خان المغول الأعظم في منغوليا على قدم المساواة مع باطوخان القبيلة الزرقاء ( فرع من القبيلة الذهبية ) ، وذكر أنهم عينان في رأس واحد ، ورغم انهما اثنان ، إلا ان لهما رؤية واحدة .

وتحت قيادة بركه ( ١٢٥٧ - ١٢٦٦ م ) أصبحت القبيلة الذهبية أكثر استقلالاً ، ولعل ذلك مرجعه إلى ان قويلاي الخان الأعظم في منغوليا لم يكن له إتصال كبير مع القبيلة الذهبية البعيدة الأقليم .

أما الاتصالات بين الخان الأعظم قويلاي وخانات فارس فقد كانت أكثر اتصالاً . ولم يكن ذلك لقرب المسافة بين منغوليا وايران ولكن بفضل الاتصال البحري بين الصين وفارس أيضاً ، رغم أن هذا الطريق بطيء ومشحون بالمخاطر . ولقد كان هذا الطريق مناسباً تماماً للاميرة المغولية كوكاشين Kokachin الذي اتخذته في طريقها للزواج من الخان أرغون في فارس ( ت ١٢٨٤ م ) ولكن قدرها جعلها تتزوج من ابنه غازان ( ت ١٢٩٥ م ) وهي الاميرة التي صاحبت الراحلة ماركوبولو في رحلته .

وإذا كان هناك اتصال قوى بين المغول في فارس وبين منغوليا فإن المغول الروس تحت قيادة الخان بركة ، لم يتمكنوا من العمل على زيادة

استقلالهم .. ولكنهم قد تکنوا من التقدم الى المناطق الحضرية التي  
فصلتهم عن جنسهم الاصلى ، وكان السکان الذين عاشوا تحت قيادة  
القبيلة الذهبیه خلیطاً اجتماعیاً ولغویاً و دینیاً .

لقد کان هناك ما یعرف بسكان الغابات وهم عناصر - Finno Ugrians . كما اسس المغول المنتصرون ما یعرف جغرافیاً باسم اوراسیا . وغالبیتهم من عناصر سلجوقية تركية ، وكانت مسیحیة ثم إسلامیة .

وفی الجنوبي تقابل المغول مع الاتراك الذين عرفو باسم القفجاق ( کومان بولفزتی ) (Kumans,Polovtsy) أما في الشمال البعید فیإن المغول قد وضعوا نهاية للامبراطورية البلغاریة على نهر الفوجا ، وهى دولة تركية کان لها صلات تجارية مع بغداد ومصر منذ مائة عام . وقد ظلت هذه المناطق وطوال ضم المغول لها الاقالیم التي امدت الامبراطورية البيزنطیة والدولة الايویة بالرجال ، ولقد کان لمالیک القفجاق أهمیة في عهد السلطان الصالح أیوب خاصة عندما عهد اليهم ليكونوا حرسه الخاص . لقد استخدم کثیر من الاتراك القفجاق إصطلاحات جديدة بتأثير الغزو المغولي .

لقد تفهم القفجاق المغول رغم انهم اعداء ، وبعد عام ١٢٥٠ م وبعد قیام الدولة المملوکیة ، فإن بعض الاتراك القفجاق هم الذين تولوا السلطة في مصر والشام وفي جنوب روسيا ، وقد كانوا يفوقون المغول عدداً . وهناك حقيقة هامة وهي أن الممالیک في مصر ومغول القبیلة الذهبیة كانوا حلفاء طبیعینين وذلك بسبب التقاید التاريخیة التي تعود إلى أيام إمبراطورية بلغار الفوجا ، ويسبب الارتباط العرقی بين القبیلة الذهبیة وبين حكام مصر من سلاطین الممالیک .

ان اللهجه التي تکلم بها الممالیک كانت نفس اللهجه التي تکلم بها معظم الاتراك الذين كانوا يتبعون المخان برکة ، وحتى هذا الوقت فإن الاتراك الذين یسكنون في منتصف منطقه الفوجا یتكلمون اللغة

التركية الفجائية . إن كراهية الماليك للمغول لم تتعكس على القبيلة الذهبية ولكن هذه الكراهية إنصبت على مغول فارس ، وفي الوقت نفسه كان التوتر قد ساد بين المغول في ايران والمغول في روسيا . لقد كان للعداء الذي ساد بين القبيلة الذهبية والمغول في فارس أثراً كبيراً على الاحداث التي وقعت في آسيا الصغرى وعلى الامارات الصليبية ، ولعله ليس من الضروري أن ندرس على هذه الصفحات أسبابها بل نكتفى بنتائجها .

ان تحويل بركه خان المغول في جنوب روسيا وغرب سيبيريا وهم مغول القبيلة الزرقاء للإسلام كان بدافع شخصي منه . وظلت مواقفه واضحة ضد المغول الآخرين لانزالهم الاضطهاد باصحاب الديانات الأخرى غير المغولية . كما أن بركة خان لم يمارس أى ضغط على اتباعه لاعتناق الديانة الإسلامية . ولقد كان مخلصاً للحملات التي تولى قيادتها ابن عمده هولاكو ضد المسلمين والتي اجتازوا فيها بغداد وقضوا على الخلافة العباسية ١٢٥٨ م . لقد اعترض بركة على هذه التصرفات المغولية وطلب من قواته أن يتضمنوا إلى الجيش المملوكي . وربما يكون ذلك سليماً ومحبلاً رغم صمت الوثائق التاريخية ، وأن بعض الكتاib المغولية التابعة للخان بركة قد أدت بموافقته لتحارب في معركة عين جالوت قوات الخان المغولي كتبغا . إن الصراع بين خلفاء باطو زعيم القبيلة الذهبية ( ١٢٢٧ - ١٢٥٥ م ) واليخانات فارس لم يكن بسبب الخلاف الديني ، لأن هذا الصراع ظل في تزايد مستمر في عهد مانكو تيمور Mangue Timar ( توفي ١٢٨٠ م ) الذي خلف الخان بركه على عرش القبيلة الزرقاء ، ولم يكن مانكو تيمور هذا مسلماً ، وواقع الأمر أن الاعتناق النهائي للإسلام من خانات القبيلة الذهبية كان أيام حكم جانى بك Jani Beg ( ١٣٤٢ - ١٣٥٧ م ) ، وذلك بعد أن تحول خانات فارس إلى الإسلام .

ومن المعروف في التاريخ أن الذاتي والشخصية تلعب دوراً كبيراً ، لقد كان هولاكو أول خانات فارس ، وكان الإثنان من خلفاء المغول على منغوليا هما مونكوه (ت ١٢٦٠م) وقوبيلاى (ت ١٢٩٣م) وكان بركه ابن عمها ، لقد كانت العلاقة بين هولاكو ومونكوه حميمة للغاية . ولقد سجل المؤرخ رشيد الدين حزن هولاكو الشديد على مانكوه عند وفاته ، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات سيئة مع بركة ولعل الترابط بين هولاكو ومونكوه كان يرجع إلى عوامل شخصية ، ويوضح ذلك أن العامل الرئيسي في القرار الخاص بتخله عن مونكوه عن منطقة القوقاز إلى هولاكو يرجع إلى هذا العامل .

وإن محاولات هولاكو للقضاء على بركه كان يرجع إلى حقوق هولاكو الاقطاعية في الحكم ومحاولاته ليدفع به إلى جنوب القوقاز قد باعه بالفشل . وأن التباين الذي فصل القبيلة الذهبية عن عالم المغول قد زاد بعد موت مونكوه .

ولم يتوقف الصراع بعد موت هولاكو في عام ١٢٦٥م أو بعد موت بركه في عام ١٢٦٦م ، فلقد ظل الصراع قائماً بين أبغا Abagha خان فارس وبين مانكوه تيمور (قبيلة زرقاء) ، وكان الذي بدأ هذا الصراع حكام القبيلة الذهبية ، لأنه من أجل حماية حدود القوقاز ، اضطر أبغا لإقامة نظام تحصينات تتكون من سور وخدق على طول كورا Kura ، وفي ذلك إدماج لمنطقة إستبس موغان Mughan . وهو المكان المفضل لإستراحة الطيور المهاجرة التي لعبت دوراً كبيراً في الوضع الدفاعي - كاندار - لخانات منغوليا لأنه بتحرك العدو في أرض الأستبس فإن تحليق هذه الطيور في السماء يقدم التحذير الكافى لهذه التحركات . لقد كانت الاهتمامات السياسية للقبيلة الذهبية من جانب والخانات الآخرين من جانب آخر ، كانت متعارضة . ولقد بحث كل طرف منها على حليف يفوق الجانب الآخر ، ولذلك تطلع مغول منغوليا إلى التحالف مع خانات

فارس ، والشئ ذاته فعله بركه خان القبيلة الذهبية كما فعله مانكو تيمور وذلك بتحالف بركة وابنه مانكو تيمور مع كيوك خان منغوليا ( ١٢٤٦ - ١٢٤٩ م ) ابن أوكيتاي ، لقد أسرع كيوك الى القائد المغولي إريك بوجى Arig Boge لنجدته أو للتفاهم معه أو للقيام بعمل مشترك ، ولكنه بعد موافقة قوييلاي ، فقد وقف بجانبه وتولى أمر الاراضى التى تتوسط رادى إيتى وشو Iti and chu وأدمجها فى الجزء الشمالى الذى يعرف حالياً باسم أفغانستان .

وهكذا أصبح مغول فارس محاطين بسلسلة من الخلفاء تفصل بين الماليك والقبيلة الذهبية ومغول منغوليا . وكانت السفارات المتبادلة بين الماليك والقبيلة الذهبية متعددة ، وكانت العوامل الجغرافية مثل العوامل السياسية فقد كان هناك محوراً بين سكان ضفاف نهر النيل وسكان نهر الفولجا .

ولم يكن من الطبيعي أن تتجنب بيزنطة الارتباط بثلث العلاقة بين الماليك ودولتي المغول الأخريتين ولقد لفت هذا نظر الامبراطور البيزنطى ميخائيل الشامن باليولوجس الذى تولى أمر العرش البيزنطى ويادر بالاتصال بالمغول . وقد استغل ميخائيل العداوة القائمة بين الفروع المغولية ، حتى أن كل طرف من أطراف المغول سارع بمساعدة الإمبراطورية البيزنطية ، وبالنسبة للعلاقات مع مغول فارس فإن ميخائيل باليولوج قد اضطر لمصايرتهم ليأمن جانبهم ، وحتى قبل أن يستعيد ميخائيل الإمبراطورية وأثناء إقامته فى المنفى فى مدينة تيقىه ، فقد عقد حلفاً مع هولاكو أقوى شخصية بعد جنكيز خان ، وخطبت ابنة غير شرعية للإمبراطور إلى هولاكو ، وبعد موت هولاكو تزوجت من إبغا ابنه وخليفته .

إن زيادة الصراع بين بيزنطة والقبيلة الذهبية كان نتيجة طبيعية لعلاقات الصداقة مع خانات منغوليا . وفي عام ١٢٥٦ تقدم الخان يركة وحلفاؤه البلغار وهاجموا الحدود الشمالية البيزنطية ، وكانت القوات المغولية تحت قيادة الامير المغولي نوجاى Noghay ( ت حوالي ١٢٩٩ ) ، وقد ظل نوجاى لعدة سنوات الحاكم الفعلى للأقاليم الروسية الجنوبية ومنطقة الحدود مع بيزنطة . وفي حوالي ١٢٧٣ م تزوج من يوفروسين Euphrosyne وهى ابنة غير شرعية للإمبراطور ميخائيل باليولوجس ، وعلى ذلك يكون الإمبراطور البيزنطي قد ارتبط بالصاهرة مع ايلخانات فارس ، ومع خانات القبيلة الذهبية ، وبهذه المهارة الدبلوماسية أمنت الإمبراطورية البيزنطية شر خطر المنافسة المغولية . ومع ذلك فإنه فى نهاية عهد الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس ، فإنه نجح فى اقرار العلاقات الودية مع السلطان المملوکي قلاوون . وإن الطريق البحرى عبر البسفور قد ربط بين القبيلة الذهبية ومصر ، كان نتيجة ذلك تدفق التجارة عبر الاراضى البيزنطية ، ومزيداً من الاتصالات الدبلوماسية بين الماليك والقبيلة الذهبية .



## الفصل الخامس المغول وأوروبا بعد عين جالوت

- سفارات أرغون إلى أوربا

أ - سفارة رابان سوما ١٢٨٧ م

ب - سفارة بوسكال أف جيزولف ١٢٨٩ م

ج - سفارة اندره وسهادين ١٢٩٠ م

- سفارات عازان إلى أوربا

أ - سفارة جيوسكارد باستاري ١٣٠٠ م

- سفارات اوبلجايتو إلى أوربا

- نشاط البعثات التبشيرية.

- فكرة الخصار الاقتصادي لدولة الماليك.



كان موقف الصليبيين في بلاد الشام بعد عام ١٢٦٠ في غاية السوء خاصة بعد هزيمة المغول في عين جالوت ، لذلك بدأ الغرب الأوروبي يبحث مرة أخرى عن مساعدات خارجية ، وكان إبغا خان المغول في فارس ١٢٦٥ - ١٩٨٢ م ، صهر الامبراطور ميخائيل ، معروف بمبوله للمسيحية وبذلك أصبح إبغا هدفاً واضحاً للإقتراحات السياسية . وقد شارك البابا كلمنت الرابع أفكار الملك الأراغونى جيمس الأول James ١٢١٣ - ١٢٦٧ م ) في الاعداد لحملة صليبية ومحالفه المغول . وقد ذهب سفيرهما جيمس الاريک اف بريجنان James Alaric of perpignan إلى الخان المغولي في فارس وقد استقبل استقبلاً رائعاً في البلاط المغولي عند إبغا ، لعل ذلك حدث عام ١٢٦٧ ، وقد عاد إلى الغرب يصاحبه إثنان من سفراه المغول . ودام الاتصال بين البابا كلمنت الرابع وأبغا بصورة مستمرة ، وفي احدى الخطابات التي أرسلها البابا إلى الخان المغولي ، إشتكي البابا من أنه تسلم خطاباً من إبغا يصعب على أي فرد أن يقرأه ، وقد أبدى البابا أسفه إن الخان أيضاً لم يكتب له باللغة اللاتينية كما سبق في مناسبات أخرى ، وهناك رسالة ودية أرسلها إبغا في ١٢٦٧ م ، أو ربما عام ١٢٧٩ خاصة بالسفراء الذين قدموا إلى البابا وهذه الرسالة محفوظة في إرشيف الفاتيكان .

وظل إبغا على الاتصال بعدد من القادة الأوروبيين ، وقد اسفرت هذه الاتصالات عن مشروع تعاون عسكري بين المغول وأوروبا ، ولكن هذا كله لم يصل إلى نتائج ملموسة . ففي أول سبتمبر من عام ١٢٦٩ م أبحر من مدينة برشلونة جيمس الأول ملك إراغون بأسطول قوي لإنقاذ المستعمرات الصليبية في بلاد الشام ، ولكن عاصفة قوية منعت الأسطول من مواصلة

الرحلة ، واضطر الملك والجزء الأكبر من الأسطول إلى العودة إلى بلاده ، ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير يقوده ولدان غير شرعيين للملك ، وقد وصل الأسطول إلى عكا في نهاية ديسمبر من العام نفسه ، وقد فشلت الحملة في إنجاز تحالف مع أبيغا الذي كان مشغولاً في تلك المرحلة بالدفاع عن أقليم خراسان ضد الأمير بركه .

وفي الوقت الذي خطط فيه لويس التاسع للقيام بحملة على تونس عام ١٢٧٠ م كان أبيغا راغباً ومستعداً لهاجمة السلطان المملوكي بيبرس ، وكان مثل هذا التعاون بين المشرق والغرب قد خطط له البابا كلمون الرابع ، ويداً من ذلك أنه يمكن إصلاح موازين القوى التي بدت لصالح المماليك ، ولكن فشل حملة لويس التاسع عوقت الامكانيات التي بدت من التحالف مع المغول في فارس ، لأن لويس فضل القيام بحملته على تونس حيث مات هناك .

وكان إدوارد ملك إنجلترا أكثر وضوحاً في تعامله مع المغول ، وبعد أن رسا بحملته في التاسع من مايو ١٢٧١ م في ميناء عكا ، عمل على الحصول على مساعدة أبيغا ، وأرسل سفاراة من ثلاثة أعضاء لمناقشة شروط التعاون ، وكان نتيجة هذه المناقشات قيام جيش مغولي يبلغ عدده حوالي عشرة آلاف فارس وعسكرها في آسيا الصغرى وغزا سوريا . وقد أحرزت هذه القوات بعض النجاح ، ولكن القوات المغولية انسحب قبل أن تشتbeck مع الجيش المملوكي الرئيسي .

ورغم هذه الأهمية المحدودة للتحالف المغولي الإنجليزي باعتباره أول تحالف بين المغول والغرب ، وبالرغم أيضاً من النجاح الظاهري المحدود لهذا التعاون ، فإن أبيغا رأى أن يقوى من هذا التعاون الإنجليزي ، أما بالنسبة للملك إدوارد الذي عاد إلى بلاده ليتولى عرش إنجلترا ، فإنه لم

ينس آماله في التحالف مع إبغا ومع خليفة أرغون ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ م ) ، وكلف أحد فرسان الإسبتارية الإنجليزي ويدعى جوزيف أوف كانسي Joseph of Cancy ، بامداده بالتقارير الالزمه حول المغول وأحوال الأرض المقدسة .

### سفارات أرغون إلى أوروبا

ويتميز عهد الخان أرغون بقمة العلاقات بين المغول والغرب الأوروبي ومن الأهمية أن نلاحظ أن البوذى أرغون تحت حكمه البوذى أعلن أن الديانة الرسمية في دولة مغول فارس لا يمكن أن تقيم علاقة صداقة مع الأمراء المسيحيين كما كانت عليه في عهد أسلافه أنصاف المسيحيين .

وأرسل أرغون أول سفارة له إلى الغرب كانت إلى البابا هونوريوس في عام ١٢٨٥ م ، وحملت هذه السفاره خطاباً أرخ في مايو في العام نفسه لا يزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفي هذا الخطاب يشير أرغون إلى المزايا الخاصة التي تلائم المسيحية وتلائمها ،

وأرسل أرغون أول سفارة له إلى الغرب وكانت إلى البابا هونوزيوس في عام ١٢٨٥ م ، وحملت هذه السفاره خطاباً أرخ في مايو في العام نفسه لا يزال موجوداً بلغته اللاتينية ، وفي هذا الخطاب يشير أرغون إلى المزايا الخاصة التي تلائم المسيحية وتلائمها ، ومع إشارة خاصة إلى سلفة أحمد تكودار الذي اعتنق الديانة الإسلامية ( ١٢٨٢ - ١٢٨٤ م ) والذي فقد عرشه بسبب ذلك ، وتولى أرغون من بعده . وأن الشقه في رسالة الاليخان أرغون قد أيدها بعض الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان الذين عادوا من بلاد الشام . والمهم أن في هذه الرسالة أو فيما تلاها من رسائل مع الغرب الأوروبي ما يشير إلى تحول أرغون عن الديانة البوذية . وإن كان البابا في أحد خطاباته قد نصح أرغون بالدخول في الديانة المسيحية ،

وكان البابا نفسه يعول كثيراً على هذا الأمل ، ولكن أرغون خيب أمل البابا في هذا الجانب . وفي هذا الخطاب المؤرخ في ١٤ مايو ١٢٩٠ م إلى البابا نيقولا الرابع يقول أرغون فيه أنه ليس في حاجة إلى إعتنac المسيحية . وفي نفس الخطاب يشير أيضاً إلى أن رعاياته لهم الحق في اختيار الدين الذي يلائمهم.

### سفارة رابان سوما ١٢٨٧ م

مات أبيغا في أوائل شهر ابريل عام ١٢٨٢ م وخلفه على حكم المغول في فارس أخيه تكودار Tekuder . ويعرف في المصادر العربية باسم بيکودار ، وقد تنصر تكودار هذا في طفولته واتخذ اسم نيقولا ، ولكنـه كان يميل إلى الدين الإسلامي ، وما أن تولى العرش ( ١٢٨٢ - ١٢٨٤ م ) حتى اعتنق الدين الإسلامي واتخذ اسم أحمد ، ومع اعتناقه الديانة الإسلامية حدث تحول خطير في السياسة المغولية ، ولكنـ هذا التحول كان وقتياً لم يستمر طويلاً . وقد أرسل السلطان المغولي أحمد رسالة إلى السلطان قلاوون في مصر يطلب فيها عقد معاهدة صداقة مع السلطان .

والحقيقة أن سياسة السلطان أحمد أزعجت المغول فكتبوا بذلك إلى الخان الأعظم قوبيلاي في منغوليا ( ١٢٦٠ - ١٢٩٤ م ) ، فانزعج الخان وقامت ثورة بقيادة أرغون بن أبيغا بمساندة من الخان الأعظم ، ولكنـ الخان أحمد الحق الهزيمة بابن أخيه أرغون في بداية الأمر ، ولكنـ القادة الذين ساندوا الخان أحمد في بداية الأمر تخلى عنـه فلقى مصرعه إثر مؤامرة دبرها القصر في العاشر من أغسطس ١٢٨٤ م ، وتولى أرغون عرش المغول في فارس ( ١٢٩١ - ١٢٩٤ م ) وكان وزير أرغون سعد الدولة وهو يهودي الديانة ،

وحاول أرغون في محاولة شجاعة أن يقيم تحالفًا مع حكام الغرب الأوروبي لذلك أرسل الراهب النسطوري رابان سوما Rabban mar sauma (ت ١٢٩٤م) في سفارة إلى الغرب ، وقد علق عليها الخان أرغون أهمية كبيرة جداً . وكان رابان سوما مواطن صيني ولكنه تركى الأصل (من قبائل الإيجور Uighur) ، وقد أصبح ريان سوما سفيراً متوجلاً للكنيسة النسطورية في المقاطعات المغولية ، وكان يرتبط مع حكام المغول بعلاقات طيبة ، وقد اختاره أرغون للقيام بهذه المهمة التي كان يصلح لها تماماً .

بدأ رابان سوما رحلته في أوائل عام ١٢٨٧ فوصل مدينة طرابيزون على الساحل الشمالي للبحر الأسود ، ومنها إتجه بحراً إلى العاصمة البيزنطية القسطنطينية فوصلها في أوائل شهر ابريل من العام نفسه ، وقد استقبله الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني Andronicus (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) إستقبلاً حاراً ، وأثناء إقامته في العاصمة البيزنطية زار كنيسة آيا صوفيا وبعض المشاهد الدينية الأخرى . ويرجع ذلك إلى أن الامبراطور كان على علاقات طيبة مع المغول في فارس وكذلك مع مغول القبيلة الذهبية . لذلك عرض الامبراطور على ريان سوما أن يبذل أقصى ما في وسعه للمساعدة رغم إمكاناته الضئيلة .

إتجه رابان سوما إلى مدينة نابلس في جنوب إيطاليا فوصلها في أواخر شهر يونيو ، وأثناء وجوده في نابلس شاهد معركة بحرية بين أسطول نابلس وأسطول مملكة أرغون وذلك بسبب الصراع على حكم جزيرة صقلية ، بعد وقوع المذبح الشهير باسم المذبح الصقلية ، التي وقعت في أواخر مارس ١٢٨٢م ، فأدرك أن الغرب الأوروبي مشغول بخلافاته ، وأن الخصم تسود مالك أوريا بعد ما تعرف على أبعاد هذه المذبحة .

إتجه رابان سوما من نابلس إلى روما ، وتبيّن له أن البابا هونوريوس

الرابع ( ١٢٨٥ - ١٢٨٧ م ) قد مات فى الثالث من أبريل من العام نفسه ، ولم يوفق الكرادلة فى روما فى اختيار خلفاً له وذلك حتى الثاني والعشرين من فبراير عام ١٢٨٨ م . وعلى أى حال فقد إستقبله الكرادلة المقيمون فى روما ، وخلال إقامته دار جدل كبير حول الديانة المسيحية ، وقد علم أن الكرادلة لا يعلمون شيئاً عن انتشار الديانة المسيحية بين المغول ، كما أن هؤلاء الكرادلة قد تعجبوا لكونه يعمل فى خدمة حاكم وثنى ، وتطرق الأمر إلى الحديث عن المذهب النسطوري ، وهو ما أزعج السفير رابان سوما واعتقد انه يضيع وقته فى هذا الجدل الدينى ، وأن الأخرى به وبالكرادلة أن يناقشوا الأمور السياسية الهام . وبعد أن أدى الشعائر الدينية فى الكنائس الرئيسية بمدينة روما غادر المدينة واتجه إلى تسكانى Tuscany ، ومنها وصل إلى مدينة جنوة حيث إستقبله أهل المدينة باحتفال كبير بعد أن عملوا بالمهمة التى قدم من أجلها وهى تحالف المغول مع الغرب الأوروبي ، من أجل القضاء على الدولة المملوكية ، وما يتربى على ذلك من نتائج تجارية ، وهو الأمر الذى كان يهم أهل جنوة .

ومن جنوة إتجه إلى مدينة باريس فوصلها فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت الملك الشاب فيليب الرابع الجميل ، وقد أعد الملك حرساً خاصاً ليرافق رابان سوما منذ وصوله إلى العاصمة حتى القصر الملكي ، وقد تم إستقبال المبعوث المغولى إستقبالاً رائعاً حتى وصل إلى حضرة الملك الذى نهضه من كرسيه ليستقبله ، فسر رابان سوما بذلك كثيراً .

وقد استمع الملك الفرنسي إلى السفير ووعده بأن يتولى بنفسه قيادة حملة صليبية لتخلص الأرضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وخلال وجود رابان سوما فى باريس طاف ب أنحائها وشاهد جامعتها التى كانت فى ذروة مجدها فى تلك المرحلة .

كما زار كنيسة سانت شابل Saint chapelle ، وشاهد المخلفات المقدسة التي إشتراها القديس لويس من القسطنطينية ، ولما حان موعد رحيل رابان سوما لقابلة ملك إنجلترا ، عين الملك فيليب سفيراً من عنده هو جوبيت أوف هلفي Gobert of Helleville ليكون في رفقته عند عودته إلى بلاط الخان أرغون ، ليعود ومعه تفاصيل التحالف مع المغول دون أن يدخل في أيه تفاصيل أو تحديد موعد معين لبداية العمليات العسكرية ضد المالiks .

كان ملك إنجلترا إدوارد الأول مقيناً في تلك المرحلة في مدينة بوردو وهي مدينة فرنسية تقع إلى الغرب على شاطئ المحيط ، وكانت في تلك المرحلة من أملاك ملك إنجلترا ، والمعروف أن الملك إدوارد حضر إلى الأرض المقدسة في عام ١٢٧١ م على رأس حملة صليبية عندما كان أميراً ، وكان من أشد المتحمسين للحركة الصليبية والتحالف مع المغول لمواجهة القوات المملوكية .

استقبل الملك الإنجليزي السفير رابان سوما ورفاقه بكل ترحاب وعاملهم بما يقتضيه كرم الضيافة ، وقد استجاب الملك إدوارد لاقتراحات السفير المغولي ، ولكنها كانت إستجابة ظاهرية ، وقد كان للملك خبرة في هذا الجانب ، ولم يكن له أمل كبير في تحالف الغرب الأوروبي مع المغولي ، كما أنه كان لا يأمل في مشروع حملة صليبية جديدة ضد المسلمين . وعلى أيه حال فقد طرح رابان سوما فكرة إعداد جدول زمني من أجل تنفيذ هذا التحالف ، ولم يتمكن الملك الإنجليزي مثل الملك الفرنسي أن يحدد محدداً للقيام بحملة صليبية .

رحل رابان سوما خالى الوفاض من مدينة بوردو مثلاً رحل من قبل من باريس واتجه إلى مدينة جنوة في طريقه إلى روما . وقد وصل رابان سوما إلى مدينة جنوه في أواخر عام ١٢٨٧ م حيث التقى فيها المنذوب البابوى الكاردينال يوحنا توسلكلوم John Tusculum ، وقد أبلغ يوحنا

السفير المغولى بأن لديه معلومات عن إستعدادات المماليلك لإعداد حملة عسكرية للقضاء على البقية الباقيه من الإمارات الصليبيه، وأن حكام الغرب الأوروبي مشغولون بالصراعات فيما بينهم وأمورهم الشخصية عن الاستعداد لمواجهة مثل هذا الخطر ، وقضى رابان سوما فى جنوة شتاء عام ١٢٨٧م - ١٢٨٨م ) وأدرك أن أهل جنوة يفضلون العمل التجارى والدبلوماسي مع مغول فارس . وفي الحقيقة لقد كان هناك العديد من أهل جنوة فى خدمة خان فارس ، كما كان فى حاشية رابان سوما نفسه أحد الجنوبيين وهو توماس أنفوسى Thomas Anfossi وهو عضو بارزا فى عائلة جنوية كلها من رجال الأعمال .

ومن جنوة توجه رابان سوما إلى روما ، حيث تم فى العشرين من فبراير ١٢٨٨م إختيار الكاردينال جيروم Jerome وهو لمباردي الأصل لأعتلاء عرش البابا فى روما واتخذ اسم نيكولاوس الرابع ، وكان من أوائل أعمال البابا أنه استقبل رابان سوما ، وقت المقابلة فى جو من المودة ، ولكن البابا لم يقدم للسفير المغولى ما يشير إلى العمل على إرسال حملة صليبية إلى الشرق . وغادر رابان سوما روما ومعه حاشيته فى ربيع عام ١٢٨٨م بعد أن سمع من الحديث مالا يقنعه ، بعد أن طاف بالمدينة وزار مشاهدها . وقد حمل من الهدايا الكثير وبعض المخلفات الدينية التى أهدتها البابا للخان أرغون ، وبعض الرسائل التى لا تخدم قضية التحالف المغولى الأوروبي ، وبعد ما أدرك أن لدى حكام أوروبا ما يشغلهم عن القضية الصليبية .

وفى ربيع عام ١٢٨٨م اتخذ رابان سوما طريق العودة إلى الخان أرغون ومعه العديد من الرسائل الباباوية ومعه بعض الإيطاليين والفرنسيين ، وكان فى حاشيته جويرت أفال هلفي سفير الملك الفرنسي فيليب الرابع إلى الخان أرغون ، وكان معه أيضاً من رجال الدين روبرت اف سنلس Senlis ووليام اف برويرس Robert of Broyeres . ومع هذه

السفارة كان الأمل في إقامة تحالف مغولي أوربي خاصة أنه حوالي ذلك الوقت كان هناك العديد من الجاليات الأوربية تعيش في مدينة تبريز . وقد إشتغلت هذه الجاليات بالتجارة خاصة مع البندقية وجنوة ، ومع هذه الجاليات كانت البعثات التبشيرية من جماعات الفرنسيسكان والدومنيكان . وكان الأمل في هذه الجاليات والبعثات التبشيرية إقامة جسور الصداقة بين الغرب والمغول في فارس ، وظهرت بعض الأسماء الأوربية في السفارات التي ذهبت إلى أوروبا من بلاط الخان وإليه . ومن خلال هؤلاء السفراء ظهر خلط فيما أنجزوه . وظهر في الوثائق بعض الأسماء التي تولت أمر بعض السفارات ، ولكن هذه الأسماء لم تذهب في سفارة ما ، وماكتب لا يدعوا أن يكون ترسيحاً أو فكرة لم تنفذ ، وبذلك اخترعوا من الأحداث أو شوهوها ، ويتبين ذلك من أحد الخطابات التي أرسلها البابا نيكولا الرابع إلى أرغون وهى مؤرخة في الثاني من أبريل عام ١٢٨٨ م ، وفي هذه الرسالة مايفيد ان البابا إعتقد أن أرغون سوف يعتنق المسيحية في مدينة القدس عندما يستولى عليها الصليبيون من المسلمين .

ومع عودة رابان سوما إلى الخان أرغون خابأمل الأخير في الغرب الأوروبي ، ولم يصدق النتائج التي عاد بها رابان سوما ، واقتنع الخان أن مايظهره الغرب الأوروبي من التعلق بالأراضي المقدسة لا يتعدى القول لافعل ، خاصة أن المبعوث الفرنسي جوبرت أوف هلفي لم يكن بوسعي أن يفسر أو يقدم شيئاً للخان أرغون .

### سفارة بوسكارل أوف جيزولف

لم يتأس الخان من هذه النتائج ، وأعد سفيراً آخر في شهر أبريل ١٢٨٩ م للتوجه إلى ملك فرنسا فيليب الرابع ، كان هذا السفير جينيوي الأصل أقام في بلاد فارس لمدة طويلة ، ويبدوا أنه أحد الرهبان أو رجال الأعمال ، ويعرف هذا السفير باسم بوسكارل أوف جيزولف of Gisolf Buscarel . وقد حمل هذا السفير رسائل إلى الملك الفرنسي فيليب

الرابع، والى الملك الأنجلو-إسكتلندي إدوارد الأول والى البابا نيقولا الرابع.

وفي الرسالة التي كتبها أرغون إلى ملك فرنسا والتي لازالت محفوظة في دار المحفوظات الوطنية في باريس وقد كتبت باللغة المغولية يقدم فيها أرغون عرضاً مؤكداً بضرورة الاشتراك بحملة عسكرية مع ملك فرنسا ضد الماليك ي يكون موعدها عام ١٢٩٠م، وأنه سوف يتوجه إلى مدينة دمشق لفتحها في مطلع ربيع هذه العام، وطلب أرغون من الملك الفرنسي أن يرسل إليه قواته في الوقت المناسب، وإذا نجحت الحملة المغولية الفرنسية في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، فسوف تصبح المدينة من أملاك الملك الفرنسي. وهناك إضافه إلى الرسالة الموجهة إلى الملك فيليب لعل بوسكارل قد أضافها ، تفيد أن خان المغول أرغون سوف يتکفل بامداد الملك الفرنسي بحوالى عشرين أو ثلاثين الف فارس دون مقابل أو بشمن معقول ، والمهم هنا أن رد الملك الفرنسي فيليب غير معروف لدينا وسوف توضح السطور التالية ما يمكن أن يكون عليه رد الملك الفرنسي.

اتجه المبعوث المغولي بوسكارل إلى الملك الإنجليزي إدوارد في لندن فوصلها في الخامس من يناير عام ١٢٩٠م . وقد قضى المبعوث في البلاط الإنجليزي حوالي أسبوعين وحوالي أسبوعاً خارج البلاط حيث عوامل معاملة طيبة ، والواقع أن الرسالة التي أرسلت إلى ملك إنجلترا قد فقدت أما الرد على هذا الخطاب ، فيتضح في أن الملك إدوارد يرغب في اللحاق بالحملة المغولية ، ولكن هذا الأمر يتعلق بالبابا نفسه.

ومن الصعب أن نقرر عما إذا كان المبعوث المغولي قد عاد إلى أرغون أو أنه أطال مدة إقامته في الغرب ، فمن الواضح أن هناك إشارات إلى وجوده في أيطاليا في أواخر عام ١٢٩٠م ، فقد ورد إسمه في بعض الرسائل الباباوية يوصي فيها البابا الملك إدوارد الإنجليزي بمبعوث الخان أرغون .

## سفارة أندرو وسهادين ١٢٩٠ م

عاد بوسكار بآجابات لا تبشر بخير ، ولعل ذلك مرجعه إلى إنشغال الملك الفرنسي بأموره الداخلية وإنشغال الملك الأنجلوزي بأمور إنجلترا وويلز ، وتأثير مركز الباباوية بنتائج المذبحة الصقلية التي وقعت في أواخر مارس ١٢٨٢ م .

ورغم هذا كله فإن الخان المغولي لم ييأس ، وأرسل سفارة جديدة على رأسها أثنان من المسيحيين المغول هما أندرو زakan Andrew Zagan وسهادين Sahadin . وقد توجه المبعوثان في أول الأمر إلى البابا في روما حيث استقبلهم إستقبالاً طيباً ، وقد حملهم البابا الرسائل اللازمة إلى الملك الإنجلوزي إدوارد الذي اعتبره البابا أشد حماساً واهتمامًا بالأراضي المقدسة . وقد وصل المبعوثان إلى الملك الإنجلوزي في بدايات عام ١٢٩١ م ، ولكن إهتماماته بالاراضي المقدسة والتحالف مع المغول ، فعاد بكثير من إهتمامه بالأراضي المقدسة والتحالف خالياً الوفاض إلى روما ليبلغا البابا بنتائج الفاشلة التي توصلوا إليها ، ومكثاً بعض الوقت حتى أنهما قضياً فصل الصيف في إيطاليا .

وخلال هذه المرحلة كان مصير بقايا الامارات الصليبية قد تحدد بالحملات التي قام بها الأشرف خليل بن قلاون ، وذلك على عكس ما كان يعتقد أنه في ربيع عام ١٢٩١ م سيقوم تحالف مغولي أوبي لاستعادة الأراضي المقدسة من المسلمين ، ولكن الحال تبدل ومات أرغون في العاشر من مارس من العام نفسه ( ربيع الأول من عام ٦٩٠ هـ ) وإنشغل كل من ملك إنجلترا وملك فرنسا بأمورهما الخاصة ، وبذلك عجز البابا عن توجيه نداء مثل هذا التحالف .

وتشجع الأشرف بالاستيلاء على ماتبقى من الامارات الصليبية بالشام ، فقد كان السلطان قلاون قد إستعاد طرابلس في عام ١٢٨٩ م . وحاصر عكا واستكملاً إبنه الأشرف إسقاطها في أبريل

١٢٩١م ، ولعل فى كل هذا ما شجع الأشرف على إعلان لجهاد ضد مغول فارس بعد موت خانهم أرغون وتولى أمرهم أخيه كيختو Caikhatu ( ابن ابفا ١٢٩١ - ١٢٩٥م ) . وقد نجحت القوات المملوكية فى هزيمة المغول والاستيلاء على قلعة الروم ، ولكن الحروب المملوكية المغولية لم يتسع نطاقها كثيراً فى تلك المرحلة ، وسرعان ما قاتل كيختو على يد رجاله لفساده ، وقد تولى بعده بaidu ابن عم كيختو ولكنه حكم عدة أشهر وقتل فى الرابع من أكتوبر عام ١٢٩٥م على أيدي غازان بن أرغون الذى تولى حكم مغول فارس ( ١٢٩٥ - ١٣٠٤م )

### سفارات غازان الى اوريا

يعتبر غازان أكثر حكام المغول فى فارس موهبة ، وعندما تولى السلطة وضع سياسة معينه للتعامل مع المسلمين ، كما أن فترة حكمه تتميز باتصال تجاوز الحد مع المسيحية ، وفيما يتعلق بمسألة العقيدة الدينية فقد كان رجلاً متحضرأ إلى أبعد الحدود لأنه لم يخلط بين العقيدة الدينية وبين السياسة ، وقد كان غازان يعتبر أن المالكى هم الأعداء الألداء .

ان كثير من الخلافات التى وقعت فى كلا المعسكرين المغولى والملوكي دعت غازان الى غزو بلاد الشام . ففى الشانى والعشرين من ديسمبر عام ١٢٩٩م وعلى بعد أميال قليلة من مدينة حمص إنتصر المغول على المالكى . وقد إستسلمت مدينة حمص ودمشق وفي نهاية ١٣٠٠م لم تكن هناك قوة مملوكية عسكرية فى بلاد الشام .

وكان لهذا الانتصار المغولى رد فعل كبير فى اوريا وتفاعل حكامها بالكثير ، فقد وصلت الأخبار الى اوريا أن الخان غازان قد إستولى على كل بلاد الشام ومصر أيضا وأنه أعاد الأرضى المقدسة الى جماعة فرسان الداوية والإسبتارية ، وأنه وضع الضريح المقدس فى حماية جماعة الرهبان الدومنيكان . وسرت الشائعات فى اوريا أن غازان قد صك عمله

عليها صورة الصليب قد وضعت على أعلام غازان . ومن الشائعات أيضاً ماورد بها أن سقوط الأرض المقدسة يرجع إلى تعاون عسكري بين المغول وحكام الإمبراطورية البيزنطية وملكي قبرص وأرمينيا . والحقيقة أن الجانب الذي ينسب إلى أوروبا في هذا الموضوع قد بُلغ فيه بقدر كبير جداً وينافي الحقيقة ، ولكن هناك بعض الحقيقة حول هذه المساعدة ، وترجع هذه الشائعة إلى أنه في عام ١٣٠٠ - ١٣٠١ م أرسل هنري الثاني لوزنجيان ملك قبرص عام ( ١٢٨٥ - ١٣٢٤ م ) بعض قطع الأسطول يساعدته في ذلك جماعة فرسان الداوية والاسبارتاريه وهاجموا مدينة رشيد حيث وقعت بعض المناوشات .

والحقيقة أن التعاون القبرصي المغولي ينسب إلى المبعوث المغولي زولس بوفتي Zolus Bofeti . ويعرف باسم إيزول البيزى Isol the Pisan . وكان لهذا المبعوث مكانه في حاشية غازان ولذلك أرسله على رأس سفارة إلى هنري ملك قبرص . وقد ذكر إيزول البيزى أن أولجايتو أخي غازان قد تنصر ، وأن إيزول كان الأب الروحي له عند التعميد أن الجايتو هذا قد شارك في الحملة التي اتجهت إلى رشيد .

### سفارة جيوسكارد باستاري

لم يكن إيزول هو الوحيد الذي تحدث عن مجد وانتصارات غازان ، ففي عام ١٣٠٠ استقبل البابا بونيفاس الثامن في كنيسة اللاتيران جيوسكارد باستاري Guiscard Bastari وهو من أصل فلورنسي كمبعوث من الخان غازان تصاحبه حاشية من مائة رجل وكلهم في زى المغول . ولأسباب ليست معروفة لدينا حتى الآن ، فإن الخان غازان لم يحاول ان يحتفظ بالأراضي التي فتحها في بلاد الشام ، ففي نهاية مايو عام ١٣٠٠ م تمكن الماليك من استعادتها مرة أخرى ، وان انسحاب المغول من بلاد الشام لا يعود إلى عدم اهتمام غازان بالقضية . لقد عاد غازان إلى بلاده في فبراير من عام ١٣٠١ دون أن يشتبك في معركة رئيسية

وكان إنسحاب غازان يرجع إلى أنه لم يكن لديه القوات الكافية للإشتباك مع المالiks . ومعنى ذلك أنه يرجع للبحث عن حلفاء أوربيين لمشروع حملته ، وان تقدمه إلى بلاد الشام يكون قد فعل كل ما يسعه للبقاء على علاقات الصداقة مع أوربا مثلما كان الحال عليه من قبل مع آسلافه .

وأرسل غازان سفارات عديدة إلى البابا والى الملك الفرنسي فيليب الرابع والى الملك الانجليزى إدوارد الأول ، ويقال أن البابا بونيفاس الثامن استقبل بعض السفراء فى عام ١٣٠٢ ، واتهم قد تنصروا فى روما ، وان البابا أرسل معهم تاجاً من الذهب ليقدموه إلى الخان غازان حتى يغفر الله له خططيته ، ويساعده لكي يقود المسيحيين إلى بلاد الشام.

وبالاضافة إلى ذلك فقد أرسل غازان خطاباً إلى البابا بونيفاس الثامن فى ابريل عام ١٣٠٢ م وأشار فيه غازان إلى موضوع التعاون المغولى الأوربى ، وفي هذا الخطاب حث غازان البابا على إعداد القوات لمحارمة القوات المملوكية وترك للبابا تحديد الموعد المناسب . ولازال هذا الخطاب محفوظاً بلغته المغولية ،

وقد احضر هذا الخطاب إلى البابا ثلاثة مبعوثين بأسماء اسلامية . ولقد استغل الجنسيون سنوات الاضطراب التي أعقبت وفاة أرغون وظهر اسم بوسكارل فى رسالة كتبها الملك الانجليزى إدوارد يرجع تاريخها إلى الثاني عشر من مارس ١٣٠٢ م ، وقد حملها بوسكارل ، وجاء فيها أن الملك يولي أمر الأرضي المقدسة أهمية خاصة وانه يلقى باللوم على الحروب الدائرة بين دول أوربا . وقد أرسل إدوارد سفاره أخرى كان من بين أعضائها جوفرى أف لانجلز Geoffrey of langles ونيقولا أف شارتر Nicholas of Chartres وقد سافروا فى صحبة بوسكارل . وفى عيد القيامة عام ١٣٠٣ م زار بعض المبعوثين من المغول مدينة باريس ،

وكان هدف هؤلاء المبعوثين الاتصال ببعض حكام أوروبا من أجل التحالف معهم لمحاربة المماليك .

وظل غازان أيضاً على إتصال بالملك جيمس الثاني ملك أرغون ، وقد عبر الملك عن فرحته في مايو عام ١٣٠٠ م ، واعتبر أن ماقدمه غازان يعتبر كرم كبير منه في مساعدة أوروبا لقتال المسلمين وإستعادة الفرنج لمدينة بيت المقدس . كما ارتبطت غازان بروابط المودة والصداقة مع الامبراطور البيزنطي اندرنيقوس الثاني ، وكان التحالف بين الامبراطورية والمغول مفيداً للإمبراطوريه المهددة بالغزو من جيرانها عن إستفادة المغول منه ، وقد كلل هذا التحالف بزواج الخان غازان من ابنه غير شرعية للإمبراطور اندرنيقوس ، ولكن مشروع التحالف نفسه لم يسفر عن شيء لأن غازان مات بعد قليل .

### أوجاتيو وأوربا

وخلف غازان أخيه أوجاتيو (Oljeito ١٣٠٤ - ١٣١٦ م ) وقد سار أوجاتيو على سياسة أخيه الودية مع الغرب الأوروبي . وقد كتب أوجاتيو إلى فيليب الرابع ملك فرنسا خطاباً في صيف عام ١٣٠٥ م . وفي هذا الخطاب ركز أوجاتيو على قيام العلاقات الودية التي كانت مزدهرة بين أسلافه مع الفرنجة ، وقدم الخان الخطوط العريضة لمشروع تحالف ضد الذين يعملون على تخريب التفاهم الدولي ، وهم المماليك .

وقد كتب على ظهر الرسالة المغولية تعليق من أحد المعاصرين الإيطاليين ، وهذا التعليق يقودنا إلى معلومات دقيقة ، أو ربما إلى إقتراح محدد ، أم كانت هذه التعليقات هي رسائل شفوية حملها مبعوث الخان ؟ ومن هذا التعليق يتضح أن الخان يقترح إقامة سلام يعم العالم بأسره . وطبقاً لرأى آخر أن خلف هذا السلام الشامل يكون هناك تحالف ضد المماليك ، وهذا الرأي الأخير يمكن قبوله . ولكن إذا كان ذلك هو

المقصود بالسلام فلماذا لا يذكر ذلك صراحة ويكون لدينا شواهد ثابتة على هذا الاقتراح الواقعى ، ولكن مثل ذلك لم يرد فى الخطاب الأصلى المغولى ولا فى التعليق الإيطالى على الوثيقة .

ولعل ما ورد فى الخطاب . يقصد به إقامة سلام عام مع الغرب الأوروبي ، لأنه فى الوقت الذى كتب فيه هذا الخطاب كان فترة هدوء مؤقت بعد حرب دامت لمن نصف قرن قادها المغول فى جميع الانحاء ، وقد أضعفت هذه الحروب من قوة الامبراطورية المغولية . وحول هذا السلام الداخلى فى الامبراطورية المغولية فقد أشار أو جايتور إلى ذلك فى أحد خطاباته إلى الملك فيليب الرابع ، وليس تحت أيدينا حتى الآن وثيقة ورد بها رد الملك资料 ، لأن الخطاب يتعرض إلى عبارات عامة .

ومرة أخرى نجد أحد سفراء المغول وهو إيطالى يدعى توماس أو جي اف سينا Thomas ugi of Siena الذى زار ورفاقه بعض ملوك أوروبا حيث استقبل إستقبالاً طيباً ومن بين هؤلاء ملك إنجلترا . وكان الملك إدوارد الثانى قد خلف والده إدوارد الأول الذى مات فى يوليو ١٣٠٧ م المعروف أن ملك إنجلترا قد أرسل على الأقل خطاباً إلى الخان أو جايتور . وكان أحد هذين الخطابين قد كتب فى نورثهامبتون Northampton فى منتصف أكتوبر ١٣٠٧ م وليس من الصعب أن نستنتج أن الملك إدوارد الثانى قد إستقبل خطاباً مطابقاً لما تسلمه فيليب الرابع .

وكان الخطاب الثانى الذى أرسله إدوارد كتب فى لإنجليزى Langley فى الثلاثاء من نوفمبر ١٣٠٧ م . وفي ذلك أمر يدعوه للغرابة وانها وثيقة تدعو للدهشة ، وتظهر أن من نقل الرسالة من أو جايتور إلى الملك قد حرف فى بعض العبارات التى أدت إلى تغيير القواعد السياسية للعلاقات مع الخانات . لقد كان فى خطاب إدوارد هجوماً وحقداً على المسلمين ، وقد طلب أو جايتور محو ذلك من الخطاب ، وهذا يوضح بعض التلاعب فى نصوص الوثيقة . ولا يمكن ان نتصور أن الملك إدوارد الثانى

إعتقد أن أولجايتو كان مسلماً ، ويكون بذلك قد ارتكب خطأ كبيراً بذكر مثل هذه العبارات التي تسيء إلى الإسلام ، ويقع الشك على توماس ، ويلاحظ أن في تعامل توماس مع البابا لم يقدم له أى إنطباع عن أن أولجايتو كان مسيحياً .

وفي خطاب كتبه البابا كلمانت الرابع في مدينة بواتو ويرجع تاريخه إلى أول مارس ١٣٠٨ ، نلاحظ أنه لم يرد بالخطاب أى إشارة ضد المسلمين ، ويدلاً من ذلك نجد أن البابا يخبر الخان أولجايتو برضاه النام عن المساعدة التي يقدمها ، وإذا كان لأحد أن يصدق الحقائق التي أشير إليها في إجابة كلمانت ، دون أن يبعث بها المبعوث توماس ، ويضع فيها من خياله ماشاء ، فإن أولجايتو قد عرض أن يقدم عشرين ألف حصان ، وعشرين ألف حمل قمح ، ويتبع ذلك مائة ألف من الفرسان الذين يقودهم الخان .

وكان للأهمية التي أظهرها البابا كلمانت الرابع في إقامة تحالف عسكري مع المغول لها عبريتها ، لقد أرسل البابا إلى المؤرخ الأرمني هيتمون Hetoum ابن ملك أرمينيا يطالبه بأن يعد مذكرة عن الطريقة الملائمة للتحالف مع المغول . وقد أعد هيتمون كتاباً إلى البابا في أغسطس ١٣٠٧ أى قبل إجابة البابا على رسالة أولجايتو . ويعتبر هيتمون أحد أفراد الأسرة الأرمنية الحاكمة وكان مع المتحمسين جداً للتحالف مع المغول ولتدخل الغرب في البلاد الشرقية . وجاء في هذا الخطاب ، الخطوط العريضة التي قدمها هيتمون لاستعادة الأرضي المقدسة وهو يقول « أنه بالنسبة لي الذي يعرف أهداف المغول جيداً ، فإني اعتقاد وأؤكد أن المغول يرغبون دون نقاش وبدون أيه نفقات أو دون أى نوع من أنواع التبعية ، إنهم سوف يسلمون المدن والأراضي التي تفتح إلى المسيحيين ، وذلك بسبب شدة حرارة الصيف في المنطقة ، وأن المغول لا يرغبون في البقاء في هذه المناطق . وأنهم سوف يوافقون على أن يتسلم

المسيحيون الأرض المقدسة بكل ترحاب ، وأن المغول لا يخوضون الحرب ضد سلطان مصر من أجل كسب إقليمي بعدهما أصبحت كل آسيا خاضعة لهم ، ولكن لأن السلطان يعتبر العدو الرئيسي لهم ، وأنه أنزل بهم ضرراً أكثر من أي شخص آخر .

لم يكن البابا كلمنت الخامس أول مسئول أوربي يتصور إمكانية إستعادة الأرض المقدسة ، بمساعدة المغول ، لقد أقام الملك الأрагونى جيمس الثانى إتصالات مع أوبلجايتو ولعله أرسل فى عام ١٣٠٧ م سفيره بطرس ديسبورتس Peter Desportes إلى الخان . وفي هذا الخطاب أراد الملك جيمس أن يستفسر عن الطريقة التى يمكن إرسال قواته بها إلى الشرق وكيفية إمدادها ، وفي هذه الرسالة أيضاً طلب أن يكون للمسيحيين الحق فى دخول الأماكن المقدسة أحراضاً . ويتضح من نغمة هذا الخطاب أنه سبق هذا الخطاب خطابات أخرى ، ومن الملاحظ أنه لا يوجد خطابات سابقة أولاً حقة مع أوبلجايتو لهذا الخطاب قد ظهرت حتى الآن ، وهذا ما يعقد المسألة إلى حد ما .

ويكون من الأهمية بمكان إضافة معلومات عن العلاقات الأрагونية مع الماليك أعداء المغول ، وفي الإتصالات التى قام بها جيمس الثانى ملك أراغون مع السلطان المملوكي محمد الناصر نلاحظ انه لا يوجد بها أي إشارة إلى المغول ، وأنه من الممكن أن يقدم جيمس الثانى إلى أوبلجايتو ما يساعد على إفساد مفاجئ للعلاقات الأрагونية المملوكية ، لأن الإتصالات الدبلوماسية الأрагونية والملوكية قد توقفت في الفترة من ١٣٠٦ وحتى ١٣١٤ م ،

وهناك كلمة يجب أن نسجلها عن الزيادة المطردة في العلاقات التجارية بين امبراطورية المغول وبين الغرب الأوروبي خاصة ما يميز عهد الخان أوبلجايتو . لقد كانت كل التجارة تقريباً في أيدي التجار الإيطاليين ، وما لدينا من مادة تاريخية يعتبر قليلاً . ولقد ظهرت بصفه

رئيسية في أنحاء الغرب الأوروبي معلومات عن الأحوال الداخلية لدولة الخان وعن الصين أيضاً، حيث أقام العديد من التجار الأوروبيين أسواقاً كبيرة هناك. لقد ظل النشاط التجاري مرتبطة في معظم الأوقات بالأحداث السياسية، ولكن من المعروف أن هذه التجارة ارتكزت على النفوذ التجاري الذي زاد واعتمد على السلام الدائم. لقد ظلت الطرق التجارية مفتوحة، والدليل على ذلك أن المعاهدات التجارية وإتفاقيات القنصل، ربط بعض الجمادات الإيطالية مع دولة المغول.

لقد كان هناك دائماً آلية لإقامة القضايا الخاصة بالتجارة، كما هو واضح في قضية أو حالة الحاج سليمان، وهو أحد مواطنى تبريز الذى حكم له فى عام ١٣٢٢ م يسبب مالحق به من خسائر أحقها به أحد البنادقة، وكان قيمة التعويض أربعة آلاف بيزنط.

قد استمر كثير من هذه التجارة في أراضي الامبراطورية المغولية بعد سقوطها، وتواصلت هذه التجارة حتى وقت تسمور خان القبيلة الذهبية أي حتى الفترة من ١٤١٠ - ١٤١٢ م.

ورغم الطرق البحرية فإن الطرق البرية الداخلية للتجارة ظلت هي الأسرع والمفضلة للوصول إلى شرق آسيا. وقد وضع عن ذلك بجلاء يوحنا أف مونت كورفينو John of Monte Corvino، وهو أحد الخبراء في شئون الطرق البحرية، وقد ذكر أنه بالنسبة للطرق إلى الصين، فيمكن القول أن الطريق إلى شبه جزيرة القرم (التي أطلق عليها أرض القوط) تخضع لخان المغول الشماليين أي القبيلة الذهبية، وهي أقصر الطرق وأكثرها أمناً، وعن طريقها يمكن للرهاة أن يسلكوها مع حاملى الرسائل في مدة طولها خمسة أو ستة أشهر، أما الطريق البحري فهو طويل ومحفوظ بالمخاطر، وأن هذا الطريق بالإمكان أن يستغرق عامين لاقام الرحلة. ولكن الطريق البري لا يكون آمناً في كل الأوقات بسبب الحروب التي تقع في تلك المناطق.

لقد كان يوحنا آف مونت كورفيتو متشاريًّا أكثر من اللازم ، لأن الطريق البري ظل هو الطريق العملي في عام ١٣٣٨ م . حينما استخدمه مبعوثو طوغان تيمور Toghon Temur خان المغول في منغوليا ( ١٣٣٢ - ١٣٧٠ م ) وهم في طريقهم إلى أفينيون Avignon ، وفي سفارة عكسية كان على رأسها يوحنا دي مارينولي John de Marignolli ماورد بها أن الخيول التي استخدمتها هذه السفارة قد أحدثت إحساساً غريباً في بلاط منغوليا ، وساعدت على إستعمال الطريق البري ، وعملت أيضاً على احياء الطريق البحري إلى حد ما .

وفي الخطاب الذي قدمه يوحنا دي مارينولي في الثلاثاء من نوفمبر عام ١٣٠٧ إلى الملك إدوارد الثاني يوصى فيه بإرسال بعض البعثات إلى أوجلياتو . وكان من ضمن هذه البعثة وليم أسقف مدينة اللد Lydda ، المعروف أن وليم كان أسقفاً إسمياً ، وإن هدفه الرئيسي كان التبشير بال المسيحية بين المسلمين الذين يعيشون في الأراضي المغولية .

### نشاط البعثات التبشيرية

لقد أشرنا من قبل إلى وجود بعض الرهبان والفرنسيسكان في مدينة تبريز ، وفي نهاية القرن الثالث عشر أصبح للفرنسيسكان قدماً راسخة في دولة الخان ، وبيدوا أن نشاطهم كان روحيًا ، ولم يظهر منهم أنهم قدموا عرضاً من أجل التحالف بين المغول وأوروبا .

لم يكن هناك للفرنسيسكان دوراً في دفع عملية التحالف لاستعادة بلاد الشام ، وأنهم دون شك قد أخذوا زمام المبادرة في اتاحة الفرصة لاتساع باب الرهبانية في آسيا ، إن أعظم الجهود المبكرة والناجحة قد قمت في الأراضي التي تحكمها القبيلة الذهبية لأن هؤلاء الفرنسيسكان قد دخلوا أراضيها عبر أراضي هنغاريا وأراضي القفقاق .

وفي بلاد المغول كانتبعثات التبشيرية ذات نفع كبير للإتصال المستمر مع الصين لتوسيع مجال نشاطها ، لقد ذهب يوحنا أوف مونت كورفينو إلى الشرق حوالي ١٢٨٠ م ، ولابد أنه عاش لبعض الوقت في فارس قبل أن يعود إلى روما في عام ١٢٨٩ ، وان المعلومات التي قدمها يوحنا عن الحالة التي يعيشها المغول كان بها تفاصيل كثيرة ، وكانت هي السبب الذي دفع البابا نيكولا الرابع أن يرسله مرة أخرى إلى الخان أرغون ، كما توغل بعد ذلك إلى بلاد الصين .

ومن بين الرسائل التي حملها جماعة الفرنسيسكان كان من بينها ما أرسل إلى الخان أرغون ، وخطاب آخر يرجع تاريخه إلى الثالث عشر من يوليو عام ١٢٨٩ م ، وهو موجه بالاسم إلى الخان العظيم قوبيلاي ( ١٢٦ - ١٢٩٤ م ) ، الذي كان إسمه معروفاً للبابا . وان هذه الوثيقة جعلت الأمر واضحاً لنا ، ويتبين فيه رغبة حكام المغول في اقامة تحالف مغولي مسيحي دائم ، وان المعلومات المتاحة لنا عن الأحوال الداخلية والأحوال الجغرافية للمغول كانت تحت أيدي حكام الغرب الأوروبي ،

لقد ترك يوحنا أوف مونت كورفينو مدينة تبريز في عام ١٢٩١ م ولم يعد ، فلقد مات بعدها أصبح رئيس أساقفة في مدينة بكين . ولم يكن رحيلة نهاية نشاط جماعة الفرنسيسكان أو الدومينikan في نواحي فارس . ولقد أقام لأخوان الرماديون Friars Minor مراكز للقساؤسة في أمبراطورية المغول . ففي الشمال استقامت الأسقفيات في أراضي القبيلة الذهبية ، وفي الصين ، وفي القسطنطينية وطرابيسون وتبريز . وأنه من الأهمية أن نلاحظ أن البابا إطلع على حقيقة أن المركز الرئيسي للمغول يوجد في ضواحي الصين ، وعليه أن يساند أسقفيات الصين ، وعلى كل القساوسة أن يعملون بنشاط داخل الإمبراطورية المغولية ، كما أن

هؤلاء القساوسة يعملون في أراضي متاخمة للغرب مثل شبه جزيرة القرم وبلاد فارس . وفي عام ١٣١٨ م أقام البابا يوحنا الثاني والعشرين أول رئاسة للأسقفية في إمبراطورية المغول وكان مقرها مدينة سلطانية وهي العاصمة الجديدة لمغول فارس ، وكان أول من تولى هذا المنصب الدومينيكانى فرانسيس اف بروجيا Francis of Perugia وقد خلفه في منصبه في عام ١٣٢٣ م . وليم آدم William Adam ، وكان من المتخمين للقيام بعمل عسكري جديد ضد المالك . وفي عام ١٣١٨ م عين وليم آدم مساعد أسقف في سلطانية ، وبعد ذلك ولمدة قصيرة تولى منصب الأسقف في مدينة أزمير ، وفي السادس من أكتوبر من عام ١٣٢٢ عين لمنصب رئيس أساقفة سلطانية ، وفي السادس والعشرين من أكتوبر ١٣٢٤ م نقل إلى مركز أسقفية إنفارى Antivary الواقعة على ساحل دالماسيا ، وفي عام ( ١٣٣٧ م ) كان آخر عهدهنا بوليم آدم ، ولعله مات قبل ديسمبر عام ١٢٤١ م عندما عين خلفاً له .

### فكرة الحصار الاقتصادي لدولة المالك

وفي خضم الأحداث التي اقترنت بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام، وإحساس العالم الأوروبي بالمهانة التي لحقت به، ظهرت موجة من الدعاية تولى أمرها بعض رجال الدين المشقين المتعصبين للحروب الصليبية. وقد نادى هؤلاء ببعض الأفكار ووضعوا عدة مشاريع رأوا فيها إمكانية استعادة الأرضي المقدسة .

ومن هؤلاء الراهب الفرنسيكانى فيدينتشو أوف بادو Fidenizo of Pa-duo الذي كتب في عام ١٢٩١ م كتاباً أهداه إلى البابا نيقولا الرابع Nicholas IV ( ١٢٨٨ - ١٢٩٢ م ) . ويشتمل هذا الكتاب على دراسة

قيمة عن تاريخ بلاد الشام والجيش الصليبي المطلوب لاستعادة الأرضى المقدسة، والطرق التى على الجيش أن يسلكها.

ومن هذه المشاريع أيضا التقرير الذى كتبه الراهب ثاديوس Thaddeus فى عام ١٢٩٢م، وقد حوى هذا التقرير أخبار سقوط مدينة عكا فى أيدي المسلمين ، مع نداء حار إلى الباب وحكام أوريا لإعداد حملة صليبية لتخلص الأرضى المقدسة .

أما الداعية الجنوى جلفانو أوف ليفانتى Galvano of Levanti فقد وضع كتاباً فى عام ١٢٩٤م ، وأهداه إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع Philip IV (١٢٨٥ - ١٣١٤م) . ولكن هذا الكتاب لا يتجاوز بعض الانطباعات والعظات ، وجاء خالياً من الأفكار العملية التى تؤدى إلى استعادة الأرضى المقدسة .

ومع هؤلاء يأتي المبشر رامون لول Ramon Lull ورغم أن شهر رامون بلغت القمة باعتباره من الزهاد، إلا أنه في الوقت نفسه يعتبر من رجال السياسة العلمانيين . وقد انتهى من كتابه فى عام ١٣٠٥ ، وبه كثير من التفاصيل والأفكار حول المنهج العلمى لاستعادة الأرضى المقدسة. وقد ركز على رجال الدين الذى عليهم أن يبذلوا الجهد الكبير لإعداد حملة صليبية يتولى أمرها ملك محارب تعمل تحت إمرته كافة الطوائف الدينية العسكرية، مع اتخاذ جزيرتى رودس ومالطة قاعدتين عسكريتين لطرد المسلمين من إسبانيا ، والاستيلاء على الساحل الافريقى من تونس حتى مصر، كما نادى أيضاً بالاستيلاء على القسطنطينية واتخاذها طريقاً إلى بلاد الأناضول ثم إلى بلاد الشام.

إلى جانب هؤلاء يأتي بطرس ديبيوس Peter Dubois وهو من رجال القانون الفرنسيين ، إذ نادى ببعض الإصلاحات الاجتماعية والكنيسة، وقيام الملك فيليب الرابع بقيادة حملة صليبية لاستعادة الأرضى المقدسة.

أما عن تمويل هذه الحملة فقد طالب بانتزاع أملاك الداوية وفرض الضرائب على رجال الدين .

وفي فرنسا أيضاً ظهر المستشار الدبلوماسي وليم نوجارت Willim Nogaret الذي قدم في عام ١٣١٠ م تقريراً عن حملة صليبية لاستعادة الأرضي المقدسة ، وركز على أن تقوم البابوية بتقديم ما لديها من أموال دون تردد ، والقضاء على هيئة فرسان الداوية ومصادرة أموالها لاستغلالها في هذه الحملة .

كذلك شاركت أرمينية في تلك الدعوة عن طريق المفكر والمؤرخ الأمير هيثوم أوف كوريوكس Hethum of Corycus . وجاء في كتابة الذي ظهر في عام ١٣٠٧ م خلاصة موجزة عن تاريخ الشرق الأدنى الإسلامي وأحوال الدولة للملوكيّة ، وأوصى بضرورة قيام حملة صليبية بحرية وبحرية تتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين للعمليات العسكرية لاستعادة الأرضي المقدسة بالتحالف مع المغول ومساعدة الأرمن .

إذ نكتفى بهذه القائمة نأتي إلى الحديث عن الدبلوماسي البابوي وليم آدم William Adam ، وهو الشخصية التي نركز عليها في هذا الحديث . وقد ولد وليم آدم حوالي عام ١٢٧٥ ، في أقليم لانجدوك Languedoc الذي يقع في الجزء الجنوبي الشرقي في فرنسا ، ودرس اللاهوت في كوندول Condom في عام ١٣٠٢ م . ثم سلك طريق الرهبانية في جماعة الدومينikan . وفي عام ١٣٠٥ م اختاره البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣١٤ - ١٣١٣) في بعثة إلى الشرق ، فذهب إلى القسطنطينية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام . ثم عاد إلى أوروبا في عام ١٣١٣ م في وقت كانت تتردد في أوروبا فكرة الإعداد لحملة صليبية ، ولكن هذه الفكرة لم تتحقق . وقد قام وليم بعد ذلك برحالة إلى الشرق بتكليف من البابا ، فاتجه إلى خان مغول فارس أو بلجايتو خدا بنده محمد (١٣٠٤ - ١٣١٧ م) ، كما قام بعملية التبشير بالديانة المسيحية

على المذهب الكاثوليكي في فارس، ثم سافر إلى الهند ثم إلى اليمن وجال في تلك الأنحاء حتى وصل إلى أثيوبيا. والحقيقة أن هذا الترحال كان في غاية الأهمية بالنسبة لوليم آدم والأفكار التي دونها حول مشروع إعداد حملة صليبية لاستعادة الأرضي المقدسة. وعاد وليم إلى مدينة Avignon مقر البابوية الجديد في تلك المرحلة ، ولكنه لم يبق فيها سوى فترة قصيرة ، لأن البابا يوحنا الثاني والعشرين John XXII ( ١٣١٦ - ١٣٣٤ م ) أنشأ كرسياً أسقفيًا في مدينة سلطانية ، التي اتخذها أولجايتون عاصمة لمغول فارس بعد مدينة تبريز في الأول من أبريل ١٣١٨ م ، فأرسل فرانكو دي بروجيا Franco di Perugia ليتولى منصب أول رئيس أساقفة لهذا المقر الجديد ، ومعه وليم آدم وأخرون بقيادة مساعدين لرئيس الأسقفية. وقد سافرت المجموعة كلها سوياً إلى سلطانية.

على أن وليم آدم عاد في عام ١٣٢٢ م إلى مقر البابوية في أفينيون حيث عينه الباب في منصب رئيس أساقفة مدينة سلطانية خلفاً لسلفه فرانكو دي بروجيا . وفي العام التالي ( ١٣٢٣ م ) كلفه البابا للقيام ببعثة من أجل وحدة الكنيسة الكاثوليكية في أرمينية . وليس من المعروف لنا أكان وليم قد قام بهذه المهمة أم لا ، لأنه كان موجوداً في مدينة أفينيون في عام ١٣٢٤ م ، ثم عين في العام التالي ( ١٣٢٥ م ) في منصب رئيس أساقفة مدينة انتفارى Antivari التي تقع على ساحل دالماسيا ، وظل في منصبه هذا حتى مات في عام ١٣٤١ م.

وقد وضع وليم آدم بعض الكتب الخاصة بالطقوس الدينية ، بالإضافة إلى كتابه الذي يعنينا في هذه الدراسة وهو De Mode Saracenos إلى كيفية اقتلاع جذور المسلمين ، وقد حوى هذا الكتاب Extripandi

العديد من الأفكار العسكرية والسياسية والدينية والاقتصادية التي من شأنها استعادة الأراضي المقدسة محور هذا البحث .

وكان ولیم آدم قد طاف بمنطقة واسعة متعددة الحضارات ، تشمل الإمبراطورية البيزنطية ، وجزيرة خيوس Chios ، وهي جزيرة كبيرة تقع إلى الغرب من مدينة أزمير ، بالإضافة إلى آسيا الصغرى، كما زار خليج البسفور ومدينة القسطنطينية. وقد تحدث عن هذه المناطق وسواحلها ومنتجاتها الزراعية ومواردها المختلفة ووصفها وصفاً دقيقاً للغاية .

كذلك تحدي ولیم عن مقابلته لبعض البحارة الجنوبيين ، ومنهم سیجورانوس سلفاتشی Seguranus Salvatici ، وهو من الدين كانوا يتولون نقل المؤن إلى مصر ، ويرفعون علم مصر على سفنهم حرصاً على سلامتهم . أما معلوماته عن مصر والشام فهي قليلة ، و يبدو أنه دون معلوماته عن مصر من خلال ما سمعه عنها .

ومن الواضح أن ولیم آدم كان موجوداً في بلاد فارس في عهد الباب كلمنت الخامس في الوقت الذي ترددت الشائعات في أوروبا حول إرسال حملة صليبية إلى الشرق أى حوالي ١٣١٣ - ١٣١٤ م ، ثم أنه اتجه بعد ذلك جنوباً بعد أن دون كتابه - في حوالي عام ١٣١٦ - ١٣١٧ م - حتى وصل إلى الهند حيث باشر الدعوة للديانة المسيحية مدة تزيد عن عام ونصف . وقد طاف بالأقاليم وتعرف على أخشاب أشجارها التي تصلح لبناء السفن مثل خشب النتنك والصندل . كذلك كان ولیم على معرفة تامة ببحر فارس - الخليج العربي - والجزء التي يقع عند مدخله الجنوبي . وقد ذكر أنه سار من شمال إيلخانية فارس حتى جنوبيها ، حيث قام بعملية الدعوة للديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، كما تجول في بعض سقطرى Socotra كما كتب عن إثيوبيا . وقضى في تلك

المناطق حوالي تسعه أشهر ، مما جعله على معرفة تامة بموقع بعض الجزر الموجودة فيها ، مثل جزيرة هرمز ، وجزيرة ديف Dive .

وبعد هذا العرض للأماكن التي زارها وليم آدم ، والتي كان لها أكبر الأثر على كتاباته ، ننتقل إلى المشاريع التي قدمها أو سجلها لاستعادة الأرضي المقدسة . والحقيقة أن كافة الأفكار التي وردت في كتابات أصحاب المشاريع الصليبية في بداية القرن الرابع عشر الميلادي كانت أفكارها نظرية و بعيدة عن الواقع العملي إلى حد كبير ، لأن هذه الأفكار اعتمدت في أساسها على وجود تفاهم بين كافة حكام أوروبا من أجل استعادة الأماكن المقدسة في بلاد الشام ، مما يسهل قيام تحالف فوري بينهم لضرب مصر ، باعتبارها القوة الرئيسية التي اجتثت الإمارات الصليبية من بلاد الشام . ولكن وليم آدم خرج عن هذه القاعدة ، فذكر أن العقبة الرئيسية في القضاء على مصر تكمن في أوروبا نفسها وترجع إلى إنشغال الغرب بأمور الداخلية ، وإلى صراع الدول الزورية مع بعضها البعض ، وإلى مطامع بعضها في تحقيق مكاسب خاصة ، ولذلك فإنه يرى أنه لا سبيل للقضاء على القوة المملوكية في مصر غير العناية الإلهية التي ر بما تتدخل لتمكن الغرب الأوروبي من انتزاع القبر المقدس من أيدي المسلمين . ولذلك قدم وليم آدم بعض النصائح إلى الباب وحكام أوروبا حول إعداد حملة عسكرية أو القيام بأعمال أخرى من شأنها العمل على استعادة الأرضي المقدسة .

وفيما يتعلق بقيام الغرب الأوروبي بإعداد حملة عسكرية لضرب الدولة المملوكية قدم وليم آدم أفكاراً تمهيدية يجب الأخذ بها قبل الشروع في أي عمل عسكري ضد مصر ، ووضع هذه الأفكار في أربع نقاط رئيسية .

أولاً : يجب التعامل بكل شدة مع الأفراد أو الهيئات أو الدول التي

تساعد مصر وتمدها بالدقيق والمواد الحرية وكافة المستلزمات الأخرى، لأن هؤلاء لا يطبقون مبدأ الحصار البحري الذي نادت البلابوية بفرضه على الموانئ الإسلامية ، ومن هؤلاء القطلان والبنادقة والبيزنيين والجنوية، كما أنهم لا يبالون بقرارات الحرمان من رحمة الكنيسة التي تفرضها البابوية ضد المتعاملين مع المسلمين ، خاصة الدول المملوكة .

ثانياً : يطالب وليم أدم قبل القيام بأي حملة عسكرية ضد مصر بضرورة قيام دول غرب أوروبا بالاستيلاء على مدينة القدسية. وركز على أن البيزنطيين هم الأعداء الحقيقيون للصلبيين ، كما أن الإمبراطور البيزنطي يرتبط بروابط الود والصداقة مع سلطان مصر ، ويعمل على إمداد مصر بالمؤن في أوقات الشدة. ويقيام اللاتين بغزو القدسية والاستيلاء على أراضي الإمبراطورية البيزنطية يتم تحويل الشعب البيزنطي الأرثوذكسي المذهب إلى شعب كاثوليكي المذهب، ويدخل في تبعية كنيسة روما .

ثالثاً : يجب منع خان مغول القفجان أو تثار القرم من التعاون مع مصر ضد مغول . فارس الذين يسعون إلى التحالف مع الدول الأوروبية والباباوية لضرب الدولة المملوكية .

رابعاً : يطالب وليم أدم بإعداد أسطول أوربي تكون مهمته السيطرة على موانئ البحر المتوسط ، كما يقوم أسطول آخر يتم إعداده في موانئ بحر الهند بإغلاق مضيق هرمز ، وكذلك مضيق باب المندب، وذلك لإيقاف الحركة التجارية بين موانئ البحر المتوسط ، وموانئ الشرق الأقصى التي تتدفق عن طريقها على مصر بضائع وغلالات الشرق عبر ثغر عدن . ويرى أيضاً أنه يجب تحويل طريق التجارة ليكون في أيدي الأوروبيين بحيث تنقل بضائع الشرق عبر مضيق هرمز إلى الخليج الذي تسيطر عليه القوات المغولية ، ثم إلى نهر الفرات ، ومنه إلى موانئ

دولة أرمينية ، والمقصود هنا مدينة أياس .

وبعد أن حدد وليم آدم الخطوط العريضة للأفكار التي من شأنها إحكام الحصار البحري على مصر من الشمال والجنوب للأضرار بصالحها التجارية التي تشكل الدخل الرئيسي للدولة المملوكية في تلك المرحلة ، قام بتحديد السبل التي من شأنها وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ.

وفيما يتعلق بالدول أو السفن أو الأفراد الذين يتعاملون مع مصر تجاريًّا ولا يبالون بالقضية الصليبية ولا يخشون قرارات الحerman التي تصدرها الباباوية ، يطالب وليم آدم باستباحة دمائهم ومصادرتهم وبيعها علينا ، وتخصيص العائد من بيعها للحركة الصليبية وإنقاذ الأرضي المقدسة . كذلك طلب باستباحة سلب أو الاستيلاء على حمولة السفن التي تتعامل مع مصر دون خوف من أحد . ويرى أنه من أجل ضرب هؤلاء المتعاملين مع مصر يجب إعداد مجموعة من السفن تكون مهمتها التجول في مياه البحر المتوسط للاحقة السفن الخارجة عن القانون .

كذلك طالب بحرمان كل السفن التي تتعامل مع المسلمين فضلاً عن السفن الإسلامية من التعويضات التي يقدمها مكتب الضمان الجنوبي . وكان هذا المكتب يقدم تعويضاً لكل المسلمين واليهود الذين يتعرضون بضائعهم للخسائر وهي محمولة على ظهر السفن الجنوية، بشرط ألا يكون الضرر قد وقع من إحدى الدول التي هي في حالة حرب مع جمهورية جنوة .

ويرى وليم آدم حرمان الدولة المملوكية من. الأول التي تدخل خزانتها من عائد عملية الحج التي يقوم بها المسيحيون الأوروبيون إلى الأرضي المقدسة ، وذلك بنزع الحج تماماً إلى القدس، لأن الرسوم التي يقدمها هؤلاء الحجاج تثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوكية . وأضاف إنه يمكن

التحكم فى عملية الحج التى يقوم بها المسيحيون الأوربيون إلى الأرضى المقدسة ، وذلك بمنع الحج تماماً إلى القدس ، لأن الرسوم التى يقدمها هؤلاء الحجاج تمثل دخلاً كبيراً لخزانة الدولة المملوکية . وأضاف أنه يمكن التحكم فى عملية الحج عن طريق قبرس أثناء رسو الحجاج فيها وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس . كذلك نادى بانزال العقاب بكل من يساعد هؤلاء الحجاج سواء بالسفن أو الاستضافة ، وطالب كذلك بتطبيق هذه العقوبات على كل من يقوم بنقل البضائع والرقيق إلى مصر أو يقوم بالوساطة بين الإمبراطور البيزنطى وخان القفجاق وبين سلطان مصر .

ولما كان وليم آدم يرى أن عقوبة الحرمان من رحمة الكنيسية غير كافية لمنع التجار الأوربيين المعاملين مع مصر ، فقد طالب البابوية بإعداد بعض السفن المسلحة ووضعها تحت تصرف حكام جزيرة خيوس ، لأنهم من الحكام الأقوياً المدافعين عن المصالح الأوروبية الصليبية ، وخاصة أن موقع هذه الجزيرة من الأهمية بمكان لوقوعه على الطريق البحري بين القسطنطينية والإسكندرية ، وباستطاعة حاكم هذه الجزيرة قطع الاتصال التجارى بين مصر من جهة وبين خان القفجان والإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى . وركز وليم آدم على ضرورة غزو القسطنطينية وخصوص لذلك جانبًا كبيراً من كتاباته ، واعتبر هذا العمل حجر الزاوية لأى مشروع لضرب المصالح الاقتصادية .

وقد سجل وليم بعض الآراء التي عزز بها وجهة نظره لغزو الإمبراطورية البيزنطية ، منها أن تبدأ أوروبا بغزو آسيا الصغرى حتى تكون على اتصال بري بذلك الانحاء قبل غزو بلاد الشام ، لأن غزو بلاد الشام قبل غزو آسيا الصغرى يجعل القوات الصليبية محاطة بالأتراء والعرب من كل جانب . وذكر وليم أنه إذا كانت الغاية النهائية لكل هذه الأعمال هي السيطرة على مصر ، فإن السيطرة على آسيا الصغرى لا بد أن تبدأ من القسطنطينية لاتخاذها نقطة ارتکاز لاستكمال فتح آسيا

الصفرى. ولم يستبعد وليم آدم رغم هذا كله الحلول السلمية لاحتواء الإمبراطورية البيزنطية وضمها إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية. وطالب البابا بمحاولة إقناع حكام بيزنطة باعتناق المذهب الكاثوليكى، أما إذا فشل البابا في ذلك فإن السلاح يصبح الحل الأمثل، خاصة أن هناك تعاوناً كبيراً بين الإمبراطورية والجنيوية.

وفي الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية، أنحى آدم باللائمة عليها وذكر أنه يجب معاملة البيزنطيين بمنتهى الشدة، وركز على أنه لا يمكن سيطرة أوريا على بلاد الشام دون الهيمنة على الإمبراطورية البيزنطية التي تتالف مع مصر والتي تقع إلى الشمال منها. وتصور أنه من السهولة السيطرة عسكرياً على بيزنطة من أجل تسخير ثرواتها لخدمة القضية الصليبية، وأنه بالإمكان بعد ذلك اتخاذ الطريق البري عبر هنغاريا إلى بلاد الشام، وهو طريق أسهل من الطريق البحري. وحول هذا الصدد روى وليم أنه إذا كان على أوريا أن تحارب المسلمين، فعليها أولاً إعادة الأبن الضال أي الإمبراطورية البيزنطية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية.

وبإضافة إلى ذلك عدد وليم آدم ما ذكرته المصادر الصليبية عن الأضرار التي لحقت بالحملة الصليبية الأولى بسبب موقف الإمبراطورية البيزنطية من جوفري Godfrey، وذكر قصة الدقيق المخلوط بالجیر الذي باعه البيزنطيون للصلبيين - وهو هنا يقصد ما سجل عن بعض أحداث الحملة الصليبية الثانية، واغتصاب آل باليولوج Polaeologus لعرش الإمبراطورية البيزنطية. والمراد هنا عودة أسرة باليولوج لحكم بيزنطة في عام 1261م، والقضاء على حكم اللاتين. والحقيقة أن وليم آدم عدد مساوى كثيرة للأباطرة البيزنطيين خاصة موقفهم من توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وأفرد لها صفحات طوال.

وتبقى نقطةأخيرة في هذا البحث وهي التي تتعلق بوقف تدفق البضائع القادمة من الهند والشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والخليج. فالحقيقة أن فكرة القيام بحصار مصر بحرياً كانت من الأفكار التي ساندتها البابوية قبل عام ١٢٩١ م من أجل الإبقاء على الإمارات الصليبية في بلاد الشام، أو بعد سقوط هذه الإمارات من أجل استعادتها مرة أخرى. ومن المعروف أن بقاء أو قيام هذه الإمارات كان مرهوناً بوقف القوى الإسلامية المحيةة ببلاد الشام خاصة مصر، ونذكر على سبيل المثال الأفكار التي نادى بها الرحالة والمفكر مارينو سانودو Marino Sanudo، ولكنه قصر أفكاره على حصار مصر اقتصادياً من ناحية البحر المتوسط فقط.

ومن الواضح أن وليم آدم كان أول من نادى بحصار مصر اقتصادياً عن طريق الجنوب والشمال أي عن طريق الخليج ، وباب المندب من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى، لأنه استهدف إغلاق طريق باب المندب في وجه التجارة القائمة إلى مصر بحراً من الشرق الأقصى. وقد أدرك وليم مسبقاً صعوبة تنفيذ ذلك المشروع باعتباره مشروعًا غير مسبوق، لذلك نراه يقدم بعض المعلومات التي استند إليها لتنفيذ هذه الفكرة، فذكر أن بعض الجنوبيين حاولوا تنفيذ جانباً من هذا المشروع لأسباب تجارية. ويفضل مساعدة خان مغول أرغون Arghun (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) فإن هؤلاء الجنوبيين قاموا بإعداد سفينتين في بغداد، وكانوا يودون تسبيير هذه السفن في نهر الفرات - ولعله يقصد نهر دجلة - ومنه تسير إلى المحيط الهندي عبر الخليج. ولكن هذا المشروع لم يستكمل بسبب بعض الخلافات التي قامت بين هؤلاء الجنوبيين.

وعندما عرض وليم هذا المشروع ذكر أن شواطئ المحيط الهندي مملوقة

بأشجار التك والصندل التي تصلح أخشابها تماماً لبناء السفن. وقال أنه يجب أن يتم ذلك بعيداً عن أعين التجار المسلمين سكان مدينة عدن الذين يتولون أمر الملاحة في البحر الأحمر. واقتصر أن توضع هذه السفن في جزيرة هرمز، ولعله يقصد جزيرة قشم التي كانت ضمن أملاك الدولة المغولية في فارس، أو في جزيرة أخرى أسمها ديف Dive، أو إقامتها على الساحل الهندي. ولعل في اسم ديف تشابه مع جزر الكارديف أو مالديف ولكن الأخيرة تبعد كثيراً إلى الجنوب، لأن عبارة وليم تفيد أن جزيرة ديف قريبة من جزيرة هرمز. وأشار أيضاً إلى أنه بالإمكان إعداد هذه السفن على الساحل الغربي للهند في مدينة تانا Tana وهي بومباي حالياً، أو في مدينة كامباي Cambay وهي تحمل الاسم نفسه حتى الآن، أو مدينة كولوم Colom وهي كولومبو حالياً التي تقع في جزيرة سيلان حيث تنمو بكثافة أشجار التك والصندل. ويضيف وليم أنه إذا تم إعداد ثلاث سفن أو أربع فإنه بالإمكان غلق فتحة باب المندب ومراقبة السفن القادمة من الهند إلى البحر الأحمر، وتستكون هذه بشابة عوائق تسد المدخل إلى البحر الأحمر، وفي هذه الحالة يمكن استغلال جزيرة سوقطرة أيضاً.

وأشار وليم إلى أن سكان الجزر التي أشار إليها مسيحيون وأنهم يكرهون المسلمين ويفضلون التعامل مع السفن المسيحية، ولذا فإنهم سوف يساعدون السفن المزعزع إعدادها للرسو في موانئهم. أما فيما يتعلق بالتجار الذين يعملون على ظهر السفن من الهند إلى عدن، وهم الذين سماهم وليم بالمهربين، فإنهم يجهلون أصول الحرب البحرية وليس لديهم سفن لحمايتهم، وإذا ما تعرضوا للهجوم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وإنهم يصدون سهام الأعداء، القراصنة البحريين بدروع مصنوعة

من القش أو سعف النخيل.

كذلك رأى وليم آدم ضرورة وجود مينا، صالح قريب من هذه المواقع حتى تلجم إلية سفن الحراسة للقيام بعملية الصيانة الموسمية، ومن أجل تخزين البضائع التي يتم الاستيلاء عليها. وأختار لذلك الجزر الموجودة في مدخل الخليج عند مدينة هرمز باعتبارها المكان المناسب للرسو، وهي آمنة كذلك لتبعيتها خان مغول فارس الذي يسعى جاهداً لضرب التجارة المصرية وإذا تعذر الحصول على موافقة الخان فإنه يمكن البحث عن مكان آخر مثل أرخبيل ديف على وجه التحديد.

كذلك تحدث وليم عن مسألة تسلیح السفن وإمدادها بالمقاتلين، وقال أنه يلزم لذلك إعداد حوالي ألف ومائتين من الرجال، وإن هذا أمر متزوك للقائد الذي سيتولى قيادة هذه السفن. أما توقيل هذه السفن فأمر يتولاه البابا من حصيلة صكوك الغفران، أو من أثمان السلع التي تصادر من التجار الذين يتاجرون مع مصر.

هذه هي الأفكار الرئيسية التي قدمها وليم آدم للقضاء اقتصادياً على الدولة المملوكية، وما يتبع ذلك من القضاء عليها عسكرياً، ويمكن تلخيص هذه الأفكار في النقاط التالية:

- ١ - وضع المواني المملوكية - خاصة مدينة الإسكندرية - تحت الحصار الاقتصادي الأوروبي.
- ٢ - إnatal قرار الحرمان من رحمة الكنيسة على جميع التجار الذين يتعاملون مع مصر.
- ٣ - إعداد السفن اللازمة لمراقبة حركة التجارة في حوض البحر المتوسط ومعاقبة من يتعامل مع مصر ومصادرة سلعه.

٤ - وقف حركة الحج الأوربية إلى الأراضي المقدسة لحرمان الخزانة المصرية من الأموال التي يدفعها الحجاج للدولة المملوكية.

٥ - الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية باعتبارها دولة مارقة على الدين المسيحي، وكانت دائماً تقف موقف الخيانة من القضية الصليبية، فضلاً عن أنها مرتبطة بمصر اقتصادياً، بالإضافة إلى قيامها بدور الوسيط في نقل التجارة بين مغول القفجاق وبين مصر.

٦ - قطع طريق التجارة التي ترد من الشرق الأقصى، وذلك بغلق مضيق باب المدب بالسفن الحربية.

٧ - تحويل التجارة القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج ومنها إلى نهر الفرات ثم برأ إلى دولة وموانئ أرمينية.

والحقيقة أنه كان لأفكار وليم آدم صدى كبير في أوروبا، فقد عارضها البعض، ومن هؤلاء فيليب الخامس Philip V ملك فرنسا (١٣١٦ - ١٣٢٢م)، ورأى أن في إعداد مثل هذه الحملات فرصة لقيام البابا بجمع الأموال واستخدامها في أغراض أخرى. ولكن يبدو أن البابوية اهتمت بهذه الآراء، وقام البابا يوحنا الثاني والعشرون بالإعداد لحملة وجهتها القسطنطينية، وأُسنِدَ هذا العمل إلى روبرت ملك نابولي Robert of Naples (١٣٠٧ - ١٣٤٣م). على أن هذه الحملة فشلت ولم تتوجه إلى القسطنطينية.

على أنه إذا كانت أفكار وليم آدم لم تجد من ينفذها في عصره، فإنها وجدت في العصور التالية، سبيلاً لتحقيق بعضها من خلال الكشف الجغرافية.



**خاتمة**  
**المغول والإسلام**



تعتبر امبراطورية المغول اكثراً الامبراطوريات إتساعاً عرفت في تاريخ العصور الوسطى ، والتي امتدت من كوريا حتى بولندا ومن طنكين Tonkin الى سواحل البحر المتوسط . وكان قيام المغول مثل أي امبراطورية أخرى اعتمدت على أصولها القبلية . لقد استمرت امبراطورية المغول لفترة ليست قصيرة ، ووضعت بصماتها على العديد من الأجيال التي تلتها ، والحقيقة أن قيام امبراطورية المغول ظهر في أوقات عصيبة حيث كانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما لذلك من علاقات عسكرية بين الشرق والغرب . وما يعنينا في هذا الفصل العناصر التي تعاملت مع المغول في منطقة الشرق الأدنى وفي بلاد الأناضول .

و قبل القرن الثالث عشر الميلادي كان المغول معروفي بالكاف إلى جيرانهم في الصين و منتصف آسيا ولبعض التجار القلائل ولبعض البعثات التبشيرية والنساطرة . وكانت فكرتهم حول النظم الاجتماعية وطرق الحياة مختلفة قليلاً عن القبائل التركية الأخرى . وفي عام ١٢١١ - ١٢١٢ م سقطت شمال الصين بما فيها مدينة بكين في أيدي القوات المغولية ، كما أن سيطرة المغول على حدود ووسط آسيا جعلتهم على اتصال مع الدولة الخوارزمية . وفي عام ١٢١٩ - ١٢٢٠ م سيطروا على خوارزم وأغاروا على ايران وأذربيجان . وفي عام ١٢٢١ م سقطت غزنه التي خربت جزئياً ، والى جانب ذلك يلاحظ أن عدداً كبيراً من المسلمين خاصة التركمان في بلاد الأناضول قد إنصرفوا مع المغول الفاتحين ، رغم أن المغول كانوا أقل عدداً . وعلى ذلك أن المجتمع البدوي قد فضل الحياة في الأماكن الجديدة ، وزاد عدده ولم يعد للعمل في الحياة الزراعية التي خربت من جراء الغزوات المغولية ، وفضلاً عن ذلك فإن المغول قد تسامحوا مع كل الأديان . ولما كان سكان البلاد في

غرب آسيا وهي البلاد التي فتحها المغول كان يسودها الإسلام لذلك أصبحت الديانة الإسلامية هي الغالبة على المجتمعات التي أصبحت تحت السيادة المغولية وكان لذلك اثراً كبيراً على الحكومات المغولية .

ويلاحظ أيضاً أن المغول أزالوا الخط الفاصل الذي أقامه السلاجقة وهي الفصل بين العالم العربي وایران . ولقد أصبح عرب بغداد في اقليم مستقل عن ایران ولم يعد عرب بغداد هم قلب الاسلام لمحاورتهم دولة المغول في ایران . لقد أصبحت القاهرة أو دولة المالك في مصر هي العاصمة الاسلامية أو العاصمة الروحية ، وأصبحت هذه الدولة المؤهلة للدفاع عن الاسلام بعد ما خرب المغول بلاد الشام . ومع دخول المغول في بلاد الشام لعبوا دوراً كبيراً في العلاقات العالمية نظراً للصراع الدائر بين المسلمين في الشرق وبين الامارات الصليبية وأرمينيا التي يساندها الغرب الأوروبي والبابوية . لقد كان هناك إصراراً من قبل دولة المالك على إستئصال شأفة الصليبيين من بلاد الشام ومن هنا إرتكى الأرمن والصليبيون في أحضان المغول لنجدتهم من الضربات الاسلامية .

وواقع الحال ان المالك لم يهتموا إلا بدولة المغول التي قامت في ایران والعراق وبال المسلمين في بلاد الأناضول . لقد أقام دولة إيلخانات فارس ، خلفاء هولاكو بعد موته في عام ١٢٦٥م . وكانت مدينة تبريز في أول الأمر عاصمة الدولة وبعد عهد أولجايتو انتقلت إلى مدينة السليمانية ( كانجولان ) Kangwan وظلت مزدهرة في شمال ایران . وقد تميزت هذه الدولة بعداوتها مع دولة مغول روسيا ، وهي التي عرفت باسم القبيلة الذهبية ، على العكس مع الامبراطورية البيزنطية التي ساد الوئام بينها وبين إيلخانات فارس . وقد تعاون الاثنان ضد القبيلة الذهبية ودولة المالك ، كما تعاون مغول فارس مع الغرب المسيحي ضد دولة المالك ، وقد لعب الدين والاقتصاد دوراً كبيراً عند المغول لما لهما من

تأثير عالمي في تلك العصور .

والواقع لم يكن للمغول دينا محدداً في تلك المرحلة ، وقد تعاملوا مع كافيه الاديان بسياسة التسامح . وفي بداية الامر كان المغول يميلون الى المسيحية والى طائفة الشيعة . لأن هذه الطوائف كما رأى المغول أنهم عانوا من النظم الاسلامية القديمة ، لذلك تقربوا إلى المغول . يضاف الى ذلك دون شك أن النساطرة في إيران وفي وسط آسيا والأرمن في قيليقيا قد مالوا الى جانب المغول وساعدوهم ، يلاحظ أن هولاكو نفسه كان يميل الى البوذية وأن زوجته طرز خاتون كانت نسطورية ، كما أن البلاط المغولي كان به كثير من المسيحيين ، ومن جانب آخر فإن سعد الدولة وزير الخان أرغون كان يهودياً وقد ظل كذلك دون أن يكتشف أمره .

رغم هذا كله فإن المغول قد اعتنقوا الاسلام في النهاية ، ولعل ذلك مرجعه الى أن تكودار بن هولاكو ( ١٢٨٤ - ١٢٨٢ م ) قد اعتنق الاسلام بأمل أن تنتهي الحروب التي دارت بين المغول والمماليك ، ولكن ذلك قد كلفه حياته ، فقد ثار عليه زعماء المغول وقتلوه . ولكن غازان ( ١٣٠٤ - ١٢٩٥ م ) قد اعتنق الدين الاسلامية دون خطر أو مشاكل وقد سار على نهجه كل خلفائه .

لقد كان هناك أسباباً عديدة لاعتناق المغول للديانة الاسلامية أو يعني آخر لانتشار الاسلام بين المغول ، لقد كان للمحيط الديني الاسلامي الذي وجد بداخله المغول عاملاً كبيراً ، ولكن يجب الا نغالي في أهمية هذا العامل ، لأن الأقلية المنتصرة من العرب مع ظهور الاسلام لم يعتنقوا ديانة الأغلبية المهزومة ، وإنما يمكن القول أن ذلك يرجع الى

## التفوق الروحي للإسلام

لقد تحول إلى الإسلام مغول القبيلة الذهبية قبل خانات فارس ، وقد أوجد ذلك حاجزاً بينهم وبين السكان الروس الذين كانوا خاضعين في البداية لإمارات إقطاعية لم يتول المغول إدارتها مباشرة ، وإذا كنا سوف نهتم بتأثير المواطنين الأصليين ، ففي الحقيقة يجب أن نهتم بقبائل التركمان إذا أردنا أن نشرح أو نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بين المغول . ففي بلاد الشام وفي إيران كانت أعداد التركمان أكثر من المغول ، وكان هؤلاء التركمان يعتنقون الإسلام ، ولما كان هؤلاء التركمان والمغول لهم طريقة واحدة في الحياة ، فإن ذلك جعل التركمان يتتصون المغول في وقت مبكر ، ولذلك اعتنق المغول الإسلام في وقت مبكر .

لقد أصبح المغول مسلمي العقيدة وابقوا على حقوق الأقلية غير الإسلامية ، لقد كافحوا لكتابتهم إلى صفوفهم من أجل الكسب дипломاسي للممالك المسيحية . لقد نظر المالك نظرة الشك للمغول الذين تحولوا إلى الإسلام ، وان غازان الذي تحول إلى الإسلام قد قام بغزوات عديدة في بلاد الشام واتخذ الوزير رشيد الدين الذي تحول إلى الإسلام وزيراً له . وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض المغول قد تحولوا إلى الديانة الإسلامية على المذهب السنوي والبعض الآخر على المذهب الشيعي ولما كان هولاكو يعتقد في النجوم فقد كان نصيراً وحامياً للعالم الشيعي ، الخوارزمي الكبير نصير الدين الطوسي وأقام له مرصدأ في مدينة مرااغة ، وبذلك استعاد الشيعة مكانتهم التي فقدوها منذ قرنين مضت . وكان في ذلك مقدمه لعل شأن الشيعة منذ القرن السادس عشر الميلادي في بعض المناطق ما يجعل إيران دولة إسلامية شيعية وانعزلت عن بقية العالم

الاسلامى ، وخاصة عن جارتها ، الدولة العثمانية التى سارت على المذهب السنى .

وكان التأثير الدبلوماسي لسياسة التسامح الدينى التى إتبعها المغول كبيراً . وكانت لها أهمية كبيرة على العلاقات المغولية مع الغرب . لقد كانت رؤية الغرب للمغول عندما ظهروا على الساحة الخيرية والسياسية مختلفة تماماً ، فلم ينزعج الأوربيون من الخراب الذى أنزله المغول بالشعوب الاسلامية وغير الاسلامية . وكانوا يرون أن المغول هزموا المسلمين المجاورين لهم ، وفي ذلك فائدة للصلبيين وبعد إنتصاراً لهم . وان الصليبيين الذين تلقوا هذه المعلومات من النساطرة والمسيحيين فى أواسط آسيا ، أدركوا مغامرات المغول وسيطرتهم لعلها تكون مفيدة للمسيحيين .

وان هؤلاء الذين تحالفوا من الأرمن فى قيليقيا كانوا يمدون الى مشاركة المغول فى موقفهم ، وهو الموقف الذى تبناه بيت هيثوم ، والأبعد من ذلك فإن أسطورة الكاهن يوحنا ساندت هذا الموقف ، ومن المعروف أن هذه الأسطورة قد ظهرت فى القرن الثانى عشر ، وهنا تذكر الغرب هذه الأسطورة كما تذكرها النساطرة والصلبيون فى الامارات الصليبية بالشام ، لقد كان هناك بعض النساطرة بين المغول ، وقد مارسوا شعائرهم وكانوا مقربين من السلطات المغولية ، يضاف الى ذلك ما كان هناك من بعثات تبشيرية .

لقد تزامن تقدم المغول الى غرب آسيا مع انهيار الروح الصليبية وانشغال الغرب الأوروبي بأموره عن الصليبيين ، وان ماقام به بعض الرهبان من البعثات السياسية قد فشل هو الآخر ، وفي النهاية أرسل

البابا إنوسنت الرابع إلى المغول عبر روسيا الراهب الفرنسيسكاني يوحنا  
اف بیان دی کارین ، والراهب الدومينيکانی ولیم رویروک عبر الأناضول  
ولقد كانت إجابة المغول محيرة ، فقد كان الخان نشوان بالنصر وطلب  
خضوع جميع ملوك وأباطرة أوربا بالإضافة إلى البابا ، ولكن الوضع  
أختلف بعد موقعة عین جالوت ١٢٦٠م ، وبعد عین جالوت بدأ المغول  
في البحث عن حلفاء ، ولذلك قاموا من جانبهم بإرسال السفراء إلى  
البابا كلمانت الرابع في عام ١٢٦٧م وإلى جيمس الأول ملك أراغون في  
عام ١٢٦٩م ، وإلى مجلس ليون الكنسي في عام ١٢٧٤م يقتربون  
القيام بحملة مشتركة ضد العدو المشترك وهو المسلمين ، وهي الحملة  
التي كان يستحيل إمدادها بالقوة الكافية لصعوبة المسافة والمشاكل  
الداخلية للبلاد الأوربية . لقد تحمس البابا نيكولاوس الرابع للفكرة ، وقد  
حمل فكرة المغول مار ياباهالا Mar Yabaha الثالث الذي زار  
جنوة ، وملك فرنسا ، وملك إنجلترا ، وظل التشاور بين المغول وأوربا  
حتى عهد غازان ولكن هذا التشاور لم يتعد الخطابات والبعثات . وبعد  
عهد غازان فإن التشاور كان بين البابا يوحنا الثاني والعشرين وابي  
سعید الذى كان قد عقد السلام مع الماليك ، ثم مالت أن زالت دول  
المغول ، وقيمت الدول الإسلامية والاسلام .

## **الجدائل والخرائط**

### **أ - الجداول**

خانات منغوليا

خانات ما وراء النهر وتركستان الشرقية

خانات فارس

خانات القبيلة الذهبية

١ - فرع باطرو

٢ - فرع أوردا

ملوك إنجلترا

ملوك فرنسا

أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة

الباباوات

### **ب - الخرائط**

انتشار السلاف في روسيا

الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي

روسيا الكيفية وغزوّات المغول

روسيا في القرن الخامس عشر الميلادي

المغول في القرن الثالث عشر

المغول في القرن الخامس عشر

خانات المغول  
 (بيت أوكيتاي وطولوي)  
 منغوليا

تاريخ تولي العرش

١٢٠٦	جنكيز خان
١٢٢٧	أوكيتاي
١٢٤١	توراكيينا (وصية)
١٢٤٦	كيلوك
١٢٤٩	اوغل قيميش (وصية)
١٢٥١	مونكو
١٢٦٠	قوبيلاي
١٢٩٤	أوجلايتو
١٣٠٧	كيلوك
١٣١١	بويانتو
١٣٢٠	كه كُن
١٣٢٣	يسون تيمور
١٣٢٨	راجي بقا
١٣٢٨	جياغاتو
١٣٢٩	كويتنالا
١٣٣٢	رينجن بال
١٣٧٠ - ١٣٣٢	طوغان تيمور

بیت جفتای باقلیم ما وراء النهر و تركستان الشرقية

١٢٤٧	جفتاي
١٢٤١	قراهولاکو
١٢٤٧	يسو منکو
١٢٥٢	قراهولاکو للمرة الثانية
١٢٦١	الکو
١٢٦٦	مبارك شاه
١٢٦٦	براق خان
١٢٨١	نيکبای
١٢٧٢	توقا تيمور
١٢٩١	ذوورا خان
١٣٠٦	قونجوق خان
١٣٠٨	تاليقو
١٣٠٩	کېك خان
١٣٠٩	اسن بغا
١٣١٨	کېك خان للمرة الثانية
١٣٢٦	ایلجي کدای
١٣٢٦	دووا تيمور
١٣٢٦	علا الدين ترماشيرين
١٣٣٤	جنکشى (جنکاشاي)
١٣٣٤	بورزون

١٣٤٨	اسن تیمور
١٣٤٢	محمد
١٣٤٣	قازان تیمور
١٣٤٦	دانشمندجہ
١٣٤٨	بویان قولی
١٣٥٩	شاہ تیمور
١٣٧٠ - ١٣٥٩	تغلق تیمور
	حاز تیمور تلك البلاد

### خانات فارس

١٣٥٣ - ١٢٥٦

### فارس

١٢٥٦	هولاکو
١٢٦٥	ابغا
١٢٨٢	احمد تکودار
١٢٨٤	ارغون
١٢٩١	کیختو
١٢٩٥	بایدو
١٢٩٥	غازان محمود
١٣٠٤	اوجایتو خدا بنده محمد
١٣١٧	ابو سعید بهادر
١٣٣٥	اریا کماون (معز الدین)
١٣٣٦	موسى

انقسام فارس بين اسرات عديدة امثال الجلاطرين والمظفرین  
والسرادارين (خراسان). ١٣٣٦ - ١٣٥٣

### خانات القبيلة الذهبية

(جوجي)

١٢٢٦

جنوب روسيا وغرب سيبيريا

١ - فرع باطو - خانات القبيلة الزرقاء في جنوب وغرب بلاد  
القبيحاق :

١٢٢٧	باطو بن جوجي
١٢٥٥	سارتاق
١٢٥٦	اولا غجي
١٢٥٧	بركة بن جوجي
١٢٦٧	مانكوا تيمور
١٢٨٠	تودا مونكوا
١٢٨٧	تولا بوغا
١٢٩٠	تفتو، غياث الدين
١٣١٢	أوزيك، غياث الدين محمد
١٣٤١	تنيي بك
١٣٤١	جانى بك
١٣٨٠ - ١٣٥٧	عصر فوضى واضطراب

٢ - فرع أوردا - خانات القبيلة البيضاء في سiberia وشرقي بلاد القبجاق ثم اتحدت القبيلتان الزرقاء والبيضاء في القبيلة الذهبية في جنوب روسيا - بعد ١٣٧٨ :

١٢٢٦	أوردا بن جوجي
١٢٨٠	قوجي
١٣٠٢	بايان
١٣٠٩	سامي يوقا
١٣١٥	إبان
١٣٢٠	مبارك خواجه
١٣٣٤	جمتاي
١٣٦١	أوروس
١٣٧٥	توقفاكه
١٣٧٥	تيمور ملك
١٣٧٦	غياث الدين تقتاميش
١٣٩٥	تيمور قتلغ
١٤٠١	شادي بك
١٤٠٧	بولاد
١٤١٠	تيمور
١٤١٢	جلال الدين
١٤١٤	كبك
١٤١٧	جبار بردى
١٤١٩	أولغ محمد

## ملوك إنجلترا بعد الفتح النورماني

١٠٨٧ - ١٠٦٦	وليام الأول (الفاتح)
١١٠٠ - ١٠٨٧	وليام الثاني
١١٣٥ - ١١٠٠	هنري الأول
١١٥٤ - ١١٣٥	ستفان
١١٨٩ - ١١٥٤	هنري الثاني
١١٩٩ - ١١٨٩	ريتشارد الأول
١٢١٦ - ١١٩٩	يوحنا
١٢٧٢ - ١٢١٦	هنري الثالث
١٣٠٧ - ١٢٧٣	إدوارد الأول
١٣٢٧ - ١٣٠٧	إدوارد الثاني
١٣٧٧ - ١٣٢٧	إدوارد الثالث
١٣٩٩ - ١٣٧٧	ريتشارد الثاني
١٤١٣ - ١٣٩٩	هنري الرابع
١٤٢٢ - ١٤١٣	هنري الخامس
١٤٦١ - ١٤٢٢	هنري السادس
١٤٨٣ - ١٤٦١	إدوارد الرابع
١٤٨٥ - ١٤٧٣	ريتشارد الثالث
١٥٠٩ - ١٤٨٥	هنري السابع (تيودور)

## ملوك فرنسا

١١٨٠ - ١٢٢٣	فيليب أوغسطس
١٢٢٣ - ١٢٢٦	لويس الثامن
١٢٢٦ - ١٢٢٩	لويس التاسع (القديس)
١٢٢٩ - ١٢٤٠	فيليب الثالث
١٢٤٠ - ١٢٤٥	فيليب الرابع
١٢٤٥ - ١٢٥٤	لويس العاشر
١٢٥٤ - ١٢٦٦	جنا الأول
١٢٦٦ - ١٢٧٢	فيليب الخامس (الطويل)
١٢٧٢ - ١٢٨٥	شارل الرابع

فيليب السادس فالوا	١٣٥٠ - ١٣٢٨
حنا الثاني (الطيب)	١٣٦٤ - ١٣٥١
شارل الخامس	١٣٨٠ - ١٣٦٤
شارل السادس	١٤٢٢ - ١٣٨٠
شارل السابع	١٤٦١ - ١٤٢٢
لويس الحادي عشر	١٤٨٣ - ١٤٦١
شارل الثامن	١٤٩٨ - ١٤٨٣

### اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة وملوكها

هنري الرابع	١١٠٥ - ١٠٥٦
هنري الخامس	١١٢٥ - ١١٠٥
لوثر الثاني	١١٣٨ - ١١٢٥
كونراد الثالث	١١٥٢ - ١١٣٨
فريدريك بارباروسا	١١٩٠ - ١١٥٢
هنري السادس	١١٩٧ - ١١٩٠
فيليب الثاني	١٢٠٨ - ١١٩٧
أوتو الرابع	١٢١٨ - ١١٩٧
فريدريك الثاني	١٢٥٠ - ١٢١٢
كونراد الرابع	١٢٥٤ - ١٢٥٠
وليم الهولندي	١٢٥٦ - ١٢٥٤
(فترة الشغور)	١٢٧٢ - ١٢٥٧
رودلف لأول	١٢٩١ - ١٢٧٣

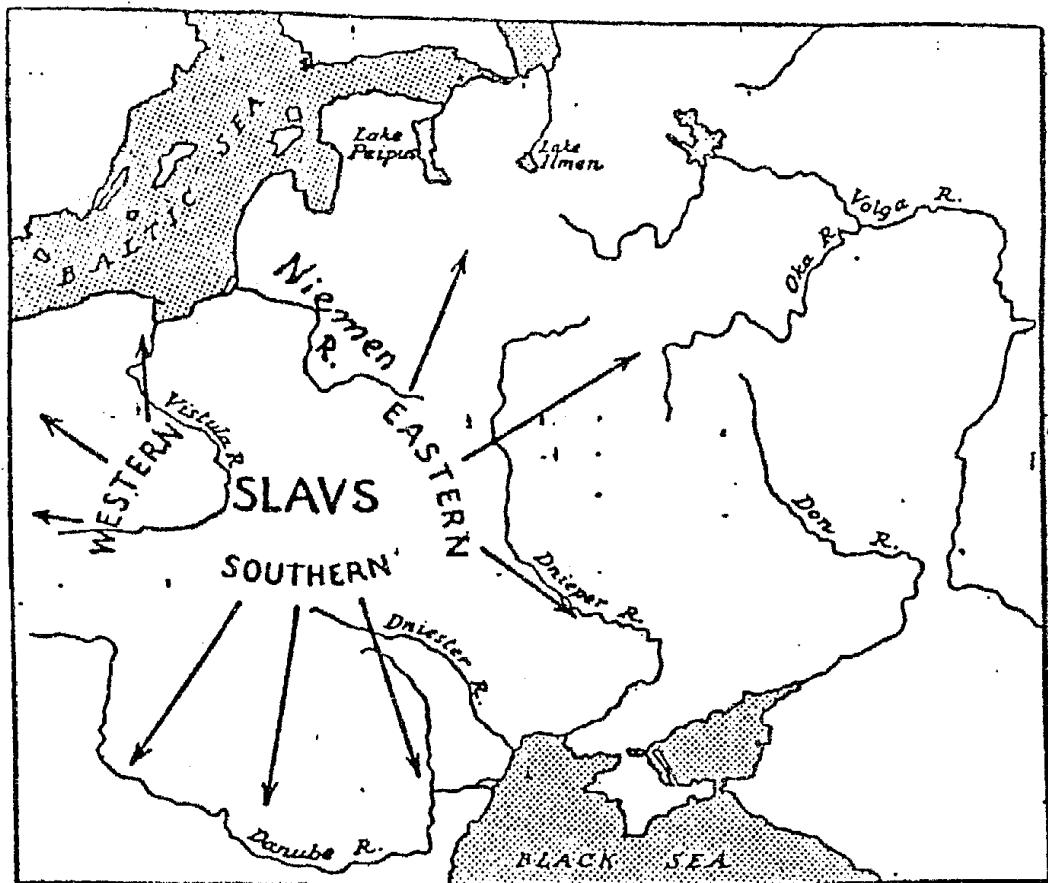
### هابسبورج

أدولف ناسو	١٢٩٨ - ١٢٩١
أبرت لأول	١٣٠٨ - ١٢٩٨

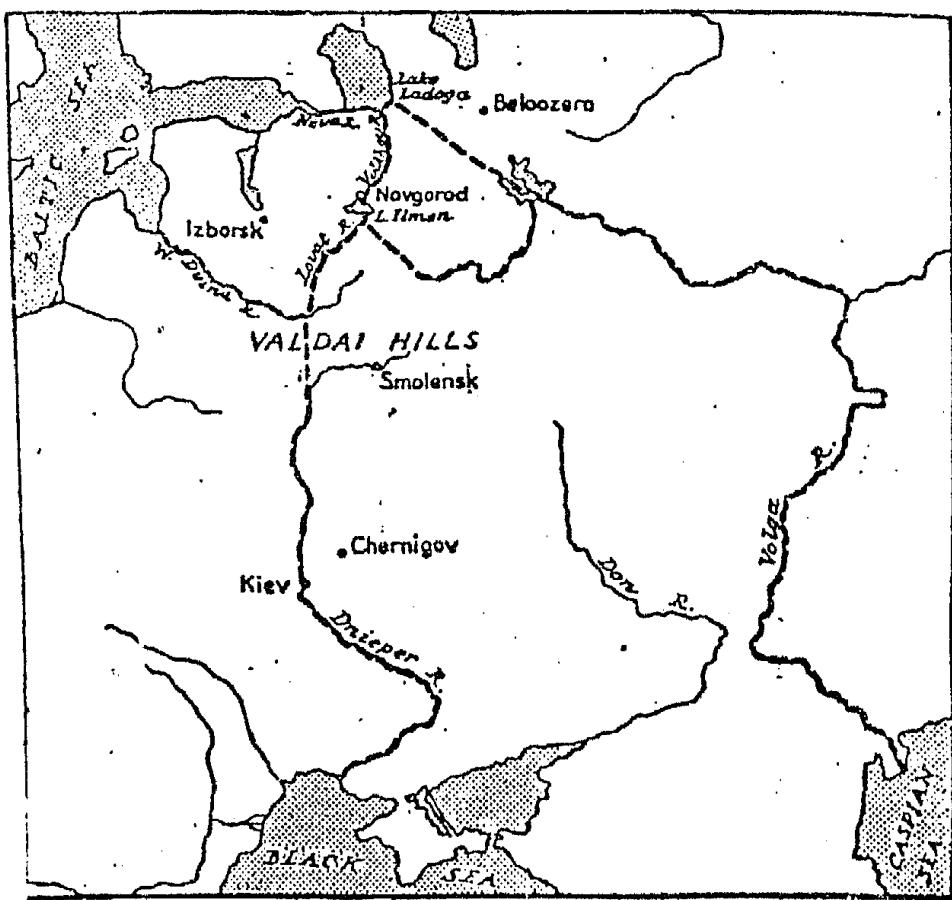
### الباباوات

انوست الثالث	١٢١٦ - ١١٩٨
هونوريوس الثالث	١٢٢٧ - ١٢١٦
جريجوري التاسع	١٢٤٠ - ١٢٢٧
لستين الرابع	١٢٦٤ - ١٢٤١

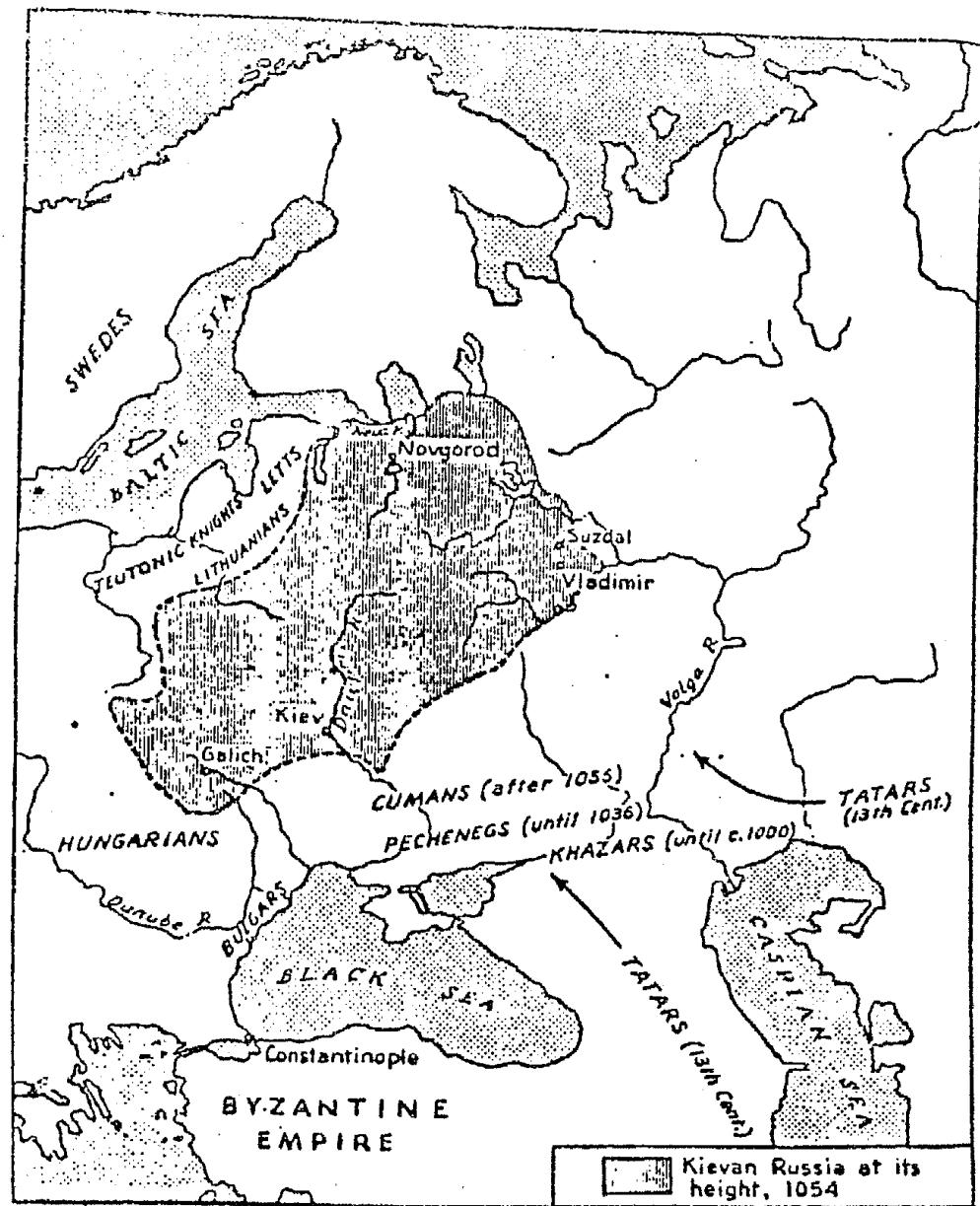
انوسنت الرابع	١٢٥٤ - ١٢٣٤
اسكندر الرابع	١٢٦١ - ١٢٥٤
أوريان الرابع	١٢٦٤ - ١٢٦١
كلمنت الرابع	١٢٦٨ - ١٢٦٥
جريجوري العاشر	١٢٧٦ - ١٢٧١
انوسنت الخامس	١٢٧٦
هدريان الخامس	١٢٧٦
حنا الواحد والعشرون	١٢٧٧ - ١٢٧٦
نيقولا الثالث	١٢٨٠ - ١٢٧٧
مارتن الرابع	١٢٨٥ - ١٢٨١
هونوريوس الرابع	١٢٨٧ - ١٢٨٥
نقولا الرابع	١٢٩٢ - ١٢٨٨
كلستين الخامس	١٢٩٤
بونيفاس الثامن	١٣٠٣ - ١٢٩٤
بنديكت الحادي عشر	١٣٠٤ - ١٣٠٣
كلمنت الخامس	١٣١٤ - ١٣٠٥
كلمنت الخامس	١٣١٤ - ١٣٠٥
حنا الثاني والعشرون	١٣٣٤ - ١٣١٦
(نيقولا الخامس)	١٢٣٠ - ١٣٢٨
بنديكت الثاني عشر	١٣٤٢ - ١٣٣٤
كلمنت السادس	١٣٥٢ - ١٣٤٢
انوسنت السادس	١٣٦٢ - ١٣٥٢
أوريان الخامس	١٣٧٠ - ١٣٦٢



انتشار السلاف في روسيا



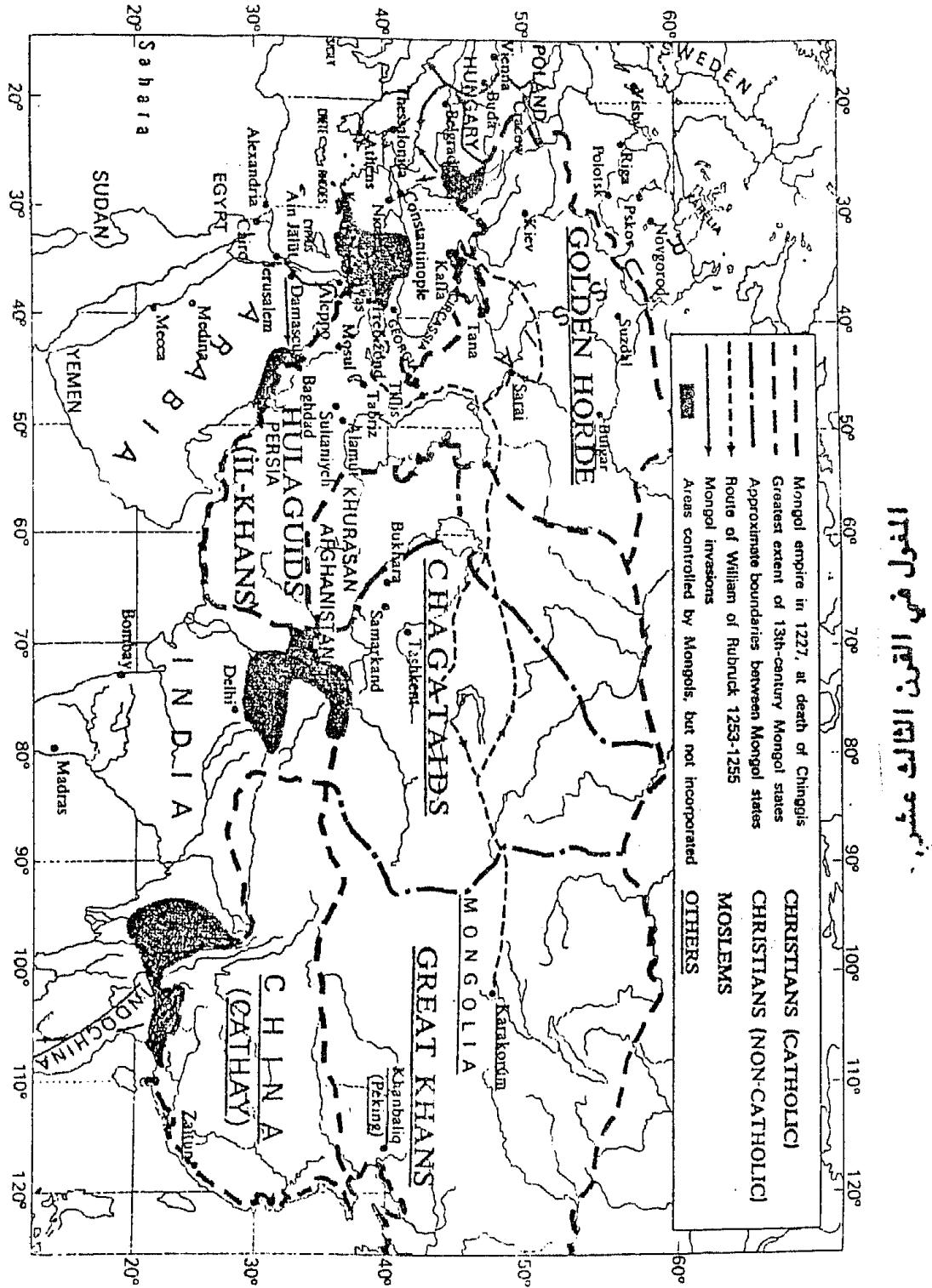
الطرق التجارية والمدن الروسية في القرن التاسع الميلادي

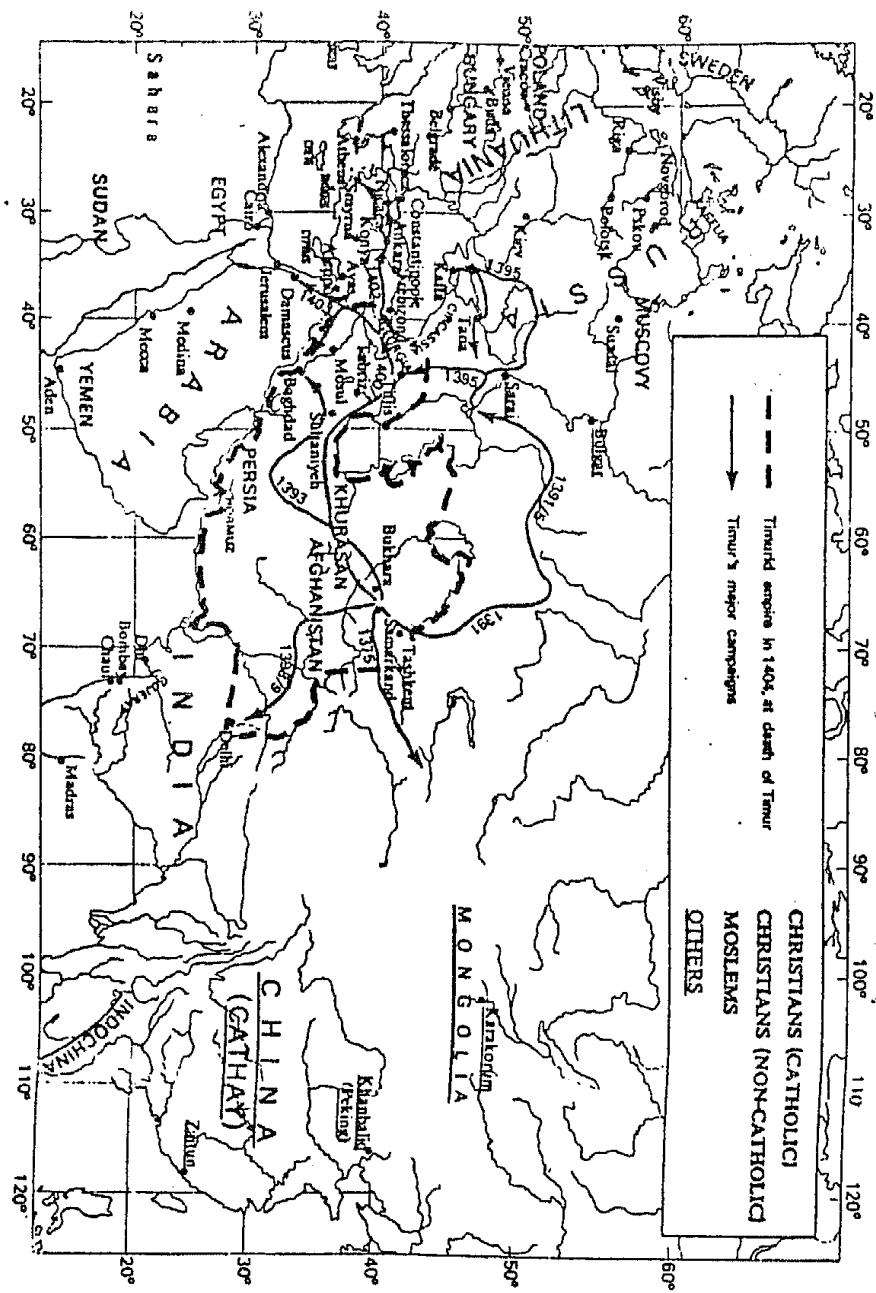


روسيا الكيفية وغزوات المغول



روسيا في القرن الخامس عشر الميلادي





الغزل في القرن الخامس عشر



## **المصادر والمراجع**

- ١ - المصادر العربية
- ٢ - المصادر الأجنبية
- ٣ - المراجع العربية
- ٤ - المراجع الوربية

## أ - المصادر العربية

ابن الأثير الجزري (ت ١٢٣٤هـ / ١٢٣٤م) أبو الحسن على بن أبي الكرم الملقب عز الدين :  
«الكامل في التاريخ - ١٢ ج ١٢ منجلد - ليدن ١٨٥٣م» .

ابن بطوطة (ت ١٣٧٧هـ / ١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبد الله:  
«مهدب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة الناظر في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» - الطبعة الأولى - القاهرة - (مطبعة السعادة)  
١٩٠٨هـ / ١٣٢٦م.

ابن خلدون (ت ١٤٠٦هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن محمد :  
«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن ابن خلكان (ت ١٢٨٢هـ / ١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس احمد بن ابراهيم:  
«وفيات الأعيان وأنباء الزمان» - ٢ ج - القاهرة (بولاق) ١٢٧٦هـ

ابن دقمق (ت ١٤٠٩هـ / ١٤٠٩م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي :  
«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ج ٤ و ٥ في مجلد واحد - بولاق - ١٣١٠هـ - ١٣٠٩هـ.

ابن الشحنه (ت ١٤١٣هـ / ١٤١٣م) محب الدين محمد بن محمد بن محمد .  
«روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر» - على هامش كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي - طبعة أولى - القاهرة (المطبعة الأزهرية المصرية) - ١٣٠٣هـ.

ابن الطقطقي (المتوفى بعد ٧٠١هـ / ١٣٣١م) فخر الدين محمد بن علي :  
«الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» - راجعه ونقحه محمد

عوض ابراهيم وعلى الجارم - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٨ م.

ابن عبدالظاهر (ت ١٢٩٢هـ / ١٢٩٢م) القاضي محي الدين أبو الفضل الروض  
الزاهر في سيرة الملك الظاهر - حققه عبدالعزيز المخوب - الرياض -  
١٩٧٦.

ابن عرب شاه :  
«عجائب المقدور في إخبار تيمور» - القاهرة - ١٢٨٥ هـ .

ابن العماد (ت ١٦٧٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبدالحي بن عبي بن محمد:  
«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» - ٨ ج - القاهرة ١٣٤٠ - ١٣٥١هـ

ابن الفرات (ت ١٤٠٧هـ / ١٤٠٧م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي :  
«تاريخ ابن الفرات» - المجلد الرابع ج ١ ، ٢ والمجلد الخامس ج ١ - عنى  
بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشمام - البصرة (مطبعة حداد)  
١٩٦٧ - ١٣٥١هـ .

ابن الفوطي (ت ١١٣١هـ / ١١٣١م) عبدالرازق بن أحمد الفوطي البغدادي :  
«الحوادث الجامدة والتجارب النافعة في المائة السابعة» - بغداد - (مطبعة  
الفرات) ١٣٥١هـ .

ابن كثير القرشي (ت ١٣٧٤هـ / ١٣٧٣م) عمار الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر :  
«البداية والنهاية في التاريخ» - ١٤ ج - القاهرة (مطبعة السعادة) .

ابن واصل (ت ١٢٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم .  
«مفرج الكروب في أخباربني أبوب» - ٤ ج - ج ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق  
الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة - ١٩٦٠ م ج ٤ تحقيق الدكتور حسين  
محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ م.

ابن الوردي (ت ١٣٤٩هـ / ١٢٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر :  
«تنمية المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ ابن الوردي» ج ٢ - القاهرة  
(الطبعة الوهبية) (١٢٨٥هـ / ١٩٦٨م) .

أبو الفدا (ت ١٣٣٢هـ / ١٢٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن على :  
«المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء» - ٤ ج - استانه  
(دار الطباعة الشاهانية) (١٢٨٦هـ) .

أبو الفرج الملطي (ت ١٢٨٦هـ / ١٢٨٥م) غريغور أبو الفرج بن أهرون :  
«تاريخ مختصر الدول» - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للبابا يسوعين)  
١٨٩٠م.

أبو المحاسن (ت ١٤٦٩هـ / ١٨٧٤م) جمال الدين أبو المحسن يوسف بن تغري بردي :  
«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» - ٩ ج - القاهرة (مطبعة دار  
الكتب المصرية) (١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م - ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م) .

البدرى الدمشقى (عاش في القرن التاسع هـ / الخامس عشر) عبد الله بن محمد  
البدرى المصرى الدمشقى المعروف بأبا البقاء :  
«نزهة الأنام في محاسن الشام» - القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤١هـ .

الذهبي (ت ١٣٤٧هـ / ١٢٤٨م) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين :  
«دول الإسلام» - ٣ ج - الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة  
بمدينة حيدر أباد الدكن) ١٣٣٧هـ .

السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين.

١ - « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين » - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد

- الطبعة الأولى - القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م.

٢ - « كتاب بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة » - القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٦هـ .

القلقشندى (ت ١٤١٨هـ / ١٤٢١م) أحمد بن على بن أحمد عبدالله:

« صبح الأعشى في صناعة الانشا » - ١٤ ج - القاهرة ١٩١٣هـ - ١٣٣٨هـ - ١٣٣١هـ / ١٩٢٠.

الكتبي (ت ٧١٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين :

« فوات الوفيات » - ٢ ج - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - القاهرة (مطبعة السعادة ١٩٥١م).

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس احمد :

« السلوك لمعرفة دول الملوك » - الجزءان الأول والثانى الى سنة ٧٤١هـ -

نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٣م.

## ب-المصادر الأجنبية

Fabri, Felix,

The Book of Wandering (1480 - 1483), 2 Vols. 4  
tram. by Aubrey stewart. London. Parts,

Joinville, Jean Sire de,

The life of Saint Louis, Panguin. 1973, pp. 161 - 353.

Matthew Pari

English History, tran. by J.A. Giles, 2 Vols.  
London 1852-3.

Marino Sanuto,

Secrets for true Grusaders, Tron. by Aubery  
stewart. London, 1896.

Macro Polo,

The Travels, Penguinm , 1974.

Oliver of Padenborn,

The Capture of Damiettce, trans. by J. Cavigan,  
Philadelphia, 1948.

Otto, Bishop of Freisin

The two Ciries, tran. by ch. Mierow, New York,  
1928.

Pretre - Jean,

Lettre au le Emperor Byzantine Manuel  
(1143-1180), dated 1155. Cf. Y. Kamal,  
Monumenta Cartographica Africaer. III Fasc IV,  
1934(pp. 890-1).

Roger of Wendover,

Flowers of History, 2 Vols, tran by J.A. Gilles,  
London, 1849.

Vitry, Jacques de

Letter de Jacques de Uitry, Leiden 1960.

#### ج - المراجع العربية والمغربية

ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام : بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية .

ترجمة الى العربية حسن ابراهيم حسن ، وعبدالمجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ، القاهرة ، د.ت .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :  
لوبيس التاسع في الشرق الاوسط . ١٢٥٤ - ١٢٥٠ م ، القاهرة ، ١٩٦٥.

حسن ابراهيم حسن (الدكتور)  
«انتشار الاسلام بين المغول وال Tartar » ، صحيفة الجامعة المصرية ، ١٩٣٣ .

سيزار ياروسلاف ، جوزيف فوزار :  
ـ « نقاط التلاقي والصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥ م ) » ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف : انظر جوزيف نسيم يوسف : دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ م .

عبدالسلام فهمي (الدكتور)  
تاريخ الدولة المغولية في ايران ، القاهرة ، ١٩٨٠ م

فايد حماد عاشور (الدكتور) :  
العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة . د . ت .

فائز نجيب اسكندر (الدكتور) :  
ـ مملكة ارمينيا الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى . ١٢٥٠ - ٦٤٨ هـ - ١٣٧٥ م . رسالة دكتوراه غير مطبوعة مقدمة لكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠ م .

فؤاد عبد المعطي الصياد (الدكتور) :  
السلطان محمود غازان حاكم المغول واعتناقه الاسلام، القاهرة ١٩٧٩ م.

لouisشيخو اليسوعي :  
«النصرانية بين قدماء الاترك والمغول» ، مجلة الشرق ، السنة السادسة  
عشرة ١٩١٣ ، ص ٧٥٤ - ٧٧٢ .

محمد صالح داود القزار (الدكتور) :  
الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغربية ، بغداد ، ١٩٧٠ م.

مصطفى طه بدر (الدكتور) :  
مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

#### د-المراجع الأوربية

- |                    |   |
|--------------------|---|
| Abel               | Extrait d'un second memoire sur les relations des rois de France avec les Empereurs mongoles. (J.A. T. lere serie).                 |
| Atiya, Aziz-Susyal | The Crusade in the Late Middle Ages, London 1938.   |
| Barthold, W.       | Cinghis Khan. Em. Is.<br>Khwaresm. En. Is.<br>Turkestan down to the Mongol Invasion.<br>London 1928.                                |
| Blochet, F.        | Turks, Turkman, Ghuzz, Berke, Kara-Khiti<br>Karluck, Arghun, Tatar, Ghazan, Rashid<br>al-Din Olcaito, Bourak. En. Is. Hulagu En Is. |

- Blochel, F. Introduction a l'histoie des mongoles de Rashid ed-Din. Leyde 1910.  
 - Deux residents mongols en Chine, et en Asie Centrale, de Tchinkhis Khan a Khoubilai, 1925.  
 - Successaires de Tchinkhiz Khagan, Leyde 1911.  
 - La Conquete des Etats nestoriens de L'Asie Centrale par les Chites, Revue de L'Orient Chretien, 1925 - 1926.
- Bouvant L'Empire Mongolo. Paris 1927.
- Bratianu Recherches sur le commerce genois dans la mer noire au XIII<sup>e</sup> siecle. Paris 1929.
- Bretschneider Medieval Researches 2 vols. London 1888.
- Brossct, M. Historie de la Georgie. Petersbourg 1949.
- Browne, E.G. A Literary History of Persia II.III Cambridge 1964.
- Budge, Wallis History of the Life and Travels of Rabban Souma, and Markos of the Nestorian Church in Asia 1928.
- Cahun Introduction a l'Historie de L'Asie. Paris 1896.  
 Cambridge Medieval History. Vol. IV.
- Canard, M. Un Traite entre Byzance et L'Egypte au III<sup>e</sup> siecle et les relations diplomatique de Michel VII Palcologue avec les Sultans Mamluks Bajbars et Qala'un. Melanges Gaudefroy Demombynes. Cairo 1937.  
 Le Traite de 1281 entre Michel Paleoplogne et le Sultan Qala'un. Byzantiun X (1935) pp. 669-680.
- Chabot Relations du roi Argon avec l'Occident. Revue de L'Orient latin 1894.
- Chapman, C. Michel Palcologue restaurateur de L'Empire Byzzantin (1961-1281). Paris 1926.
- Chronique de Michel le Syrien. Trans. J.B. Chabot (1899-1919).

- |                     |   |
|---------------------|---|
| Curtin              | The Mongols, Boston 1908.   |
| Czaplika            | The Turks of Central Asia in History and present day Oxford 1918.   |
| Darylk Forde, C.    | Habitat, Economy and Society. London 1966.  |
| Dawson, Christopher | The Mongol Mission. London 1955.  |
| D'Ohsson, M.        | Historie de Mongols depuis Techinguiz Khan isuqu'a Timur Bec. 2 Vols. Amsterdam 1834-1835 III (1852), IV (1835).  |
| Douglas             | The Life of Jenghis Khan. London 1877.  |
| Dulaurier           | Les Mongols d'apres les historiens armentiens.  |
| Gregory of Akner    | The History of the Nation of the Archers. e. R. Blake and R. Frye. Cambridge Mass. 1954.  |
| Grousset, R.        | Le Monde Mongol, Historie de L'Asie t. III Paris 1922.<br>L' Empire de Steppes, Paris 1948.<br>Historie des Croisades T. III. Paris 1936.<br>Historie de L'Extreme-Orient. T. II, Paris 1929. |
| Heyd, U             | Historie du Commerce du Levant au Moyen-Age, 2 Vols. 1923.  |
| Howorth, H.         | History of the Mongols. 5 vols. London 1876-1888.   |
| Le Strange          | Mesopotamia and Persia under the Mongols (XIV C). LONDON 190#.  |
| Martin, H.D.        | The Rise de Chingis Khan and his conquest of North China. Baltimore 1950.   |
| Morgan D.,          | The Mongols, Cambridge, 1996,   |

- Oliver The Chagatai Mughais J.R.A.A. 1888.

Parker, E.H. A thousand years of the Tartars. London 1895.  
Mongolia after Genghizides and before the Manchus. Journal of North China. branch R.A.S. XLIV 1918.

Pelhiot, P A propos de Comans. J.A 1920. I.  
Chwtiens d'Asie. Centrale et d'Extreme-Orient. 1914.  
Mongols et Papes, aux XIIIe et XIVe siecles. Seance de L'Institut. 25 Octobre 1922.  
Les Mongols et la Papaute. Revue de L'Orient

Ross, Dension History of the Mongols of Central Asia. London 1985.

Rockhill The Journey of William of Rubruck. Hakluyt. London 1908.

Rubens Duval Le Partiarche Mar. Jabalaha III et les Prineces Mongols de l'Adherbaidjan (Journal Asiatique, serie VIII T. XIII 1889).

Runcirman, steven History of the Crusades. Cambridge vol. III 1954.

Sauvaget, Jean Introduction to the History of the Muslim East. Second Edition. Cl. Cahen, Carliifornia 1965.

Sectton, K.M., (ed) A History of the Crusades. 5 Vols. Pennsylvania, 1958-1985.

Shrine and Dension The Heart of Asia London, 1899.  
Ross

Sykes, Sir Percy A History of Persia. Vol. II. London 1963.  
History of Bokhara. London 1873.

Vambry G. The Golden Horde, Egypt, and Byzantium in their mutual relations in the Reign of Michel Paleologue. Annales de L'institut.



## كتب وابحاث

الاستاذ الدكتور محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

### الكتب :

- ١- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة أولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب اسكندرية ، ١٩٧٨ .
- ٢- الحملة الصليبية الخامسة : طبعة ثانية ، دار المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥ .
- ٣- ادارة الامبراطورية البيزنطية ترجمة وتعليق - دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٤- معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار النهضة - بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٥- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- ٦- مملكة الوندال في شمال افريقيا ، دار المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥ .
- ٧- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، اسكندرية ، ١٩٨٥ .
- ٨- القادة الصليبيون الأسرى في أيدي المسلمين ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٩- تاريخ الحروب الصليبية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- ١٠- حضارة أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٩١ .
- ١١- تاريخ مصر في العصر البيزنطي ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٦ .
- ١٢- أوروبا والمغول ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ١٩٩٧ .

ثانيا - البحوث :

- ١- نيكولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٢- المؤرخ جريجوري التورى ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٣- الإمبراطورية رومانوس الرابع ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ٨٢ / ١٩٨٣ .
- ٤- أركولف ورحلته إلى الشرق ، بحث منشور في ندوة التاريخ الإسلامي والوسط - جامعة عين شمس ، المجلد ١٣ دار المعرف ، ١٩٨٥ .
- ٥- كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين ، بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام - الأردن عمان ، ١٩٨٧ .
- ٦- صلاح الدين من الاسكندرية إلى حطين ، بحث في المؤتمر الدولي لذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين ، بغداد ، ١٩٨٧ .
- ٧- السفراء والقناصل في عصر بالمحروب الصليبية ، بحث القى في الموسم الثقافي لجامعة بيروت العربية - بيروت ، ١٩٨٨/٨٧ .
- ٨- الهدن بين المسلمين والصلبيين في عصر الدولة الأيوبية ، بحث القى في ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ٢٠-٢٢ ، أكتوبر ١٩٩٢ كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٩٢ .
- ٩- رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومصر ٥٦٠ - ٥٧٠ م ، بحث القى في ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى الثانية ، ١١-١٠-٣٠ إلى ١١-١٠-٣٠ ، ١٩٩٣ ، كلية الآداب - جامعة المنيا ، ١٩٩٣ .
- ١٠- تحصينات مدينة القدس القسطنطينية في مواجهة الغزوات الخارجية ، بحث القى في ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار - اتحاد المؤرخين

العرب، القاهرة ٨-٦ نوفمبر ١٩٩٣ .

- ١١ - مصر في كتب الرحالة الاجانب في العصر البيزنطي ، بحث القى في مؤتمر الاسكندرية الدولي حول التبادل الحضاري بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ٢٢ - ٢٦ يناير ١٩٩٤ .
- ١٢ - دور الحركة الصليبية في تكوين مملكة البرتغال ، ندوة الأندلس : الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ٢٥-١٣ أبريل ١٩٩٤ .
- ١٣ - حلولية سقوط لشبونة ١١٤٧م ، ندوة الغرب الاسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى كلية الآداب ، الرياط ٤ - ٢ ، نوفمبر ١٩٩٤ ، نشر ١٩٩٥ .
- ١٤ - السلطان قلاوون بين أوروبا والمغول ، بحث القى في ندوة مدينة طرابلس لبنان بمناسبة مرور ٧٠٠ عام على بناء الجامع المنصوري ٢٤-١٧ نوفمبر ١٩٩٤ .
- ١٥ - روسيا وسقوط الامبراطورية البيزنطية ، ندوة تاريخ وحضارة العصور الوسطى - كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية - ٢٤ - ٢٥ ابريل ١٩٩٤ .
- ١٦ - تحصينات مدينة دمياط في عصر الحروب الصليبية ، ندوة التاريخ العسكري لشمال مصر عبر العصور ، كلية لآداب ، ٨ - ٩ اكتوبر ١٩٩٥ .
- ١٧ - وليم آدم واستعادة الأرض المقدسة ، ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٨ - ٣٩ نوفمبر ١٩٩٥ .
- ١٨ - القدس في كتب الرحالة الاجانب في العصر البيزنطي ، ندوة القدس: التاريخ والحضارة ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ٥-٢ نوفمبر ١٩٩٦ .
- ١٩ - العلاقة بين مغول فارس و Mgol القفجاق بعد معركة عين جالوت

- ١٢٦ - ١٢٧ م ، بحث القى فى ندوة اقليم الخليج على مر عصور التاريخ - اتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة ٢٣ - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦ .
- ٢٠ - شارل كونت أنجيو بين القسطنطينية وتونس والقدس ، بحث القى فى ندوة بلاد المغرب وعلاقاتها بالشرق حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى « التاسع الهجرى » ، القاهرة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ، ١٩٩٧ .
- ٢١ - حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين فى مدينة الاسكندرية ٥٦٢ هـ ، بحث القى فى ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة ٢٢ - ٢٣ ابريل ١٩٩٨ .
- ٢٢ - الحركة الفكرية في الاسكندرية في القرون الأولى للمسيحية ، مشاركة في الكتاب الذي اصدرته محافظة الاسكندرية (د.ت) .
- ٢٣ - المراكز الحضارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى ، بحث القى في المؤتمر الدولي الثالث ( التبادل الشفافى بين شعوب البحر المتوسط ) - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية بالاشتراك مع وزارة الثقافة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨ .
- ٢٤ - العرب في مدونة المؤرخ السريان زكريا الملطي ، بحث القى ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة تحت اسم « أصوات جديدة على مصادر تاريخ العرب » ٢٤-٢٦ نوفمبر ١٩٩٨ .

### ثالثا - كتب باللغة الانجليزية :

Contributors,

Chronicles of the Crusades, Eye - Witness Accounts of the Wars Between Christianity and Islam - Edited by Elizabeth Hallam, London 1989 .

**رابعا - بحوث باللغة الأجنبية :**

- 1- King Amalric and the Siege of Alexandria, in the First Conference of the Crusades and the Latine East, Cardiff 1 - 4 Cardiff 1985, U.K.
- 2- Truces between Moslems and Crusaders (1174 - 1217) in Autour de la Premiere Croisade Actes du Colloque de la society for the Study of the Crusades and the Latin East (Clermont - Ferand 22 - 25 Juin 1995 France)Reunis par Nichel Balard, Publication de la sorbonne, Paris 1996.
- 3- John Kinnamos As a Historian of the Second Crusade. In the international symposium on Crusade. Istanbul 23 -25 June 1997 .
- 4- Edward I king of England and the Holy land (Jerusalem) In the 35th International Congress of Asian and North African studies, Budapest 2 - 21 July 1997 .







**To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)**